تهذيب شرح
عقيدة أهل السنة والجماعة

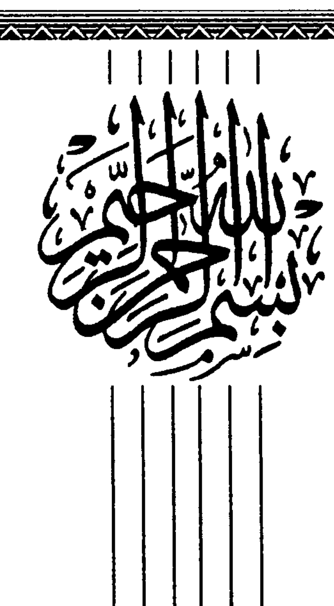
شرح فضيلة الشيخ
محمد بن صالح العثيمين
رحمه الله

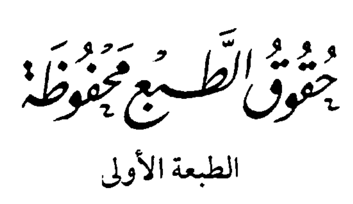
هذبه وزاد عليه فضيلة الشيخ
أبي عبد الله محمد بن سعيد رسلان

دار المحسن
للنشر والتوزيع

تهذيب

شرح عقيدة أهل السنة والجماعة

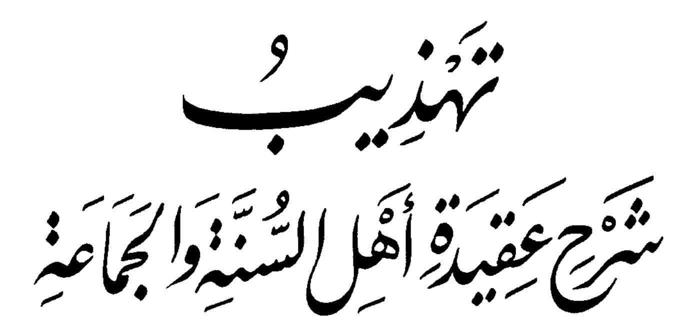








جمهورية مصر العربية - القاهـرة
٠٠٢٠١٠١٠٠١١٤٥ - ٠٠٢٠١٢٢٣٨٦٨٤١٠ - ٠٠٢٠١٠٥٨٦٦٢٠١
E-Mail: adwaasalaf2007@yahoo.com



للعلامة الشيخ

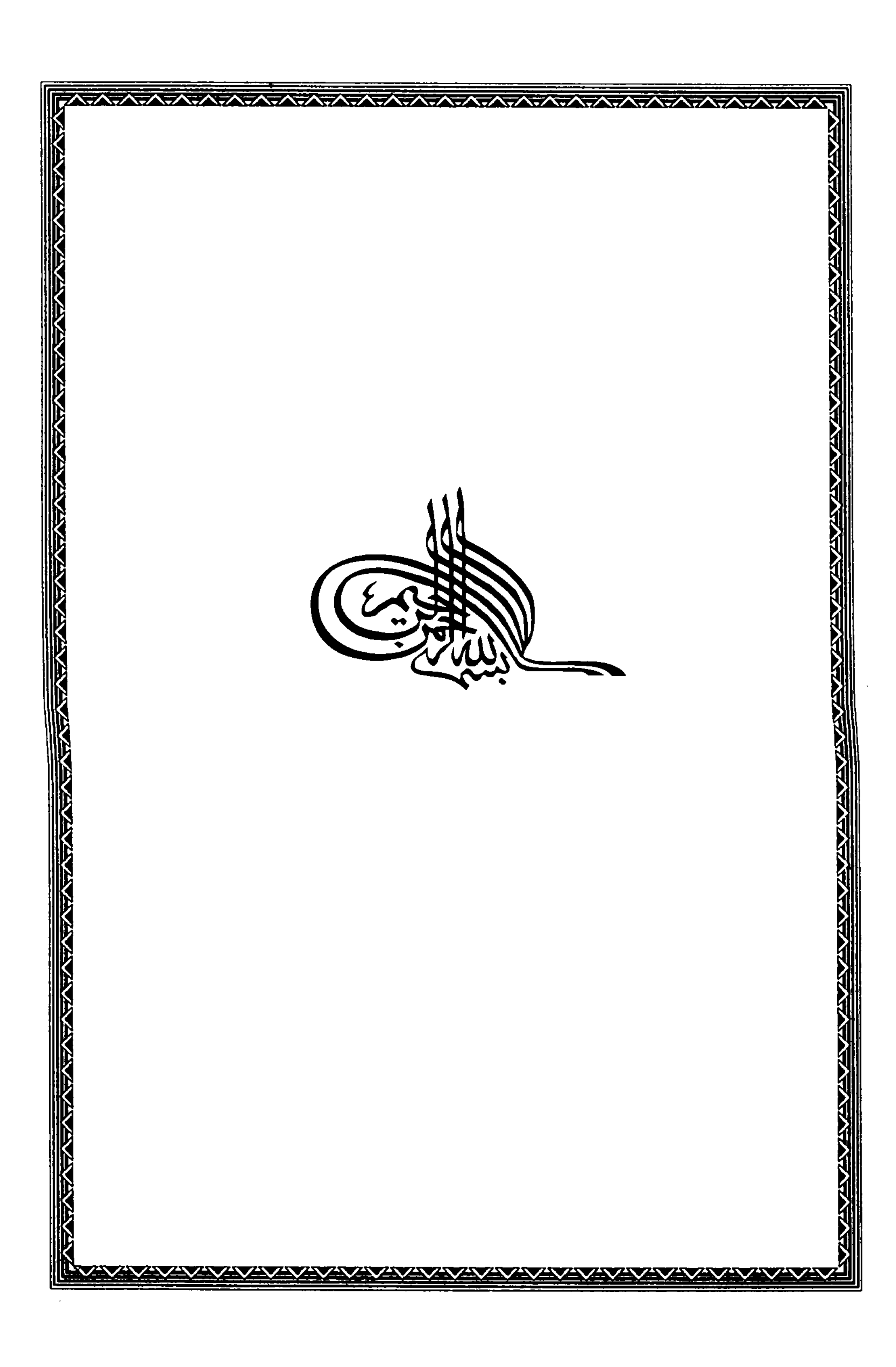
محمد بن صالح بن عثيمين

هذبه وزاد عليه فضيلة الشيخ

أبي عبد الله محمد بن سعيد رسلان






بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحَمْدَ لله، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِالله مِنْ شُرُورِ أَنفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنا، مَن يَهْدِهِ الله فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا الله، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وَكُلَّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعدُ:

فَدِينُ الإسْلَامِ العَظِيمُ يَقُومُ عَلَىٰ أَصْلَينِ هُمَا:

أَلَّا يُعْبَدَ إِلَّا اللهُ، وَأَلَّا يُعْبَدَ اللهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ.

وَالإِسْلَامُ هُو الاستِسْلَامُ للهِ وَحْدَهُ، بِشَهَادَةِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ البَيْتِ، فَهُو الخُضُوعُ لله تَعَالَىٰ، وَالعُبُودِيَّةُ لَهُ وَحْدَهُ، فَمَن استَكْبَرَ عَن عِبَادَتِهِ، وَأَشْرَكَ مَعَهُ غَيرَهُ فَغَيرُ مُسْلِمٍ.

وَقَد أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَىٰ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِالهُدَىٰ وَدِينِ الحَقِّ، فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّىٰ الأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ حَتَّىٰ أَتَاهُ اليَقِينُ.

وَقَد أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَن أُمُورٍ تَقَعُ بَعْدَهُ، فَوَقَعَتْ كَمَا أَخبَرَ وَهُو الصَّادِقُ المَصْدُوقُ ﷺ.

وَقَد اختَلَفَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأُمُورِ العَقَدِيَّةِ، وَخَالَفُوا مَا كَانَ عَلَيهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَتَصَدَّىٰ العُلَمَاءُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَمَن بَعْدَهُمْ لِبَيَانِ انحِرَافِ مَنِ انحَرَفَ، وَالتَّحْذِيرِ مِن زَيغِ مَن زَاغَ.

وَقَد تَتَابَعَتْ كِتَابَاتُ الأَئمَّةِ فِي العَقِيدَةِ، وَبَيَانِ أُصُولِهَا، وَالرَّدِّ عَلَىٰ المُخَالِفِينَ لِحَقِيقَتِهَا، وَكَثُرَتْ تِلْكَ المُؤَلَّفَاتُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، وَللهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ.

وَمِمَّن أَلْقَىٰ بِدَلوِهِ بَينَ الدِّلاءِ فِي ذَلِكَ، فَامتَاحَ، فَعَادَتْ مَلأىٰ ظَاهِرَةً:

العَلَّامَةُ الشَّيخُ مُحَمَّدُ بنُ صَالِحِ بنِ عُثَيمِين -رَحِمَهُ الله تَعَالَىٰ-، فَكَتَبَ «**عَقِيدَةَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ**» وَشَرَحَهَا -رَحِمَهُ الله تَعَالَىٰ- شَرْحًا مُتَوسِّطًا بَدِيعًا.

وَقَد هَذَّبتُ ذَلِكَ الشَّرْحَ، وَزِدتُ عَلَيهِ فِي مَوَاضِعَ، لِتَقْرِيبِهِ لِطُلَّابِ العِلْمِ الشُّدَاةِ، بَل لِعُمُومِ المُسْلِمِينَ بِحَوْلِ الله وَقُوَّتِهِ.

وَكُنتُ قَد دَرَّستُهُ الطُّلَّابَ كُلَّهُ، وَنَفَع اللهُ بِهِ نَفْعًا عَظِيمًا، وَللهِ المِنَّةُ وَحْدَهُ.

وَأَسأَلُ اللهَ أَن يَنْفَعَ بِهِ، وَأَن يَجْعَلَهُ خَالِصًا لِوَجْهِهِ، وَأَن يَتَقَبَّلَهُ بِقَبُولٍ حَسَنٍ، وَأَن يُجْزِلَ المَثُوبَةَ لِكُلِّ مَنْ نَظَرَ فِيهِ، أَو دَلَّ عَلَيهِ، وَأَرْشَدَ إِلَيهِ، أَو اجتَهَدَ فِي طَبْعِهِ، وَنَشْرِهِ، وَتَوزِيعِهِ، إِنَّه تَعَالَىٰ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ.

وَصَلَّىٰ الله عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ أَبَويهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ، وَعَلَىٰ سَائِرِ الأَنبِيَاءِ وَالمُرسَلِينَ، وَالآلِ وَالصَّحْبِ، وَسَلَّم تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

وآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

وكتب

أبو عبد الله

محمد بن سعيد بن رسلان

-عفا الله عنه وعن والديه-

سُبك الأحد

الجمعة: ٢٤ من رجب ١٤٣٠

١٧ من يوليه ٢٠٠٩

معنى التوحيد، وأقسامُهُ، وأدلَّتُهَا

التَّوْحِيدُ لُغَةً: مَصْدَرُ وَحَّدَ، يُوَحِّدُ، تَوْحِيدًا، أَي: جَعَلَهُ وَاحِدًا.

قَالَ السَّفَارِينيُّ فِي «لَوَامِعِ الأنوَار» (١/ ٥٦-٥٧): «وَالتَّوحِيدُ: تَفْعِيلٌ للنِّسْبَةِ؛ كَالتَّصْدِيقِ، وَالتَّكذِيبِ، لَا للجَعْلِ، فَمَعْنَىٰ: وَحَّدتُ اللهَ: نَسَبْتُ إِلَيهِ الوَحْدَانِيَّةَ، لَا جَعْلَتُهُ وَاحِدًا، فَإِنَّ وَحْدَانِيَّةَ اللهِ ذَاتِيَّةٌ لَيْسَتْ بِجَعْلِ جَاعِلٍ».

وَالمُوَحِّدُ: يَجْعَلُ اللهَ وَاحِدًا فِي أَفْعَالِهِ التَّعَبُّدِيَّةِ؛ إِذِ التَّوْحِيدُ إِفْرَادُ الخَالِقِ بِالعِبَادَةِ؛ ذَاتًا وَصِفَةً وَأَفْعَالًا.

قَالَ فِي «تَيسِير العَزِيز الحَمِيد» (١/ ١٣٨): «وَسُمِّيَ دِينُ الإِسْلَامِ: تَوْحِيدًا؛ لأَنَّ مَبْنَاهُ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ وَاحِدٌ فِي مُلْكِهِ، وَأَفْعَالِهِ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَوَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ لَا نَظِيرَ لَهُ، وَوَاحِدٌ فِي إِلَهِيَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ لَا نِدَّ لَهُ، وَإِلَىٰ هَذِهِ الأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ يَنْقَسِمُ تَوْحِيدُ الأنبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ الَّذِينَ جَاءُوا بِهِ مِن عِنْدِ اللهِ، وَهِي مُتَلَازِمَةٌ، كُلُّ نَوْعٍ مِنْهَا لَا يَنْفَكُّ عَنِ الآخَرِ، فَمَن أَتَىٰ بِنَوْعٍ مِنْهَا وَلَم يَأْتِ بِالآخَرِ، فَمَا ذَاكَ إِلَّا لأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِهِ عَلَىٰ وَجْهِ الكَمَالِ المَطْلُوبِ».

وَالتَّوْحِيدُ شَرْعًا: إِفْرَادُ اللهِ تَعَالَىٰ بِمَا يَخْتَصُّ بِهِ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَالأُلُوهِيَّةِ،

وَالأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، فَيَنْقَسِمُ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَتَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ، وَتَوْحِيدِ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَقَد اجتَمَعَت فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥].

وَقَد قَسَّمَ العُلَمَاءُ التَّوحِيدَ إِلَىٰ ثَلاثَةِ أَقسَامٍ:

١ - **تَوحِيدِ الرُّبوبِيةِ**: وَهُوَ إِفرَادُ اللهِ ﷻ بِالخَلقِ، وَالمُلكِ، وَالتَّدبيرِ.

فَإِفْرَادُهُ تَعَالَىٰ بِالخَلْقِ؛ أَن يَعْتَقِدَ المَرءُ أَنَّه لَا خَالِقَ إِلَّا اللهُ.

وَإِفْرَادُهُ تَعَالَىٰ بِالمُلْكِ؛ أَن يَعْتَقِدَ العَبْدُ أَنَّه لَا يَملكُ الخَلْقَ إِلَّا خَالِقُهُم.

وَإِفْرَادُهُ تَعَالَىٰ بِالتَّدْبِيرِ؛ أَن يَعْتَقِدَ أَنَّهُ لَا مُدَبِّرَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ.

فَتَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ هُو: إِفْرَادُ اللهِ تَعَالَىٰ بِأَفْعَالِهِ، أَو: هُو تَوحِيدُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي أَفْعَالِهِ.

٢ - **تَوحِيدِ الأُلُوهِيةِ**: وَهُوَ إِفرَادُ اللهِ ﷻ بِالعِبادَةِ وَحْدَهُ.

وَيُقَالُ لَهُ: تَوْحِيدُ العِبَادَةِ؛ وَذَلِكَ بِاعتِبَارِ إِضَافَتِهِ إِلَىٰ الخَلْقِ، وَهُو تَوحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ باعتِبَارِ إِضَافَتِهِ إِلَىٰ اللهِ.

وَإِفرَادُكَ اللهَ بِهَذَا التَّوحِيدِ: أَن تَكُونَ عَبْدًا للهِ وَحْدَهُ، تُفْرِدُهُ بِالتَّذَلُّلِ، مَحَبَّةً وَتَعظِيمًا، وَتَعبُدُهُ بِمَا شَرَعَ.

فَتَوحِيدُ الألُوهِيَّةِ هُو: تُوحِيدُ اللهِ فِي أَفْعَالِ العِبَادِ؛ وَذَلِكَ بِصَرْفِ جَمِيعِ أَنْوَاعِ العِبَادَاتِ مِن: خَوفٍ وَرَجَاءٍ، وَرَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ، وَإِنَابَةٍ وَخَشْيَةٍ، وَتَوكُّلٍ وَخَوْفٍ، وَذَبْحٍ وَنَذرٍ، وَدُعَاءٍ، وَغَيرِ ذَلِكَ مِن أَنْوَاعِ العِبَادَاتِ للهِ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

٣- **تَوحِيدِ الأسمَاءِ والصِّفاتِ**: وَهُوَ إفرَادُ اللهِ سُبحانَهُ بِمَا سَمَّىٰ بِهِ وَوَصَفَ بِهِ نَفسَهُ فِي كِتَابِهِ، أو عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ، وَذَلِكَ بِإثبَاتِ مَا أثبَتَهُ وَنَفيِ مَا نَفَاهُ، مِن غَيرِ تَحرِيفٍ وَلَا تَعطِيلٍ، وَمِن غَيرِ تَكييفٍ وَلَا تَمثِيلٍ.

فَتَوحِيدُ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ يَتَضَمَّنُ أَمْرَينِ:

الأَوَّلُ: الإثبَاتُ، وَذَلِكَ بِأَن نُثْبِتَ للهِ تَعَالَىٰ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ مِنَ الأَسْمَاءِ الحُسْنَىٰ وَالصِّفَاتِ المُثْلَىٰ، فِي كِتَابِهِ أَو عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ إثبَاتًا بِلَا تَكييفٍ وَلَا تَشبِيهٍ وَلَا تَمْثِيلٍ.

وَالثَّانِي: أَن نَنفِيَ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ مَا نَفَاهُ عَن نَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ، أَو عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ، وَكُلُّهَا صِفَاتُ نَقْصٍ يَجِبُ نَفيُهَا مَع اعتِقَادِ كَمَالِ ضِدِّهَا، فَنَفِيُ العَجزِ لِثُبُوتِ كَمَالِ القُدْرَةِ، وَنَفيُ الظُّلْمِ لِثُبُوتِ كَمَالِ العَدْلِ، وَنَفْيُ النَّومِ لِثُبُوتِ كَمَالِ الحَيَاةِ وَالقَيُّومِيَّةِ ...

وَأدِلَّةُ أقسَامِ التَّوحِيدِ: التَّتَبُّعُ والاستِقرَاءُ، واستِئنَاسًا بِقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥].

- فَقولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ تَوحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ.

- وقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾ تَوحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ.

- وقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ تَوحِيدُ الأسمَاءِ والصِّفَاتِ؛ لأنَّ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾؛ أي: لَا تَعْلَمُ لَهُ نَظِيرًا وَمُسَاوِيًا، فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ.

قَالَ الشَّيخُ عَبدُ الرَّحْمَن السَّعدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «المَوَاهِب الرَّبَّانِيَّة مِن الآيَات القُرآنِيَّة» (ص٤٤)، **عِند ذِكْرِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ:** «اشتَمَلَتْ عَلَىٰ أُصُولٍ عَظِيمةٍ؛ عَلَىٰ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَأَنَّه تَعَالَىٰ رَبُّ كُلِّ شَيءٍ وَخَالِقُهُ وَرَازِقُهُ وَمُدَبِّرُهُ، وَعَلَىٰ تَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ وَالعِبَادَةِ، وَأَنَّه تَعَالَىٰ الإلهُ المَعْبُودُ، وَعَلَىٰ أَنَّ رُبُوبيَّتَهُ مُوجِبَةٌ لِعِبَادَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَلِهَذَا أَتَىٰ فِيهِ بِالفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾ الدَّالَّةِ عَلَىٰ السَّبَبِ، أي: فَكَمَا أَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيءٍ، فَلْيَكُن هُو المَعبُودَ حَقًّا فَاعْبُدْهُ.

وَمِنْهُ: الاصطِبَارُ لِعِبَادَتِهِ تَعَالَىٰ، وَهُو جِهَادُ النَّفْسِ، وَتَمْرِينُهَا عَلَىٰ عِبَادَةِ الله تَعَالَىٰ، فَيَدخلُ فِي هَذَا أَعْلَىٰ أَنْوَاعِ الصَّبرِ، وَهُو الصَّبرُ عَلَىٰ الوَاجِبَاتِ وَالمُسْتَحبَّاتِ، وَالصَّبرُ عَنِ المُحَرَّمَاتِ وَالمَكرُوهَاتِ، بَل يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الصَّبرُ عَلَىٰ البَلِيَّاتِ؛ فَإِنَّ الصَّبرَ عَلَيهَا، وَعَدَمَ تَسَخُّطِهَا، وَالرِّضَا عَنِ اللهِ بِهَا: مِنْ أَعْظَمِ العِبَادَاتِ الدَّاخِلَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم:٦٥].

وَاشْتَمَلَتِ [الآيَةُ] عَلَىٰ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ كَامِلُ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، عَظِيمُ النُّعُوتِ، جَلِيلُ القَدْرِ، وَلَيْسَ لَهُ فِي ذَلِكَ شَبِيهٌ، وَلَا نَظِيرٌ، وَلَا سَمِيٌّ، بَل قَد تَفَرَّدَ بِالكَمَالِ المُطْلَقِ مِن جَمِيعِ الوُجُوهِ وَالاعتِبَارَاتِ».

وَالرَّدُّ عَلَىٰ دَعوَىٰ بِدعِيَّةِ التَّقسِيم: أنَّ أشيَاءَ كَثِيرَةً رَتَّبهَا العُلَمَاءُ، لَم تَكُن مُرَتَّبَةً عَلَىٰ عَهدِ الرَّسولِ ﷺ عَلَىٰ النَّحْوِ الَّذِي رَتَّبُوهَا عَلَيهِ؛ كَشُرُوطِ الصَّلَاةِ، وَأَرْكَانِهَا، وَوَاجِبَاتِهَا، وَأَرْكَانِ الحَجِّ، وَوَاجِبَاتِهِ، وَمَحظُورَاتِهِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَهَذَا لَا يَعدُو أنْ يَكُون بَيانًا وتَوضِيحًا، وَالَّذِينَ قَسَّموهُ لَم يَأتُوا بِزَائِدٍ، وَلَم يُنكِروا ثَابِتًا، بَل أتَوا بِمَا جَاءَ بِهِ الكِتَابُ والسُّنَّةُ، ولَكِن قَسَّموهُ، وتَقسِيمُهُم بِاعتِبَارِ اختِلَافِ النَّاسِ فِيهِ، ونَحنُ لَا نَذكرُ هَذَا مُتَعبِّدِينَ للهِ بِهِ، وَلَكِنَّنَا نَذكرُ هَذَا مُقَرِّبِينَ بِهِ العِلمَ إِلَىٰ طُلَّابِهِ؛ فَهُوَ إِذَنْ وَسِيلَةٌ وَلَيسَ قَصْدًا.

* **أقوَالُ العُلَمَاءِ حَولَ تَقسِيمِ التَّوحِيدِ:**

قَالَ الشَّيخُ بَكر أبو زَيدٍ فِي «التَّحْذِير مِن مُختَصَرَات الصَّابُونِي فِي التَّفْسير» (ص٣٠): «هَذَا التَّقسِيمُ -يَعنِي لِلتَّوحِيدِ- الاستِقرَائِيُّ لَدَىٰ مُتَقدِّمِي عُلمَاءِ السَّلفِ، أشَارَ إِلَيهِ: ابنُ مَندَه، وابنُ جَرِيرٍ الطَّبرِيُّ، وغَيرُهُمَا، وقَرَّرَهُ شَيخَا الإِسلَامِ ابنُ تَيمِيَّةَ وابنُ القَيمِ، وقَرَّرَهُ الزَّبِيدِيُّ فِي «تَاجِ العَروسِ» والشَّيخُ الشِّنقِيطِيُّ فِي «أضوَاءِ البَيانِ»، فِي آخَرِينَ -رَحِمَ اللهُ الجَمِيعَ-.

وَهُوَ استِقرَاءٌ تَامٌّ لِنُصوصِ الشَّرعِ، وَهُوَ مُضطَرِدٌ لَدَىٰ أهلِ كُلِّ فَنٍّ فِي عِلمِهِم؛ كَمَا فِي استِقرَاءِ النُّحاةِ كَلامَ العَرَبِ إِلَىٰ اسمٍ وفِعلٍ وحَرفٍ، وَالعَرَبُ لَم تَفُهْ بِهَذَا، وَلَم يَعْتِبْ عَلَىٰ النُّحَاةِ فِي ذَلِكَ عَاتبٌ».

فَأَقْسَامُ الكَلَامِ ثَلَاثَةٌ: اسْمٌ، وَفِعلٌ، وَحَرْفٌ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: مَا الدَّلِيلُ عَلَىٰ أَنَّ أَقْسَامَ الكَلَامِ ثَلَاثَةٌ؟ هَل فِي القُرْآنِ مَا

يَدلُّ عَلَىٰ أَنَّ أَقْسَامَ الكَلَامِ ثَلَاثةٌ؟ أَو فِي السُّنَّةِ مَا يَدلُّ عَلَىٰ أَنَّ أَقْسَامَ الكَلَامِ ثَلَاثةٌ؟ أَو فِي الإجْمَاعِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ أَقْسَامَ الكَلَامِ ثَلَاثةٌ؟ أَو فِي القِيَاسِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ أَقْسَامَ الكَلَامِ ثَلَاثَةٌ؟

فَالجَوَابُ: لَيْسَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ، وَلَا فِي السُّنَّةِ، وَلَا فِي الإجْمَاعِ، وَلَا فِي القِيَاسِ، وَلَكِنَّ العُلَمَاءَ لَهُم دَلِيلٌ عَلَىٰ انحِصَارِ أَقْسَامِ الكَلَامِ فِي ثَلَاثَةٍ، وَهُو: التَّتَبُّعُ والاستِقْرَاءُ؛ يَعْنِي: تَتَبَّعَ العُلَمَاءُ كَلَامَ العَرَبِ، فَوَجَدُوا أَنَّه لَا يَخْرُجُ عَن هَذِهِ الأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ: اسْمٌ، وَفِعْلٌ، وَحَرْفٌ.

فَالعُلَمَاءُ تَتَبَّعُوا وَاستَقْرَءُوا كَلَامَ العَرَبِ فَوَجَدُوا أَنَّه لَا يَخْرُجُ عَن هَذِهِ الأقسَامِ الثَّلَاثَةِ، فَقَالُوا: إِنَّ أَقْسَامَ الكَلَامِ ثَلَاثةٌ: اسْمٌ، وَفِعْلٌ، وَحَرْفٌ.

*** دَلَالَةُ كَلِمَةِ التَّوحِيدِ عَلَىٰ أقسَامِ التَّوحِيدِ الثَّلَاثَةِ:**

قَالَ شَيخُ الإسلَامِ ابنُ تيميَّةَ: «وَشهادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِيهَا الإلَهِيَّاتُ، وَهِيَ الأصولُ الثَّلَاثَةُ: تَوحِيدُ الرُّبوبِيَّةِ، وتَوحِيدُ الأُلوهِيَّةِ، وتَوحِيدُ الأسمَاءِ والصِّفَاتِ، وَهَذِهِ الأُصُولُ الثَّلَاثَةُ تَدُورُ عَلَيهَا أديَانُ الرُّسُلِ ومَا أُنزِلَ إِلَيهِم، وَهِيَ الأصولُ الكِبَارُ التِي دَلَّت عَلَيهَا وشَهِدَتْ بِهَا العُقولُ والفِطَرُ، وأمَّا وَجهُ دَلَالَةِ هَذِهِ الكَلِمَةِ العَظِيمَةِ عَلَىٰ أقسَامِ التَّوحِيدِ الثَّلَاثَةِ، فَظَاهِرٌ تَمَامًا لِمَن تَأمَّلَهَا؛ فَقَد دَلَّت عَلَىٰ إثبَاتِ العِبَادَةِ للهِ وَنَفيِهَا عَمَّن سِوَاهُ، كَمَا دَلَّت أيضًا عَلَىٰ تَوحِيدِ الرُّبوبِيَّةِ؛ فَإِنَّ العَاجِزَ لَا يَصلُحُ أنْ يَكُون إِلَهًا، ودَلَّت عَلَىٰ تَوحِيدِ الأسمَاءِ والصِّفَاتِ فَإِنَّ مَسلوبَ الأسمَاءِ والصِّفَاتِ لَيسَ بِشَيءٍ، بَل هُوَ عَدَمٌ مَحضٌ،

كَمَا قَالَ بَعضُ العُلمَاءِ: المُشَبِّهُ يَعبدُ صَنَمًا، والمُعطِّلُ يَعبدُ عَدَمًا، وَالمُوحِّدُ يَعبدُ إِلَهَ الأرضِ والسَّمَاءِ».

* قَاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ لِلنَّظرِ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ:

قَالَ الشَّيخُ مُحَمَّد الأمين الشِّنقِيطيُّ فِي «أَضْوَاء البَيَان» (٣/ ٤١٤):

«كُلُّ الأسئِلَةِ المُتعلِّقةِ بتَوحِيدِ الرُّبُوبيَّةِ استِفهَامَاتُ تَقرِيرٍ، يُرَادُ مِنهَا أَنَّهُم إِذَا أَقَرُّوا رَتَّبَ لَهُمُ التَّوبِيخَ وَالإنكَارَ عَلَىٰ ذَلِكَ الإقرَارِ؛ لأنَّ المُقِرَّ بِالرُّبُوبِيَّةِ يَلزَمُهُ الإقرَارُ بِالأُلُوهِيَّةِ ضَرورَةً؛ نَحوَ قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وَقَولِهِ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وَإِنْ زَعَمَ بَعضُ العُلَمَاءِ أَنَّ هَذَا استِفهَامُ إنكَارٍ؛ لأنَّ استِقرَاءَ القُرآنِ دَلَّ عَلَىٰ أَنَّ الاستِفهَامَ المُتَعلِّقَ بِالرُّبُوبِيَّةِ استِفهَامُ تَقرِيرٍ وَلَيسَ استِفهَامَ إنكَارٍ، لأَنَّهُم لَا يُنكِرونَ الرُّبُوبِيَّةَ».

* نُصُوصُ العُلَمَاءِ المُشتَمِلَةُ عَلَىٰ ذِكرِ أقسَامِ التَّوحِيدِ الثَّلاثَةِ: وذَلِكَ قَبلَ شَيخِ الإسلَامِ ابنِ تَيمِيَّةَ.

١- الإمَامُ ابنُ بَطَّةَ (ت ٣٨٧هـ) فِي: «الإبَانَة عَن شَرِيعَةِ الفِرقَةِ النَّاجِيَةِ ومُجَانَبَةُ الفِرَقِ المَذمُومَةِ» (٤/ ٦١).

٢- الإمَامُ ابنُ مَندَه (ت٣٩٥) فِي: «كِتَاب التَّوحِيدِ وَمَعرِفَة أسمَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَصِفَاتِهِ عَلَىٰ الاتِّفَاقِ والتَّفرُّدِ» (١/ ٦١ وما بعدها).

٣- الإمَامُ أَبُو يُوسُفَ (ت ١٨٢هـ) فِيمَا نَقَلَهُ بِإِسنَادِهِ ابنُ مَندَه فِي «كِتَابِ التَّوحِيدِ» (٣/ ٣٠٤).

وَتَوحِيدُ الرُّبوبِيةِ: لَم يُنكِرهُ أحَدٌ مِنَ النَّاسِ -سِوَىٰ الدَّهرِيينَ والشُّيوعِيينَ- فَكُلُّ مَن أقرَّ بِأنَّ هَذِهِ الخَلِيقَةَ لَهَا خَالِقٌ، فَإِنَّهُ لَم يُنكِرهُ إِلَّا مُكَابَرَةً، والمُكَابَرَةُ مَا فِيهَا فَائِدَةٌ، لأنَّ هَذَا الإنكَارَ إنكَارُ اللسَانِ، فَهُوَ جَحدٌ مَعَ التَّيقُّنِ فِي القَلبِ بِأنَّ الأمرَ خِلافُ ذَلكَ.

وَتَوحِيدُ الأسمَاءِ والصِّفَاتِ: أقرَّ بِهِ المُسلِمُونَ كُلُّهُم، لَكِن أنكَرَهُ بَعضُ طَوَائِفَ مِنَ المُسلِمينَ، فِمنهُم مَن عَطَّلَ، ومِنهُم مَن مَثَّلَ.

*** وَقَد انقَسَمَ النَّاسُ فِي بَابِ الأسمَاءِ وَالصِّفَاتِ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أقسَامٍ:**

- **مُمَثِّلَةٍ**: وَالتَّمثِيلُ هُوَ: إثبَاتُ مُمَاثِلٍ لِلشَّيءِ، فَيَقتَضِي المُسَاوَاةَ مِن كُلِّ وَجْهٍ.

- **وَمُعطِّلَةٍ**: وَالتَّعطِيلُ هُوَ: إنكَارُ مَا يَجِبُ للهِ مِنَ الأسمَاءِ والصِّفَاتِ، إمَّا كُلِّيًّا أو جُزئِيًّا، فَالكُلِّيُّ: كَتَعطِيلِ غُلَاةِ الجَهمِيَّةِ، وَالجُزئِيُّ: كَتَعطِيلِ الأشَاعِرَةِ.

- **وَأهلِ الحَدِيثِ والسُّنَّةِ**: وَهُم مُثبِتونَ عَلَىٰ الوَجهِ اللَّائِقِ بِاللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- مَا أثبَتَهُ اللهُ لِنَفسِهِ فِي كِتَابِهِ وَعَلَىٰ لِسَانِ رَسولِهِ ﷺ، ونَافُونَ مَا نَفَاهُ اللهُ عَن نَفسِهِ فِي كتَابِهِ وَعَلَىٰ لِسَانِ رَسولِهِ ﷺ، مِن غَيرِ تَحرِيفٍ وَلَا تَعطِيلٍ، وَلَا تَمثِيلٍ وَلَا تَكييفٍ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فَهُم يُثبِتُونَ المَعنَىٰ وَيُفَوِّضُونَ الكَيفِيَّةَ.

- **وَالتَّحرِيفُ**: هُوَ تَغيِيرُ لَفظِ النَّصِّ وَهُوَ التَّحرِيفُ اللَّفظِيُّ، أَوْ تَغيِيرُ مَعنَاهُ، وَهُوَ التَّحرِيفُ المَعنَوِيُّ.

- **التَّكيِيفُ**: هُوَ إثبَاتُ كَيفِيَّةِ الصِّفَةِ.

- **التَّمثِيلُ**: هُوَ إِثبَاتُ مُمَاثِلٍ لِلشَّيءِ، وَهَذَا يَقتَضِي المُسَاوَاةَ مِنْ كُلِّ وَجهٍ.

الفَرقُ بَينَ التَّكيِيفِ والتَّمثِيلِ: أنَّ التَّمثِيلَ: ذِكرُ الصِّفَةِ مُقيَّدَةً بِمُمَاثِلٍ، والتَّكيِيفُ: ذِكرُهَا غَيرَ مُقيدَةٍ بِهِ.

وَحُكمُ هَذِهِ الأَربَعَةِ(١): كُلُّهَا حَرَامٌ وَمِنهَا مَا هُوَ كُفرٌ أو شِركٌ، ومِنْ ثَمَّ كَانَ أهلُ السُّنةِ والجَمَاعَةِ مُتَبَرِّئِينَ مِن جَمِيعِهَا.

وَقَد وَقَعَ انحِرَافٌ كَبِيرٌ عَن العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ، وَشَابَ صَفوَهَا كَثِيرٌ مِنَ الكَدَرِ، فَعَلَىٰ المُسلِمِ أَنْ يَجتَهِدَ فِي مَعرِفَةِ العَقِيدَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهِيَ عَقِيدَةُ أَصحَابِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، ورَضيَ اللهُ عَنهُم-، وَاعتِقَادهُم رضي الله عنهم هُوَ الحَقُّ الذِي لَا يَقبَلُ اللهُ تَعَالَىٰ سِوَاهُ.

❊ ❊ ❊

---

(١) أي: التحريف، والتعطيل، والتكييف، والتمثيل.

عَقِيدَتُنَا

عَقِيدَتُنَا: الإيمَانُ بِاللهِ، ومَلائِكتِهِ، وكُتبِهِ، ورُسلِهِ، واليَومِ الآخِرِ، والقَدَرِ خَيرِهِ وشَرِّهِ. هَذَا مُجمَلُ العَقِيدَةِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ ذَلِكَ: حَدِيثُ عُمرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ حَيثُ جَاءَ جِبرِيلُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ: «أخبِرنِي عَنِ الإسلَامِ»، فَأخبَرَهُ، ثُمَّ قَالَ: «أخبِرنِي عَن الإيمَانِ»، فقَالَ: «أنْ تُؤمِنَ بِاللهِ، ومَلائكتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسلِهِ، واليَومِ الآخِرِ، والقَدَرِ خَيرِهِ وشَرِّهِ»[1].

فَنُؤمِنُ بِربُوبِيَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ؛ أي: بِأنَّهُ الرَّبُّ الخَالِقُ المَالِكُ المُدَبِّرُ لِجَمِيعِ الأمُورِ: وَهَذِهِ الرُّبُوبِيَّةُ تَتَضَمَّنُ ثَلاثَةَ أشيَاءَ:

أوَّلًا: الخَلقُ؛ فَاللهُ تَعَالَىٰ خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ.

ثَانِيًا: المُلكُ؛ فَاللهُ تَعَالَىٰ مَالِكُ كُلِّ شَيءٍ.

ثَالِثًا: التَّدبِيرُ؛ فَالتَّدبِيرُ كُلُّهُ للهِ.

ودَلِيلُ هَذَا قَولُ اللهِ -تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ-: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]

---

(١) أخرجه مسلم (٨).

وَقَولُهُ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية:٢٧].

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَيسَ الإنسَانُ يُوصَفُ بِالرُّبُوبِيةِ؛ فَيُقَالُ: رَبُّ الدَّابَّةِ، وَرَبُّ البَيتِ ... إلخ؟

فَالجَوَابُ: الرُّبوبِيةُ المُضَافَةُ إِلَىٰ المَخلُوقِ لَيسَت كَالرُّبُوبِيَّةِ المُضَافَةِ إِلَىٰ الخَالِقِ، هَذَا كَمَا فِي بَاقِي الصِّفَاتِ؛ كَالسَّمعِ والبَصَرِ...وغَيرِهَا.

وَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَيسَ قَد أَثبَتَ اللهُ المُلكَ لِلمَخلوقَاتِ؟

فَالجَوابُ: بَلَىٰ، كَمَا قَالَ اللهُ -تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ-: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور:٦١].

وَلَكِن يُقَالُ: الفَرقُ عَظِيمٌ، مُلكُ الآدَمِيِّ قَاصِرٌ مُقَيَّدٌ، فَلا يَملِكُ كُلَّ شَيءٍ، ثُمَّ مُلكُهُ لِلشَّيءِ لَيسَ مُلكًا مُطلَقًا؛ يَفعَلُ مَا يَشاءُ، بَل هُوَ مُقَيَّدٌ بِالشَّرعِ، وَلِهَذَا نُهِيَ عَن إِضَاعَةِ المَالِ ونُهِيَ عَن إفسَادِهِ، ونُهِيَ عَن بَعضِ التَّصرُّفَاتِ المُحرَّمَةِ... وهَكَذَا.

لَكِنْ مُلكُ اللهِ مُلكٌ مُطلَقٌ.

وَالإنسَانُ يُدَبِّرُ، لَكِن لَيسَ مِثلَ تَدبِيرِ اللهِ أَبَدًا؛ فَاللهُ تَعَالَىٰ يُدَبِّرُ الأمرَ فِي كُلِّ شَيءٍ، وأَمَّا الإنسَانُ فَتدبِيرُهُ خَاصٌّ بِنفسِهِ أو بِمُلكِهِ.

وَنُؤمِنُ بِأُلُوهِيَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ؛ أي بِأَنَّهُ الإِلَهُ الحَقُّ، وكُلُّ مَعبودٍ سِواهُ بَاطِلٌ: وَهَذَا تَوحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ، وَالإِلَهُ بِمعنَىٰ: المَألُوه، أي: المَعبُودُ تَذَلُّلًا ومَحَبَّةً،

وَكُلُّ مَعبُودٍ سِوَىٰ اللهِ فَهُوَ بَاطِلٌ.

ودَلِيلُ هَذَا قَولُهُ تَعالَىٰ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨].

وَمَا يُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ فَإِنَّهُ إِلَهٌ، لَكِنَّهُ إِلَهٌ بَاطِلٌ، وهَذِهِ مُجرَّدُ تَسمِيةٍ؛ كَمَا قَالَ تَعالَىٰ: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ ﴾ [النجم:٢٣].

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ أنها آلِهَةٌ: أنَّ اللهَ سَمَّاهَا كَذَلك، فقَالَ تَعالَىٰ: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود:١٠١]، وقَالَ تَعالَىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص:٨٨].

وَدَلِيلُ أَنَّ مَا سِواهُ بَاطِلٌ: قَولُهُ تَعالَىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الحج:٦٢].

وَنؤمِنُ بِأسمَائِهِ وصِفَاتِهِ؛ أي: بِأنَّ لَهُ الأسمَاءَ الحُسنَىٰ والصِّفَاتِ الكَامِلَةَ العُليَا: وذَلِكَ لِقولِهِ تَعالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الأعراف:١٨٠] فَأثبَتَ لِنفسِهِ ﷻ الأسمَاءَ الحُسنَىٰ، فَنُؤمِنُ بِذَلِكَ.

ونُؤمِنُ بِالصِّفَاتِ العُليَا؛ لأنَّ اللهَ تَعالَىٰ قَالَ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠].

والمَثَلُ: بِمعنَىٰ الوَصفِ، ودَلِيلُ ذَلِكَ قَولُهُ تَعالَىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد:١٥]، مَثَلُهَا؛ أَي: وَصْفُهَا.

أمَّا الصِّفَاتُ العُليَا: فَلِقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]، والأعلَىٰ: اسمُ تَفضِيلٍ، فَصِفَاتُ اللهِ تَعَالَىٰ أَعلَىٰ مَا يَكُونُ مِنَ الصِّفَاتِ.

*** الفَرقُ بَينَ الأسمَاءِ والصِّفَاتِ:**

الأسمَاءُ: تَسَمَّىٰ اللهُ بِهَا.

وأمَّا الصِّفَاتُ: فَوَصَفَ اللهُ بِهَا نَفسَهُ.

والصِّفَاتُ أعمُّ مِنَ الأسمَاءِ؛ لأنَّ كُلَّ اسمٍ مُتَضَمِّنٌ لِصِفَةٍ، وَلَيسَ كُلُّ صِفَةٍ مُتَضمِّنَةً لِلاسمِ.

وَيَتفرَّعُ عَلَىٰ أنَّ الأسمَاءَ التِي أثبَتَهَا اللهُ تَعَالَىٰ لِنفسِهِ كُلَّهَا حَسَنٌ، أَنَّهُ لَا يُوجَدُ فِي أسمَائِهِ اسمٌ جَامِدٌ لَا يَدلُّ عَلَىٰ صِفَةٍ، أبَدًا.

وَالاسمُ الجَامِدُ: لَيسَ فِيهِ مَعنًىٰ؛ فَضلًا عَن أنْ يَكُون مَعنًىٰ حَسنًا؛ كـ: صَخْرٍ، وَقَلَمٍ، وَجُلُوسٍ.

لَكنَّ أسمَاءَ اللهِ مُتَضمِّنةٌ لِلمَعنَىٰ، وَلِهَذَا قِيلَ: إنَّ أسمَاءَ اللهِ تَعَالَىٰ أعلَامٌ وَأوصَافٌ، فَكُلُّ اسمٍ عَلمٌ بِاعتِبَارِ دَلَالَتِهِ عَلَىٰ الذَّاتِ، وَهُوَ أيضًا صِفَةٌ بِاعتِبَارِ دَلَالَتِهِ عَلَىٰ المَعنَىٰ، وَيَدخُلُ فِي ذَلِكَ اسمُ «الله»؛ بَل هُوَ أولَىٰ مَا يَدخلُ وَأوَّلُ مَا يَدخُلُ، فَالمَعنَىٰ المُشتَقُّ الذِي يَدُلُّ عَلَيهِ «الله»: الألُوهِيَّةُ.

فَهُوَ الذِي يَألَهُهُ كُلُّ شَيءٍ، وَيَعبُدُهُ كُلُّ شَيءٍ.

فَاللهُ: ذُو الألُوهِيةِ وَالعُبُودِيَّةِ عَلَىٰ خَلقِهِ أجمَعِينَ.

وَمِنَ القَوَاعِدِ المُهِمَّةِ فِي الإِيمَانِ بِأَسمَاءِ اللهِ الحُسنَىٰ:

أنَّ الإيمَانَ بِاسمٍ مِن أسمَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ لَا يَتِمُّ إلَّا بِثَلَاثَةِ شُروطٍ إنْ كَانَ مُتَعدِّيًا، وَبِشَرطَينِ إنْ كَانَ لَازِمًا.

فَإذَا كَانَ الاسمُ مُتَعَدِّيًا فَلَا يَتِمُّ الإيمَانُ بِهِ إلَّا بِإثبَاتِهِ اسمًا للهِ تَعَالَىٰ، وإثبَاتِ الصِّفَةِ التِي يَتَضمَّنُهَا، وَإثبَاتِ الحُكمِ الذِي يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ هَذِهِ الصِّفَةِ.

فَاسمُهُ تَعَالَىٰ «البَصِيرُ»، نُؤمِنُ بِأنَّهُ اسمٌ للهِ تَعَالَىٰ، وَنُؤمِنُ بِصِفَةِ البَصِيرِ التِي يَتَضمَّنُهَا الاسمُ، وَبِالحُكمِ الذِي يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ هَذِهِ الصِّفَةِ، وَهُوَ أنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُبصِرُ كُلَّ شَيءٍ، وَلَا يَغِيبُ عَنهُ سُبحَانَهُ شَيءٌ.

وَإذَا كَانَ الاسمُ لَازِمًا -غَيرَ مُتَعَدٍّ- فَلِلإيمَانِ بِهِ شَرطَانِ: إثبَاتُهُ، وَإثبَاتُ الصِّفَةِ.

فَاسمُهُ تَعَالَىٰ: «الحَيُّ»، اسمٌ مِن أسمَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ نُؤمِنُ بِهِ اسمًا لَهُ سُبحَانَهُ، وَنُؤمِنُ بِالصِّفَةِ الَّتِي تَضَمَّنَهَا، وَهِيَ صِفَةُ الحَيَاةِ.

أمَّا الصِّفَاتُ فكُلُّهَا عُليَا، وَلِهَذَا لَا يُوصَفُ اللهُ تَعَالَىٰ بِصِفَةٍ فِيهَا ذَمٌّ إطلَاقًا، فَكُلُّ صِفَاتِ اللهِ مُنزَّهَةٌ عَن الذَّمِّ والقَدحِ، كُلُّهَا عُليَا عُلُوًّا بَيِّنًا.

قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

* * *

الإيمانُ بِوحدَانيةِ اللهِ

وَنُؤمِنُ بِوحدَانِيتِّهِ فِي ذَلِكَ: وَالمُشَارُ إِلَيهِ فِي: «ذَلِكَ»: الرُّبوبِيَّةُ، وَالأُلوهِيَّةُ، وَالأسماءُ وَالصِّفَاتُ.

أَي: بِأَنَّهُ لَا شَريكَ لَهُ فِي رُبوبِيَّتِهِ، وَلَا فِي أُلوهِيَّتِهِ، وَلَا فِي أَسْمَائِهِ وصِفَاتِهِ: لأَنَّهُ لَا يُمكِنُ تَوحِيدٌ إِلَّا بِهَذَا.

فَاللهُ ﷻ وَاحِدٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَأُلُوهِيَّتِهِ، وَأَسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥].

* وَلِلتَّوحِيدِ رُكنَانِ لَابُدَّ مِنهُمَا: «نَفيٌ، وإثبَاتٌ»:

١ - إثبَاتُ الحُكمِ لِلمُوحَّدِ.

٢ - نَفيُهُ عَمَّن سِوَاهُ.

وذَلكَ لأنَّ النَّفيَ عَدمٌ مَحضٌ، والإثبَاتَ لَا يَمنَعُ المُشَارَكَةَ.

وَالجمعُ بَينَ النَّفيِ وَالإثبَاتِ فِي بَابِ الصِّفَاتِ هُوَ حَقِيقَةُ التَّوحِيدِ فِيهِ؛ وَذَلِكَ لأنَّ التَّوحِيدَ مَصدَرُ: وَحَّدَ يُوحِّدُ، وَلَا يُمكِنُ صِدقُ حَقِيقَتِهِ إلَّا بِنَفيٍ

وَإثبَاتٍ؛ لأنَّ الاقتِصَارَ عَلَىٰ النَّفيِ المَحضِ تَعطِيلٌ مَحضٌ، وَالاقتِصَارَ عَلَىٰ الإثبَاتِ المَحضِ لَا يَمنَعُ المُشَارَكَةَ.

مِثَالُ ذَلِكَ: لَو قُلتَ: مَا زَيدٌ بِشُجَاعٍ، فَقَد نَفَيتَ عَنهُ صِفَةَ الشَّجَاعَةِ، وَعَطَّلتَهُ مِنهَا.

وَلَو قُلتَ: زَيدٌ شُجَاعٌ، فَقَد أثبَتَّ لَهُ صِفَةَ الشَّجَاعَةِ، لَكِنَّ ذَلِكَ لَا يَمنَعُ أنْ يَكُونَ غَيرُهُ شُجَاعًا أيضًا.

وَلَو قُلتَ: لَا شُجَاعَ إلَّا زيدٌ، فَقَد أثبَتَّ لَهُ صِفَةَ الشَّجَاعَةِ، وَنَفيتَ أنْ يُشَارِكَهُ غَيرُهُ فِيهَا، فَكُنتَ مُوحِّدًا لَهُ فِي صِفَةِ الشَّجَاعَةِ.

إذَنْ؛ لَا يُمكِنُ تَوحِيدُ أحَدٍ بِشَيءٍ إلَّا بِالجَمعِ بَينَ النَّفي وَالإثبَاتِ.

*** مُعتَقَدُ أهلِ السُّنةِ وَالجَمَاعَةِ فِي بَابِ أسمَاءِ اللهِ وصِفَاتِهِ يرتَكِزُ عَلَىٰ ثَلاثَةِ أسُسٍ رَئِيسَةٍ:**

١- الإيمَانُ بِمَا وَرَدتْ بِهِ نُصوصُ القُرآنِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ مِن أسمَاءِ اللهِ وصِفَاتِهِ، إثبَاتًا ونَفيًا.

٢- تَنزِيهُ اللهِ -جَلَّ وَعَلَا- عَن أنْ يُشبِهَ شَيءٌ مِن صِفَاتِهِ شَيئًا مِن صِفَاتِ المَخلُوقِينَ.

٣- قَطْعُ الطَّمَعِ عَن إدرَاكِ كَيفِيَّةِ اتِّصَافِ اللهِ تَعَالَىٰ بِتلكَ الصِّفَاتِ.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا

فِي ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

※ **فَوائِدُ مِن آيةِ الكُرسِي:**

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾: إنفرَادُ اللهِ تَعَالَىٰ بِالألُوهِيةِ، و«اللهُ»: عَلَمٌ خَاصٌّ بِالذَّاتِ العَلِيَّةِ؛ أي: بِاللهِ ﷻ، وَلَا يُطلَقُ عَلَىٰ غيرِهِ لَا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا فِي إسلَامٍ، فَاللهُ هُوَ رَبُّ العَالَمِينَ ﷻ، وَلَفظُ الجَلَالَةِ هُنَا مَحَطُّ الخَبَرِ فِيمَا يَأتِي بَعدَهُ؛ أي: مَحَطُّ الإسنَادِ فِيمَا يَأتِي بَعدَهُ.

﴿ ٱلْحَىُّ ﴾: إثبَاتُ الحَياةِ للهِ، وأَنَّهَا الحَيَاةُ الكَامِلَةُ، التِي لَمْ تُسبَقْ بِعَدَمٍ، وَلَا يَلحَقُهَا فَنَاءٌ، وَهِيَ الحَيَاةُ الكَامِلَةُ مِن كُلِّ وَجهٍ، لَا يَلحَقُهَا نَقصٌ بِحَالٍ.

﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾: إثبَاتُ القَيومِيَّةِ للهِ تَعَالَىٰ، فَهُوَ قَائِمٌ بِنفسِهِ قَائِمٌ عَلَىٰ غَيرِهِ، وَالقَيُّومُ: فَيعُولٌ، مِنْ: قَامَ بِالأمرِ؛ إذَا دَبَّرَهُ أحسَنَ تَدبِيرٍ، وَأَصْلَهُ: قَيْوُومٌ، اجتَمَعَتِ الوَاوُ وَاليَاءُ، وَسُبِقَت إحدَاهُمَا بِالسُّكُونِ، فَقُلِبَتِ الوَاوُ يَاءً، وَأُدغِمَتِ اليَاءُ فِيهَا، فَصَارَت: قَيُّومًا.

فَهُوَ سُبحَانَهُ القَيومُ: القَائِمُ بِنَفسِهِ، القَائِمُ عَلَىٰ غَيرِهِ، فَكُلُّ خَلقِهِ مُحتَاجٌ إلَيهِ سُبحَانَهُ فِي الإيجَادِ وَالإعدَادِ وَالإمدَادِ، وَهُوَ سُبحَانَهُ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ، فَهُوَ سُبحَانَهُ قَائِمٌ بِنَفسِهِ لَا يَحتَاجُ إلَىٰ طَعَامٍ وَلَا شَرَابٍ، فَهُوَ يُطعِمُ ولَا يُطعَمُ، وَلَا يَحتَاجُ إلَىٰ مُعِينٍ وَلَا إلَىٰ نَاصِرٍ وَلَا إلَىٰ وَزِيرٍ وَلَا إلَىٰ مُشِيرٍ، فَهُوَ سُبحَانَهُ

غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ، حَيٌّ قَيُّومٌ.

﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾: فَهُوَ سُبحَانَهُ لِكَمَالِ حَيَاتِهِ وَقَيُّومِيَّتِهِ مُنَزَّهٌ عَن ذَلِكَ، وَالنَّفيُ لإثبَاتِ كَمَالِ الضِّدِّ، وَالسِّنَةُ: النُّعَاسُ، وَهُوَ مُقَدِّمَةُ النَّومِ.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: عُمُومُ مُلكِ اللهِ، واختِصَاصُهُ بِذَلِكَ، وأنَّ السَّموَاتِ جَمعٌ أكثَرُ مِن وَاحِدٍ.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾: قُوَّةُ سُلطَانِ اللهِ، وإثبَاتُ الإذنِ للهِ، وإثبَاتُ الكَلَامِ، وبُطلانُ تَعلُّقِ المُشرِكِينَ بِأصنَامِهِم.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: عُمُومُ عِلمِ اللهِ؛ لأنَّهُ يَتَضَمَّنُ المَاضِيَ وَالحَاضِرَ وَالمُستَقبَلَ، فَالمَاضِي فِي قَولِهِ: ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، وَالحَاضِرُ وَالمُستَقبَلُ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾: عَظمَةُ اللهِ ﷻ.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: إثبَاتُ الكُرسِيِّ «مَوضِعُ القَدَمَينِ»، عَظمةُ ذَلِكَ المَخلوقِ، تَدلُّ عَلَىٰ عَظمَةِ خَالِقِهِ ﷻ.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾: إثبَاتُ قُوَّةِ اللهِ، وَالنَّفيُ لِثُبُوتِ كَمَالِ الضِّدِّ، وَهُوَ القُوَّةُ وَالقُدْرَةُ مَعَ كَمَالِ العِلْمِ.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾: إثبَاتُ العُلوِّ، وَإثبَاتُ العَظَمَةِ.

وَعُلوُّ اللهِ تَعَالَىٰ عُلوٌّ ذَاتِيٌّ، وَعُلوٌّ مَعنَوِيٌّ.

العُلوُّ الذَّاتيُّ يُثبِتُهُ أهلُ السُّنَّةِ، وَلَا يُثبِتُهُ أهلُ البِدعَةِ.

وَالعُلوُّ المَعنَويُّ: ثَابتٌ بِإجمَاعِ أهلِ القِبلَةِ؛ أي: بِالإجمَاعِ مِن أهلِ السُّنَّةِ وأهلِ البِدعَةِ، كُلُّهم يُؤمِنُونَ بِأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ عَالٍ عُلوًّا مَعنَويًّا.

وَقَد استَدَلَّ أهلُ السُّنَّةِ عَلَىٰ عُلوِّ اللهِ تَعَالَىٰ عُلوًّا ذَاتِيًّا بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالإجمَاعِ وَالعَقلِ وَالفِطرَةِ.

فَالكِتَابُ تَنَوَّعَت دلَالَتُهُ عَلَىٰ عُلوِّ اللهِ، فَتَارَةً بِذكرِ العُلوِّ، وَتَارَةً بِذكرِ الفَوقِيَّةِ، وَتَارَةً بِذكرِ نُزولِ الأشيَاءِ مِن عِندِهِ، وَتَارَةً بِذكرِ صُعودِهَا إلَيهِ، وَتَارَةً بِكونِهِ فِي السَّمَاءِ...

١- فَالعُلوُّ مِثلُ قَولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الشورى:٤].

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١].

٢- الفَوقِيَّةُ، مِثلُ قَولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾ [النحل:٥٠].

٣- وَنُزولُ الأشيَاءِ مِنهُ، مِثلُ قَولِهِ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة:٥].

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، وَمَا أشبَهَ ذَلِكَ.

٤- وَصُعودُ الأشياءِ إلَيهِ، مِثلُ قَولِهِ تَعالَىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر:١٠].

وَمِثلُ قَولِهِ تَعالَىٰ: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤].

٥- كَونُهُ فِي السَّماءِ، مِثلُ قَولِهِ تَعالَىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ [الملك:١٦].

فَمِن أُصُولِ أهلِ السُّنَّةِ وَالجَماعَةِ الثَّابِتَةِ: إثبَاتُ عُلوِّ اللهِ عَلَىٰ خَلقِهِ وَاستِوَائِهِ عَلَىٰ عَرشِهِ، وَهِيَ مِن أعظَمِ الأصُولِ التِي بَاينَ بِهَا أهلُ السُّنَّةِ الجَهمِيَّةَ وَالمُعتَزِلَةَ وَالأشَاعِرَةَ، وَالذِي فِي هَذِهِ الآيَاتِ مِن ذِكرِ عُلوِّ اللهِ، وَاسمِهِ العَلِيِّ الأعلَىٰ، وَصُعودِ الأشيَاءِ إلَيهِ وَعُروجِهَا وَنُزُولِهَا مِنهُ يَدُلُّ عَلَىٰ العُلوِّ.

الأدِلَّةُ مِنَ السُّنَّةِ: ثَبتَ وَصْفُ اللهِ تَعَالَىٰ بِالعُلوِّ عَن النَّبِيِّ -عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ- مِن قَولِهِ، وَفِعلِهِ، وإقرَارِهِ.

أمَّا القَولُ: فَإنَّهُ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي سُجودِهِ: «**سُبحَانَ رَبِّي الأعلَىٰ**»(١)، وكَذَلِكَ قَالَ: «**العَرشُ فَوقَ المَاءِ، وَاللهُ فَوقَ العَرشِ**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٢٨).

(٢) أخرجه ابن خزيمة في «التوحيد» (ص١٠٥، ١٠٦)، والبيهقي في «الأسماءِ والصفاتِ» (ص ٣٩٨، ٣٩٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢٠٣)، واللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٦٥٩)، والطبراني في «الكبير» (٨٩٨٧)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٨٤): ورجاله رجال الصحيح، وأورده الحافظ الذهبي في «العلو»، المختصر (٤٨)، وعزاه إلىٰ طائفة من أهلِ

وَأمَّا فِعلُهُ ﷺ: فَإِنَّهُ لَمَّا قَالَ فِي يَوم عَرَفَهَ: «**أَلَا هَل بَلَّغتُ؟**»، قَالَ الصَّحَابَةُ: نَعَم، قَالَ: «**اللهُمَّ اشهَد**»، يَرفَعُ أُصبُعَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ ، وَينكُتُهَا إِلَىٰ النَّاسِ[1].

وأمَّا إقرَارُهُ ﷺ: فَقَد قَالَ لِلجَارِيَةِ: «**أَينَ اللهُ؟**»، قَالَت: فِي السَّماءِ. فَقَالَ: «**أَعتِقهَا فَإِنَّهَا مُؤمِنَةٌ**»[2]. وَهَذَا إِقْرَارٌ.

- **الدَّلِيلُ مِنَ الإِجمَاعِ**: أَنَّ الصَّحَابَةَ ﷺ والتَّابِعِينَ كُلَّهُم مُقرُّونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ فَوقَ كُلِّ شَيءٍ بِذَاتِهِ.

والدَّليلُ عَلَىٰ إجمَاعِهِم ﷺ مِن وَجهٍ خَفِيٍّ، يَنبَغِي لِطَالِبِ العِلمِ أَنْ يَعلَمَهُ لِمَا فِيهِ مِنَ الفَائِدَةِ:

يُقَالُ مَثَلًا: نُصُوصُ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ دَالَّةٌ عَلَىٰ العُلوِّ بِالذَّاتِ، وَلَم يَرِدْ عَنِ الصَّحَابَةِ قَولٌ وَاحِدٌ فَسَّرَ هَذِهِ الأدِلَّةَ بِخَلَافِ ظَاهِرِهَا.

إِذَنْ؛ هُم مُجمِعُونَ عَلَىٰ مَدلُولِهَا، وَلِهَذا إِذَا دَلَّ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ عَلَىٰ شَيءٍ، وَلَمْ يَأتِ عَنِ الصَّحَابَةِ مَا يُخَالِفُهُ، فَيعنِي ذَلِكَ أَنَّهُم مُجمِعُونَ عَلَيهِ، وَهَذَا المَسلَكُ لإِثبَاتِ الإِجمَاعِ قَدْ يَخفَىٰ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ.

= العلم في تواليفهم، وجوَّد أسانيدهم الشيخ الألباني في «مختصر العلو» من حديث ابن مسعودٍ ﷺ.

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٢) أخرجه مسلم (٥٣٧).

الدَّلِيلُ مِنَ العَقلِ: أنَّنَا نَسأَلُ أيَّ عَاقِلٍ: هَل العُلوُّ مِن صِفَةِ الكمَالِ أو مِن صِفَةِ النَّقصِ؟ سَيُجِيبُ: صِفَةُ كَمَالٍ بلَا شَكٍّ، فَاللهُ تَعَالَىٰ مُنَزَّهٌ عَن النَّقصِ.

فَدَلَّ العَقلُ عَلَىٰ عُلوِّ اللهِ ﷻ مِن وَجهَينِ:

الأَوَّلُ: ثُبوتُ صِفَةِ الكَمَالِ لَهُ.

الثَّانِي: انتِفَاءُ صِفَاتِ النَّقصِ عَنهُ.

أدِلَّةُ الفِطرَةِ: كُلُّ إنسَانٍ مَفطُورٌ عَلَىٰ أنَّ اللهَ فِي السَّمَاءِ حتَّىٰ الكُفَّارُ، كُلُّ إنسَانٍ يُرِيدُ أنْ يَدعوَ يرتَفِعُ قَلبُهُ لِلسَّمَاءِ.

وَقَد ذَكَرَ الذَّهَبِيُّ فِي «السِّير»(١٨/ ٤٧٤) **قِصَّةَ المُحدِّثِ أَبِي جَعفرٍ الهَمَذانيِّ مَعَ أَبِي المَعَالِي الجُوَينِيِّ، وَذَكَرَهَا فِي «العُلوِّ»، وَقَالَ الألبَانيُّ فِي «مُختَصَرِ العُلوِّ»** (ص٢٧٧): **وَإسنَادُ هَذِهِ القِصَّةِ صَحِيحٌ مُسَلسَلٌ بِالحُفَّاظِ، وَنَصُّهَا**: «قَالَ أَبُو جَعفرٍ: سَمِعتُ أَبَا المَعالِي الجُوَينيَّ وقَد سُئِلَ عَن قَولِهِ تعَالَىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥].

فَقَالَ: كَانَ اللهُ وَلَا عَرشَ، وَجَعَلَ يَتَخَبَّطُ فِي الكَلَامِ، فَقُلتُ: قَد عَلِمنَا مَا أَشَرْتَ إِلَيهِ، فَهَلْ عِندَكَ لِلضَّرُورَاتِ مِن حِيلَةٍ؟

فَقَالَ: مَا تُرِيدُ بِهَذَا القَولِ، وَمَا تَعنِي بِهَذِهِ الإشَارَةِ؟ فَقُلتُ: مَا قَالَ عَارِفٌ قَطُّ: يَا رَبَّاهُ، إلَّا قَبلَ أنْ يَتَحرَّكَ لِسَانُهُ قَامَ مِن بَاطِنِهِ قَصدٌ لَا يَلتَفِتُ يَمنَةً وَلَا يَسرَةً، يَقْصِدُ الفَوقَ، فَهَلْ لِهَذَا القَصدِ الضَّرُورِيِّ عِندَكَ مِن حِيلَةٍ؟ فَنَبِّئنَا بِتَخَلُّصٍ مِنَ

الفَوقِ وَالتَّحتِ، وَبَكَيتُ وَبَكَىٰ الخَلقُ، فَضَرَبَ الأستَاذُ بِكُمِّهِ عَلَىٰ السَّرِيرِ، وَصَاحَ: يَا لَلْحَيرَة، وَمَزَّقَ مَا كَانَ عَلَيهِ وَانخَلَعَ، وصَارَت قِيامَةٌ فِي المَسجِدِ، وَنَزَلَ، وَلَم يُجبنِي إلَّا بـ: يَا حَبِيبِي! الحَيرَةَ الحَيرَة، وَالدَّهشَةَ الدَّهشَةَ.

فَسَمِعتُ بَعدَ ذَلِكَ أصحَابَهُ يَقُولُونَ: سَمِعنَاهُ يَقولُ: حَيَّرَنِي الهَمذَانِي».

قَالَ شَيخُ الإسلَامِ فِي «دَرء تَعَارُض العَقلِ وَالنَّقلِ»(٦/ ٣٤٣)، تَعلِيقًا عَلَىٰ هَذَا الكَلام: «فَهَذَا الشَّيخُ تَكَلَّمَ بِلسَانِ جَمِيعِ بَنِي آدَمَ، فَأخبَرَ أنَّ العَرشَ، وَالعِلمَ بِاستَوَاءِ اللهِ عَلَيهِ إنَّمَا أُخِذَ مِن جِهَةِ الشَّرعِ وَخَبَرِ الكِتَابِ وَالسُّنةِ، بِخِلَافِ الإقرَارِ بِعُلُوِّ اللهِ عَلَىٰ الخَلقِ مِن غَيرِ تَعيينِ عَرشٍ وَلَا استِوَاءٍ، فَإنَّ هَذَا أمرٌ فِطرِيٌّ ضَرُورِيٌّ نَجِدُهُ فِي قُلوبِنَا نَحنُ وَجَمِيعُ مَن يَدعُو اللهَ تَعَالَىٰ، فَكَيفَ تَدفَعُ هَذِهِ الضَّرورَةَ عَن قُلوبِنَا؟!...».

قَالَ شَيخُ الإسلَامِ: «وَلَقَدْ كَانَ عِندِي مِن هَؤلَاءِ النَّافِينَ لهذَا -يَعنِي: العُلوَّ- مَنْ هُوَ مِنْ مَشَايخِهِم، وَهُوَ يَطلُب مِنِّي حَاجَةً، وَأنَا أخَاطِبُهُ فِي هَذَا المَذهبِ كَأنِّي غَيرُ مُنكِرٍ لَهُ، وَأخَّرتُ قَضَاءَ حَاجَتِهِ حَتَّىٰ ضَاقَ صَدرُهُ، فَرَفَعَ طَرفَهُ ورَأسَهُ إلَىٰ السَّمَاءِ، وَقَالَ: يَا أللهُ! فَقُلتُ لَهُ: أنتَ مُحَقِّقٌ لِمَنْ تَرفَعُ طَرفَكَ وَرَأسَكَ ؟ وَهَلْ فَوقَ عِندِكَ -أي: فِي اعتِقَادِكَ- أحدٌ ؟ فَقَالَ : أستَغفِرُ اللهَ.

وَرَجَعَ عَن ذَلِكَ لمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أنَّ اعتِقَادَهُ يُخَالِفُ فِطرَتَهُ، ثُمَّ بَيَّنتُ لَهُ فَسَادَ هَذَا القَولِ؛ فَتَابَ مِن ذَلِكَ وَرَجَعَ إلَىٰ قَولِ المُسلِمِينَ المُستَقِرِّ فِي فِطرَتِهِم».

* وَبُطلَانُ مَقولَةِ: «إنَّ السَّمَاءَ قِبلَةُ الدُّعَاءِ»، يَظهَرُ بالوجُوهِ التَّالِيَةِ:

١ - أنَّ هَذَا القَولَ مُحْدَثٌ لَم يَقلْهُ أحَدٌ مِنَ السَّلَفِ، وَلَا أنزَلَ اللهُ بِهِ مِن سُلطَانٍ، وَهُوَ مُخَالِفٌ لإجمَاعِ المُسلِمِينَ.

٢- أنَّ تَوجُّهَ الخَلائِقِ بِقلوبِهِم وأيدِيهِم وأبصَارِهِم إلَىٰ السَّمَاءِ حَالَ الدُّعَاءِ أمرٌ فِطريٌّ ضَرُورِيٌّ، لَا يَختَصُّ بِهِ أهلُ المِلَلِ وَالشَّرَائِعِ.

٣- أنَّ قِبلَةَ الدُّعَاءِ هِيَ قِبلَةُ الصَّلَاةِ؛ فَإنَّهُ يُستَحَبُّ لِلدَّاعِي أنْ يستَقبِلَ القِبلَةَ، وكَانَ النَّبيُّ ﷺ يَستَقبِلُ القِبلَةَ فِي دُعَائِهِ، كَمَا وَقَعَ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ.

٤- أنَّ القِبلَةَ تَقبلُ النَّسخَ، وَإذَا كَانَت السَّماءُ قِبلَةَ الدُّعَاءِ فَهِيَ عَلَىٰ هَذَا التَّقدِيرِ أمرٌ يَقبَلُ النَّسخَ وَالتَّبدِيلَ فَيجُوزُ تَغييرُهَا وتَبدِيلُهَا فَيدعُو الإنسَانُ إلَىٰ أيِّ جِهَةٍ شَاءَ، فَيُدعَىٰ اللهُ إلَىٰ نَحوِ الأرضِ، وَهَذَا أبطَلُ البَاطِلِ!

٥- أنَّ القِبلَةَ مَا يَستَقبِلُهُ العَابِدُ بِوجهِهِ، والاستِقبَالُ خِلافُ الاستِدبَارِ، فَالاستِقبَالُ بِالوَجهِ، وغَيرُ ذَلِكَ لَا يُسمَّىٰ قِبلَةً، فَلَوْ كَانَتِ السَّمَاءُ قِبلَةَ الدُّعَاءِ لَكَانَ المَشروعُ أنْ يُوَجِّهَ الدَّاعِي وَجْهَهُ إلَيهَا، وَهَذَا لَم يُشرَعْ.

٦- أنَّ القِبلَةَ لَا يَجدُ النَّاسُ فِي أنفُسِهِم مَعنًىٰ يَطلُبُ تَعيينَهَا وَلَا فَرقَ بَينَ قِبلَةٍ وَقِبلَةٍ، بِخلَافِ التَّوجُّهِ فِي الدُّعاءِ نَحوَ السَّماءِ، فَيجدُ النَّاسُ طَلَبًا ضَرُورِيًّا لِمَا فَوقَ.

٧- كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يُقلِّبُ وجهَهُ فِي السَّمَاءِ، فَوَلَّاهُ اللهُ القِبْلَةَ الَّتِي

يَرْضَاهَا، وَهِيَ المَسْجِدُ الحَرَامُ، فَالنَّصُ واضِحٌ جِدًّا فِي أَنَّ اللهَ لَم يَجعلِ السَّمَاءَ قِبلَةً لِلدُّعاءِ.

*** الرَّدُّ عَلَىٰ قَولِ: «إِنَّ اللهَ فِي كُلِّ مَكانٍ»:**

هُوَ أَنَّ اللهَ فَوقَ كُلِّ شَيءٍ، وَلَا يَحُلُّ فِي شَيءٍ مِن مَخلُوقَاتِهِ، ولَيسَ فِي كُلِّ مَكانٍ، بَلْ هُوَ فَوق كُلِّ شَيءٍ.

وَاللهُ سُبحَانَهُ مَوصُوفٌ بِالإثبَاتِ وَالنَّفي، فَقَد جَمَعَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيمَا وَصفَ بِهِ نَفسَهُ بَينَ النَّفي وَالإثبَاتِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

النَّفيُ: نَفيُ مُشَارَكَةِ غَيرِ اللهِ تَعَالَىٰ للهِ فِيمَا يَجبُ لَهُ.

والإثبَاتُ: إثبَاتُ مَا يَجِبُ للهِ تَعَالَىٰ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ والأُلُوهِيَّةِ والأسمَاءِ والصِّفَاتِ والأفعَالِ.

فَكمَالُ المَوصُوفِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِنَفيِ صِفَاتِ النَّقصِ، وإثبَاتِ صِفَاتِ الكَمَالِ.

وكُلُّ مَا أَثبَتَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لِنَفسِهِ فَهُوَ صِفَاتُ كَمَالٍ، وَكُلُّ صِفَةٍ نفَاهَا اللهُ تَعَالَىٰ عَن نَفسِهِ فَالنَّفيُ مُتَضَمِّنٌ لِشَيئَينِ:

١- لانتِفَاءِ تِلكَ الصِّفَةِ عَنهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-.

٢- وَلِثبُوتِ كَمَالِ ضِدِّهَا لَهُ تعالى.

فَلَا يَكُون النَّفيُ فِي صِفَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ نَفيًا مَحضًا مُجرَّدًا، بَل يَكُون

النَّفيُ لِثُبُوتِ الكَمَالِ.

فَيجبُ عَلَينَا إجرَاءُ النُّصوصِ عَلَىٰ ظَاهِرِهَا، وظَوَاهِرُ النُّصوصِ مَا يَتَبَادَرُ مِنهَا مِنَ المَعَانِي عَلَىٰ حَسَبِ مَا تُضَافُ إلَيهِ، ومَا يَحْتَفُّ بِهَا مِنَ القَرَائِنِ.

* **مَذهبُ الأشَاعِرَةِ فِي صِفَاتِ اللهِ:**

أَنَّهُم يُقِرُّونَ بِالأسمَاءِ مَعَ سَبعِ صِفَاتٍ وَهِيَ: الحَيَاةُ، والقُدرةُ، والعِلمُ، والكَلامُ، والإرَادَةُ، والسَّمعُ، والبَصَرُ.

فَهُم يَجعَلونَ هَذِهِ الصِّفَاتِ حَقِيقِيَّةً وَلَيسَت مَجَازِيَّةً، ويُنَازِعُونَ فِيمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِن صِفَاتِ رَبِّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- كَالمَحَبَّةِ والغَضَبِ ... وَمَا أشبَهَ، ويَجعَلونَ هَذِهِ الصِّفَاتِ التِي أثبَتَهَا اللهُ فِي كِتَابِهِ أو عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ، مَجَازًا.

وقَالُوا: إنَّ تَأويلَ آيَاتِ الصِّفَاتِ وَاجبٌ، وَهَذَا الوَاجِبُ يَقتَضِيهِ التَّنزِيهُ.

وهُم أكثَرُ الفِرَقِ تَنَاقُضًا بَعدَ الرَّوَافِضِ، فَهُم لَا يُؤَوِّلُونَ آيَاتِ الحَشرِ وَالأحكَامِ، ويُؤَوِّلُونَ آيَاتِ الصِّفَاتِ، وَهُم يَنفُونَ الجِهَةَ وَيُثبِتُونَ الرُّؤيَةَ.

ويُسمُّونَ الصِّفَاتِ السَّبعَ للهِ: «العَقلِيةَ»، وهُنَاكَ صِفَاتٌ أخرَىٰ يُسمُّونهَا «مَعنويةً» وهِيَ: كَونُه حَيًّا، وَكَونُهُ قَادِرًا، وَكَونُهُ عَالِمًا، وَكَونُهُ مُرِيدًا ، وَكَونُهُ سَمِيعًا، وَكَونُه بَصِيرًا، وَكَونُهُ مُتكَلِّمًا.

* * *

الصِّفَةُ الكَاشِفَةُ: هِيَ التِي تَدلُّ عَلَىٰ أنَّ هَذَا الوَصفَ لَازِمٌ، وأنَّهُ لَا يُمكنُ أنْ يَكُونَ مُخرِجًا لِغَيرِهِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١]، فَهَذِهِ صِفَةٌ كَاشِفَةٌ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور:٣٣]، وَهَذِهِ صِفَةٌ كَاشِفَةٌ أيضًا؛ لأنَّهُ لَا يُقَالُ: إذَا لَمْ يُرِدْنَ تَحَصُّنًا فَإنَّنَا نُكرِهُهنَّ.

فَالصِّفَةُ إذَا كَانَ لَهَا مَفهومٌ فَهِيَ مُقَيِّدَةٌ، وَإذَا لَم يَكُن لَهَا مَفهُومٌ فَهِيَ كَاشِفَةٌ.

❊ ❊ ❊

الإيمَانُ بِأنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ الغَيبِ

وَنُؤمِنُ بِأَنَّهُ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر:٢٢-٢٤].

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾: المُرَادُ بِهِ الغَيبُ المُطلَقُ، فَالغَيبُ نَوعَانِ: نِسبيٌّ، ومُطلَقٌ، وَالغَيبُ: هُوَ كُلُّ مَا غَابَ عَنِ الإنسَانِ.

الغَيبُ المُطلَقُ: يَختَصُّ اللهُ بِعلمِهِ، **وَالغَيبُ النِّسبيُّ**: يَختَصُّ بِعلمِهِ مَن لَم يَكُن عِندَهُ.

﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: يَعلمُ سُبحَانَهُ الشَّهادَةَ، فَلا يَخفَىٰ عَلَيهِ شَيءٌ لَا مُشَاهدٌ وَلَا غَائِبٌ.

﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾: وَهِيَ مِن أسمَاءِ اللهِ، وَمعنَاهَا: ذُو الرَّحمَةِ، لَكِن الأولَىٰ بِاعتِبَارِهَا وصفًا، وَالثَّانِيةُ بِاعتِبارِهَا فِعلًا.

فَالرَّحمَنُ: دَالٌّ عَلَىٰ الصِّفَةِ القَائِمَةِ بِهِ سُبحَانَهُ.

وَالرَّحِيمُ: دَالٌّ عَلَىٰ تَعلُّقِهَا بِالمَرحُومِ.

فَهُوَ ذُو رَحمَةٍ وَهُوَ يَرحَمُ، وَلِذَا فَلَيسَ فِي الجَمعِ بَينَ الاسمَينِ تَكرَارٌ.

والرَّحمَةُ: صِفَةٌ ذَاتِيةٌ للهِ ﷻ، أي أَنَّهَا مِنَ الصِّفَاتِ اللازِمَةِ أَبَدًا وَأَزَلًا، وَهِيَ بِاعتِبَارِ تَعلُّقِهَا بِالمَرحُومِ صِفَةٌ فِعلِيةٌ.

وَالصِّفَاتُ الإلَهِيةُ: ذَاتِيةٌ، وفِعلِيةٌ.

فَالصِّفَاتُ الذَّاتِيَّةُ: هِيَ التِي لَم يَزَلْ وَلَا يَزَالُ مُتَّصِفًا بِهَا، فَهِيَ مُلَازِمَةٌ لِلذَّاتِ لَا تَنْفَكُّ عَنهُ، وَهِيَ مَعنَوِيَّةٌ، وخَبَرِيَّةٌ، فَالمَعنَوِيَّةُ: كَالحَيَاةِ وَالعِلمِ وَالقُدرَةِ، وَالخَبَرِيَّةُ: كَاليَدَينِ وَالوَجهِ وَالعَينَينِ.

وَالصِّفَاتُ الفِعلِيةُ: هِيَ التِي تَتَعلَّقُ بِالمَشِيئةِ، فَإنْ شَاءَ فَعَلَهَا، وإنْ لَم يَشَأ لَم يَفعَلهَا. وَهِيَ: فِعلِيَّةٌ لَهَا سَببٌ مَعلُومٌ؛ كَالرِّضَا وَالغَضَبِ، وَفِعلِيةٌ لَيسَ لَهَا سَببٌ مَعلُومٌ؛ كَالنُّزولِ.

الرَّحمَنُ: ذُو الرَّحمَةِ الوَاسِعَةِ، وَهِيَ صِفَةٌ ذَاتِيةٌ فَهُوَ تَعَالَىٰ المَوصُوفُ بِالرَّحمَةِ.

الرَّحِيمُ: اسمٌ يَدلُّ عَلَىٰ الفِعلِ وَهِيَ صِفَةٌ فِعلِيةٌ فَهُوَ تَعَالَىٰ الرَّاحِمُ بِرَحمَتِهِ.

قَالَتِ الأَشَاعِرَةُ وَمَن وَرَاءَهُم مِن المُعتَزِلَةِ والجَهمِيةِ: لَيسَ لَهُ رَحمَةٌ، والرَّحمَةُ بِمعنَىٰ الإِرَادَةِ؛ يَعنِي: إِرَادَةَ الخَيرِ، أوالإِحسَانِ.

يُقَالُ لَهُم: مَاذَا تَقولُونَ فِي قَولِهِ تَعالَىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾؟، وَمَاذَا تَقولُونَ فِي: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ ؟

وإِرَادَةُ الإِحسَانِ نَاتِجَةٌ عَن الرَّحمَةِ، فَلا يُرِيدُ الإِحسَانَ إِلَّا مَن كَانَ رَحِيمًا، وَالإِحسَانُ نَفسُهُ نَاتِجٌ عَنِ الإِرَادَةِ النَّاتِجَةِ عَنِ الرَّحمَةِ.

وهَؤلَاءِ يَقيسُونَ اللهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- بَدْءًا عَلَىٰ خَلقِهِ؛ فَيُشَبِّهُونَ اللهَ تَعَالَىٰ بِخَلقِهِ ثُمَّ يُرِيدُونَ أنْ يُنزِّهوهُ عَن تِلكَ المُشَابَهَةِ، فَيصِيرونَ إِلَىٰ التَّأويلِ والتَّحرِيفِ وَالتَّعطِيلِ.

أمَّا أهلُ السُّنَّةِ فَيقُولُونَ: إنَّ الظَوَاهِرَ التِي تَدلُّ عَلَيهَا النُّصوصُ إِنَّمَا تُؤخَذُ عَلَىٰ حَسَبِ مَا دَلَّت عَلَيهِ.

فَالقَولُ فِي الصِّفَاتِ كَالقَولِ فِي الذَّوَاتِ، والصِّفَاتُ عَلَىٰ قَدرِ الذَّواتِ.

* **وخُلَاصَةُ القَولِ**: أَنَّنَا نَحنُ مَعشَرَ أهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، نُثبِتُ كُلَّ مَا أثبَتَهُ اللهُ لِنَفسِهِ مِن صِفَاتٍ، لَكنَّنَا نَقولُ: الصِّفَةُ التِي أَثبَتَهَا اللهُ لِنَفسِهِ، ولِلمَخلوقِ نَظيرُهَا، فِي الأَصلِ لَا تَمَاثُلَ بَينَهُمَا، بَل بَينَهُمَا مِنَ التَّبَاينِ كَمَا بَينَ الخَالِقِ وَالمَخلُوقِ.

* **فَالخُلَاصَةُ**: كُلُّ صِفَةٍ أثبَتَهَا اللهُ لِنَفسِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَجوزُ أَنْ نَستَوحِشَ مِنهَا؛

لأنَّنَا لَسنَا بِأعلَمَ بِاللهِ مِنَ اللهِ، فَإِذَا أثبَتَ اللهُ لِنَفسِهِ أيَّ صِفَةٍ نُثبتُهَا، لَكِن لَا نُمثِّلُ وَلَا نُكَيِّفُ.

لِهَذَا تَجدُ أسلَمَ النَّاسِ قُلوبًا فِي هَذَا الأمرِ: السَّلفَ الصَّالِحَ، ثُمَّ عَوَامَّ النَّاسِ، وَهُم خَيرٌ مِن هَؤلَاءِ العُلَمَاءِ الذِينَ يَقولُونَ إنَّهُم العُقَلَاءُ، ويُنكِرونَ مَا أثبَتَهُ اللهُ لِنفسِهِ، نَعَم، لَو كَانَ هُنَاكَ دَلِيلٌ عَلَىٰ أنَّ الظَّاهِرَ غَيرُ مُرَادٍ، فَيجِبُ أنْ نَتَّبِعَ الدَّلِيلَ.

فَالوَاجِبُ إجرَاءُ النُّصوصِ عَلَىٰ ظَوَاهِرِهَا، وظَاهِرُ الكَلامِ هُوَ مَا يَتَبَادَرُ مِنهُ مِن المَعنَىٰ، وَيُرَاعَىٰ فِي مَعرِفَةِ الظَّاهِرِ أمُورٌ:

دِلَالَةُ اللفظِ، وحَالَةُ السِّياقِ، وحَالَةُ المُتكَلِّمِ، وسَائِرُ القَرَائِنِ المُحتَفَّةِ بِالخِطَابِ، وَظَاهِرُ النَّصِّ هُوَ مَا يَدلُّ عَلَيهِ فِي سِيَاقِهِ.

وَظَوَاهِرُ النُّصوصِ مَعلُومَةٌ لَنَا بِاعتِبَارٍ، وَمَجهُولَةٌ لَنَا بِاعتِبَارٍ آخرَ، فَبِاعتِبَارِ المَعنَىٰ هِيَ مَعلُومَةٌ، وبِاعتِبَارِ الكَيفِ هِيَ مَجهُولَةٌ.

الأصْلُ الأوَّلُ فِي الصِّفَاتِ: هُوَ أنْ يُوصَفَ اللهُ تَعَالَىٰ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفسَهُ، وَبِمَا وَصفَتْهُ بِهِ رُسُلُهُ إثبَاتًا بِلَا تَمثِيلٍ، وَتَنزِيهًا بِلَا تَعطِيلٍ، كَمَا جَمَعَ بَينَهُمَا فِي قَولِهِ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، فَقولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾: مُتَضَمِّنٌ لِكَمَالِ صِفَاتِهِ، مُبطِلٌ لِمَنهَجِ أهلِ التَّمثِيلِ، وَقَولُهُ:﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾؛ إثبَاتٌ لأسمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَإبطَالٌ لِمَنهَجِ أهلِ التَّحرِيفِ وَالتَّعطِيلِ.

فَنُثبتُ للهِ تَعَالَىٰ مَا أثبَتَهُ لِنَفسِهِ، وَنَنفِي عَنهُ تَعَالَىٰ مَا نَفَاهُ عَن نَفسِهِ مِن غَيرِ تَحرِيفٍ وَلَا تَعطِيلٍ، وَمِن غَيرِ تَكيِيفٍ وَلَا تَمثِيلٍ.

الأصلُ الثَّانِي فِي الصِّفَاتِ: أنْ يُقَالَ لِمَنْ يُقِرُّ بِذَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَيُمَثِّلُ فِي صِفَاتِهِ أو يَنفِيهَا: القَولُ فِي الصِّفَاتِ كَالقَولِ فِي الذَاتِ.

يَعنِي: أنَّ مَن أثبَتَ للهِ تَعَالَىٰ ذَاتًا لَا تُمَاثِلُ ذَوَاتِ المَخلوقِينَ لَزِمَهُ أنْ يُثبِتَ لَهُ صِفَاتٍ لَا تُمَاثِلُ صِفَاتِ المَخلُوقِينَ؛ لأنَّ القَولَ فِي الصِّفَاتِ كَالقَولِ فِي الذَّاتِ.

فَقُل لِلَّذِي يُنكِرُ صِفَاتِ الرَّبِّ تَعَالَىٰ، وَيُعَطِّلُ أو يُؤَوِّلُ، إذَا قَالَ لَكَ: هَلْ تُثبِتُ للهِ صِفَاتٍ؟: نَعَم.

فَإنْ قَالَ: فَكَيفَ صِفَاتُهُ؟

قُلْ لَهُ: هَلْ تُثبِتُ للهِ ذَاتًا؟ فَسَيَقُولُ: نَعَم.

فَقُلْ: فَكَيفَ ذَاتُهُ؟ فَسَيَقُولُ: لَيسَ كَمِثلِهَا ذَاتٌ.

فَقُلْ: وَصِفَاتُهُ لَيسَ كَمِثلِهَا صِفَاتٌ.

وَالصِّفَاتُ عَلَىٰ قَدرِ الذَّاتِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ

ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر:٢٢-٢٤].

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: تَأكِيدٌ لِلجُملَةِ الأولَىٰ.

﴿ٱلْمَلِكُ﴾: ذُو المُلكِ المُتَضَمِّنِ لِلسَّيطَرَةِ الكَامِلَةِ، وَالسُّلطَانِ التَّامِّ، وَلِهَذَا كَانَ المَلكُ أقوَىٰ مِنَ المَالِكِ، والأصلُ فِي المَلكِ أنْ يَكُون مَالِكًا.

﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾: المُتَطهِّرُ ﷻ، فَهُوَ ﷻ مُطَهَّرٌ عَن كُلِّ عَيبٍ وَكُلِّ نَقصٍ، وَهُوَ بِمعنَىٰ السَّلامِ، أو قَرِيبٌ مِنهُ، فَالقُدُّوسُ: المُنَزَّهُ عَن كُلِّ شَرٍّ وَنَقصٍ وَعَيبٍ، وَعَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ.

إذَنْ؛ لَا يُنفَىٰ عَن اللهِ -تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ- شَيءٌ مِمَّا يُنزَّهُ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- عَنهُ إلَّا لِثبوتِ كَمَالِ ضِدِّهِ.

وَضَابِطُ مَا يُنزَّهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَنهُ أمرَانِ:

أحَدُهُمَا: أنَّهُ الكَامِلُ المُنَزَّهُ عَن مُمَاثَلَةِ أحدٍ مِنَ المَخلُوقِينَ، فَلَيسَ كَمِثلِهِ شَيءٌ فِي جَمِيعِ نُعوتِهِ لِكَمَالِ أوصَافِهِ.

وَالثَّانِي: أنَّهُ المُنَزَّهُ عَن كُلِّ عَيبٍ وَنَقصٍ، وَالنُّقصَانُ يَرجِعُ إلَىٰ مَا يُنَاقِضُ أوصَافَ كَمَالِهِ، فَالقُدُّوسُ وَالسَّلَامُ يَرجِعَانِ هَاهُنَا إلَىٰ التَّنزِيهِ، وَيَلزَمُ مِنَ التَّنزِيهِ: التَّعظِيمُ وَالثَّناءُ عَلَيهِ بِصِفَاتِ الكَمَالِ؛ لأنَّ التَّنزِيهَ وَالسَّلبَ المَحضَ لَيسَ مَدحًا، وَإنَّمَا يَكُونُ مَدحًا؛ لأنَّهُ مُتَضَمِّنٌ لِثُبُوتِ كَمَالِ ضِدِّهِ.

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾: ذُو السَّلَامِ؛ بِمَعنَىٰ: النِّسبَةِ، وَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَقوَالٍ لِأَهْلِ العِلمِ:

الأَوَّلُ: الذِي سَلِمَ مِن كُلِّ عَيبٍ، وَبَرِئَ مِن كُلِّ نَقصٍ.

الثَّانِي: مَعنَاهُ ذُو السَّلَامِ؛ أي: المُسلِّمُ عَلَىٰ عِبَادِهِ فِي الجَنَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨].

الثَّالِثُ: مَعنَاهُ الذِي سَلِمَ الخَلقُ مِن أَنْ يَظلِمَهُم.

وَهُوَ السَّلامُ عَلَىٰ الحَقِيقَةِ سَالِمٌ ... مِن كُلِّ تَمثِيلٍ وَمِن نُقصَانِ

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾: **لَهُ مَعنَيَانِ:**

١ - أَنَّهُ يُؤَمِّنُ مِن عَذَابِهِ مَن لَا يَستَحِقُّ العَذَابَ، فَهُوَ مِنَ الأَمَانِ.

٢ - المُصَدِّقُ لِرُسلِهِ، وَمُصَدِّقٌ بِالحَقِّ، فَهُو مِنَ التَّصدِيقِ.

﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾: هُوَ ذُو السَّيطَرَةِ وَالحُكمِ عَلَىٰ كُلِّ مَن عَدَاهُ، وَهُوَ الشَّاهِدُ، المُؤمِنُ، الحَدِبُ المُشفِقُ، الرَّقِيبُ الحَافِظُ، المُصَدِّقُ.

وهُوَ اسمٌ لِمَن كَانَ مَوصُوفًا بِمَجموعِ صِفَاتٍ ثَلَاثٍ: العِلمِ بِأَحوَالِ الشَّيءِ، والقُدرَةِ التَّامَّةِ عَلَيهِ، وَالمُوَاظَبَةِ عَلَىٰ إِقَامَةِ تِلكَ المَصَالِحِ.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: ذُو العِزَّةِ، وَالعِزَّةُ ثَلَاثَةُ أَنوَاعٍ: عِزَّةُ القَدْرِ، وَعِزَّةُ الغَلَبَةِ والقَهرِ، وَعِزَّةُ الامتِنَاعِ.

١ - **عِزَّةُ القَدرِ**: يَعنِي: عِزَّةَ الشَّرَفِ وَالسِّيَادَةِ، فَاللهُ تَعَالَىٰ أَعزُّ مَا يَكُون،

عَزِيزًا فِي قَدرِهِ وشَرَفِهِ وكَمَالِهِ.

٢- وَعِزَّةُ الغَلَبَةِ وَالقَهرِ: أي: أنَّهُ تَعَالَىٰ الغَالِبُ لِكُلِّ شَيءٍ.

٣- وَعِزَّةُ الامتِنَاعِ: أي: أنَّهُ تَعَالَىٰ يَمتَنِعُ عَلَيهِ كُلُّ نَقصٍ وعَيبٍ.

وَالعِزُّ فِي كَلَامِ العَرَبِ عَلَىٰ ثَلاثَةِ أوجهٍ:

* بِمَعنَىٰ الغَلَبَةِ، مِن: عَزَّ يَعُزُّ.

* وَبِمَعنَىٰ الشِّدَّةِ وَالقُوَّةِ، مِن: عَزَّ يَعَزُّ.

* وَبِمَعنَىٰ نَفَاسَةِ القَدْرِ: مِن عَزَّ يَعِزُّ؛ أي: لَا يُعَادِلُهُ شَيءٌ.

﴿ٱلْجَبَّارُ﴾: صِيغَةُ مُبَالَغةٍ مِنَ الجَبرِ، وَلَهَا ثَلاثَةُ مَعَانٍ:

١- جَبرٌ بِمَعنَىٰ الجَبروتِ: وَهُوَ القُوَّةُ وَالعَظَمَةُ.

٢- جَبرٌ بِمَعنَىٰ جَبرِ الكَسِيرِ: فَكَم مِن كَسيرٍ جَبرَهُ اللهُ عَجَّلَ فَهُوَ تَعَالَىٰ جَبَّارٌ لِكُلِّ كَسرٍ.

٣- جَبرٌ بِمعنَىٰ العُلوِّ: مَأخُوذٌ مِن قَولِهِم لِلنَّخلَةِ الطَّوِيلَةِ: هَذِهِ نَخْلَةٌ جَبَّارَةٌ.

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾: ذُو الكِبرِيَاءِ، وَلَيسَ بِمعنَىٰ مُصطَنِعِ الكِبرِ، وَلَكِنَّ وَصْفَهُ الكِبرِيَاءُ، وَالتَّاءُ فِي المُتَكبِّرِ لَيسَت تَاءَ التَّعَاطِي وَالتَّكلُّفِ؛ كَمَا يُقَالُ: فُلَانٌ يَتَعظَّمُ وَلَيسَ بِعَظِيمٍ، وَيَتَسَخَّىٰ وَلَيسَ بِسَخِيٍّ، وَإِنَّمَا هِيَ تَاءُ التَّفَرُّدِ وَالاختِصَاصِ، وَهَذَا الوَصفُ بِالنِّسبَةِ للهِ حَقٌّ، وبِالنِّسبَةِ لِلمَخلُوقِ بَاطِلٌ.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾: اسمُ مَصدَرٍ مِن «سَبَّحَ» أي: نَزَّهَ، فَهِيَ بِمَعنَىٰ نُزِّهَ اللهُ عَن كُلِّ نَقصٍ.

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: أي: عَمَّا يُشرِكُونَ بِهِ مِنَ الأصنَامِ، فَهُوَ عَالٍ عَلَيهَا ﷻ، مُنزَّهٌ عَن أنْ يَكُون مِثلَهَا.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾: جُملَةٌ فِعلِيةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ الاستِمرَارِ، فَالتَّسبِيحُ هُنَا مَا زَالَ وَلَا يَزَالُ.

﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: (مَا) اسمٌ مَوصُولٌ، وَالاسمُ المَوصُولُ مِن صِيَغِ العُمومِ.

التَّسبِيحُ نوعَانِ: تَسبِيحٌ بِلسَانِ الحَالِ، وتَسبِيحٌ بِلسَانِ المَقَالِ.

- **فَالتَّسبِيحُ بِلسَانِ الحَالِ:** عَامٌّ لِكُلِّ مَا فِي السَّموَاتِ وَالأرضِ، فَهُوَ يُسبِّحُ بِلسَانِ الحَالِ، وَمَعنَىٰ ذَلِكَ أنَّ حَالَهُ تَدلُّ عَلَىٰ تَسبِيحِ اللهِ.

- **وَالتَّسبِيحُ بِلسَانِ المَقَالِ:** خَاصٌّ بِالمُؤمِنينَ، وَالحيوَانَاتِ، وَالجَمَادَاتِ، وَسَائِرِ المَخلوقَاتِ، سِوَىٰ الكُفَّارِ.

وَسَبَّحَ أصْلُهَا مِنَ السَّبحِ، وَهُوَ البُعدُ، كَأنَّكَ تُبعِدُ صِفَاتِ النَّقصِ عَنِ اللهِ ﷻ، فَهُوَ سُبحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَن كُلِّ نَقصٍ.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾: «الخَالِقُ» اسمٌ مِن أسمَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ الثَّابِتَةِ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَهُوَ فِي لُغَةِ العَرَبِ عَلَىٰ وَجهَينِ:

أحدُهُمَا: الإنشَاءُ عَلَىٰ مِثَالٍ أبدَعَهُ لَم يُسبَقْ إليهِ، وَإنَّمَا أحْدَثَهُ بَعدَ إذْ لَم يَكُنْ.

وَالآخَرُ: التَّقدِيرُ، وَخَلَقَ الأدِيمَ يَخلُقُهُ خَلْقًا: قَدَّرَهُ لِمَا يُرِيدُ قَبلَ القَطعِ، وَقَاسَهُ لِيَقطَعَ مِنهُ مَزَادَةً أو قِربَةً.

وَالخَالِقُ: هُوَ المُبدِعُ لِلخَلقِ، وَالمُختَرِعُ لَهُ عَلَىٰ غَيرِ مِثَالٍ سَبَقَ.

وَالخَلَّاقُ: الخَالِقُ خَلْقًا بَعدَ خَلْقٍ.

﴿ٱلْبَارِئُ﴾: اسمٌ مِن أسمَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ الحُسنَىٰ، الثَّابِتَةِ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَ﴿ٱلْبَارِئُ﴾: هُوَ الخَالِقُ عَلَىٰ غَيرِ مِثَالٍ سَبَقَ، وَالفَرقُ بَينَهُ وَبَينَ الخَالِقِ: أنَّ الخَلقَ هُوَ التَّقدِيرُ، وَالبَرْءَ: هُوَ التَّنفِيذُ، وَإبرَازُ مَا قَدَّرَهُ وَقَرَّرَهُ إلَىٰ الوجُودِ.

﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾: اسمٌ مِن أسمَاءِ اللهِ الحُسنَىٰ، الثَّابِتَةِ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَهُوَ سُبحَانَهُ الذِي أنشَأ خَلقَهُ عَلَىٰ صُورٍ مُختَلِفَةٍ، وَهيئَاتٍ مُتبَايِنَةٍ، وَجَعَلَ لِكُلٍّ صُورَتَهُ الخَاصَّةَ بِهِ.

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: جُملَةٌ خَبَرِيَّةٌ، قُدِّمَ فِيهَا الخَبَرُ لإرَادَةِ الحَصرِ، فَالأسمَاءُ الحُسنَىٰ لَهُ سُبحَانَهُ وَحدَهُ لَا لِغَيرِهِ.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: الحَكِيمُ، يَدلُّ عَلَىٰ الحُكمِ والإحكَامِ، وَالحَكِيمُ مُشتَقَّةٌ مِنَ الحكمِ وَالإحكَامِ بِمَعنَىٰ الإتقَانِ، وَحُكمُ اللهِ تَعَالَىٰ يَكُونُ: شَرعِيًّا

وكَونيًّا، وكُلٌّ مِنهُمَا مُشتَمِلٌ عَلَىٰ الحِكمةِ، فَصَارَت أقسَامُ الحُكمِ أربَعَةً؛ هِيَ: حُكمٌ كَونِيٌّ، وحِكمَةٌ كَونيةٌ، وحُكمٌ شَرعِيٌّ، وحِكمَةٌ شَرعِيةٌ.

* **الحِكمَةُ لَهَا وَجهَانِ:**

١- وَضعُهَا عَلَىٰ شَيءٍ مُعَيَّنٍ: وهَذِهِ حِكمَةٌ حَالِيَّةٌ أو صُورِيَّةٌ.

٢- الغَايَةُ مِنهَا: وَهَذِهِ حِكمَةٌ غَائِيَّةٌ.

وَللهِ الحِكمَةُ البَالِغَةُ، لَكِن أحيَانًا نَعلَمُهَا، وَأحيَانًا تَقصُرُ عُقولُنَا عَنهَا؛ لأنَّنَا قَاصِرونَ عَن إدرَاكِهَا، ثُمَّ إنَّ الحِكمَةَ أحيَانًا تَكونُ واضِحَةً كُلُّنَا يَعرِفُهَا، وأحيَانًا تَكُون خَفِيَّةً لَا يَعلَمُهَا إلَّا الرَّاسِخونَ فِي العِلمِ، فَحِكمَةُ اللهِ ثَلاثَةُ أقسَامٍ مِن حَيثُ الظُّهورُ وَالخفَاءُ:

١- تَارَةً تَكونُ حِكمَةً وَاضِحَةً لِكُلِّ أحدٍ.

٢- وَتَارَةً تَكونُ خَفِيَّةً عَلَىٰ كُلِّ أحدٍ.

٣- وَتَارَةً تَكونُ وَاضِحَةً لأهلِ العِلمِ الرَّاسِخِينَ فِيهِ، خَفِيةً عَلَىٰ مَن دُونَهُم.

وَالفَرقُ بَينَ الحُكمِ الكَونِيِّ، وَالحُكمِ الشَّرعِيِّ: أنَّ الحُكمَ الشَّرعِيَّ هُوَ مَا أمرَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ عِبَادَهُ، وَنَهَاهُم عَنهُ.

وَأمَّا الحُكمُ الكَونِيُّ: فَهُوَ مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ؛ فَكُلُّ المَخلُوقَاتِ كَونِيةٌ، وَتَسييرُ السَّحَابِ، وإنزَالُ المَطرِ، وَغَيرُ ذَلِكَ ، كُلُّهُ كَونِيٌّ.

وَأمَّا الصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ وَالصَّومُ وَالحَجُّ، وَغَيرُ ذَلِكَ، فَحُكمٌ شَرعِيٌّ.

وَالتَّمييزُ بَينَ الحُكمَينِ، تَمييزٌ بَينَ الإرَادَةِ الكَونِيَّةِ، وَالإرَادَةِ الشَّرعِيَّةِ.

* وَالفَرقُ بَينَ الإرَادَةِ الكَونِيةِ والإرَادَةِ الشَّرعِيةِ مِفتَاحٌ لِفَهمِ بَابِ القَضَاءِ وَالقَدَرِ.



الإيمانُ بأنَّ اللهَ لَهُ الخَلقُ والتَّدبيرُ

وَنُؤمِنُ بِأنَّ لَهُ مُلكَ السَّموَاتِ وَالأرضِ: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًاۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٤٩-٥٠].

وَنُؤمِنُ بِأنَّهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١١-١٢].

* الفَرقُ بَينَ الإرَادَةِ الكَونِيةِ وَالإرَادَةِ الشَّرعِيةِ:

أنَّ الكَونِيَّةَ: لَابُدَّ فِيهَا مِن وقُوعِ المُرَادِ، وَقَد يَكُون المُرَادُ فِيهَا مَحبُوبًا إلَىٰ اللهِ، وَقَد يَكُون غَيرَ مَحبُوبٍ.

وأمَّا الشَّرعِيَّةُ: فَلا يَلزَمُ فِيهَا وقُوعُ المُرَادِ، وَلَا يَكُون المُرَادُ فِيهَا إلَّا مَحبُوبًا للهِ.

وَنُؤمِنُ بِأنَّ لَهُ مُلكَ السَّمَوَاتِ وَالأرضِ: خَلقًا وَتَدبِيرًا، فَهُوَ الخالِقُ وَهُوَ المُدَبِّرُ.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾: عبَّرَ بـ «مَا» الدَّالَّةِ عَلَىٰ غَيرِ العَاقِلِ، عمَّا يَشملُ العَاقِلَ وغَيرَهُ، لأنَّ غَيرَ العَاقِلِ أكثرُ مِنَ العَاقِلِ.

وَأَكثَرُ مَا تُستَعمَلُ «مَا» فِي غَيرِ العَاقِلِ، وَقَد تُستَعمَلُ فِي العَاقِلِ، وذَلِكَ فِي ثَلاثَةِ مَوَاضِعَ:

١- أنْ يَختَلِطَ العَاقِلُ مَعَ غَيرِ العَاقِلِ، كقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٢- أنْ يَكُون أمرُهُ مُبهَمًا عَلَىٰ المُتكلِّمِ، كَمَا تَقولُ لِلسوَادِ القَادِمِ مِن بَعيدٍ: انظُر مَا ظَهَرَ لِي.

٣- أنْ يَكُون المُرَادُ صِفَاتِ مَن يَعقِلُ، كَقولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

*** وتُستَعمَلُ «مَن» فِي غَيرِ العَاقِلِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ:**

١- أنْ يَقتَرِنَ غَيرُ العَاقِلِ مَعَ مَن يَعقِلُ فِي عُمومِ فَصلٍ بـ«مِن» الجَارَّة، كَقولِهِ تَعالَىٰ: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾.

٢- أنْ يُشبَّهَ غَيرُ العَاقِلِ بِالعَاقِلِ فَيُستعَارَ لَهُ لَفْظُهُ، ويُنَزَّلَ غَيرُ العَاقِلِ مَنزِلَةَ العَاقِلِ.

كقول الشاعر:

أسِرْبَ القَطَا هَلْ مَنْ يُعِيرُ جَنَاحَهُ لَعَلِّي إلَى مَن هَوِيتُ أطِيرُ

٣- أنْ يَختَلِطَ مَن يَعقِلُ بِمَن لَا يَعقِلُ، كَقولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

* وَقَد قَسَّمَ اللهُ تَعَالَىٰ الأولَادَ إلَىٰ أربعَةِ أقسَامٍ:

١- قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾؛ يَهَبُ: يُعطِي، ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾. «مَن» أي: مِنَ العُقَلاءِ، وكَذَلِكَ مِن غَيرِهِم، وَلَكِنَّ أهَمَّ شَيءٍ العُقَلاءُ.

٢- قَولُه تَعَالَىٰ: ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾.

٣- قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾،أي: يجعلهم أزواجًا؛ أي: أصنافًا فَيكونُ الرَّجُلُ لَهُ ذُكورٌ وإنَاثٌ.

٤- قَولُه تعَالَىٰ: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾، لَا ذُكورَ وَلَا إنَاثَ.

﴿إِنَّهُۥ﴾: يَعنِي الرَّبَّ ﷻ خَالِقُ الخَلقِ عَلَىٰ هَذِهِ الأصنَافِ الأربَعَةِ.

﴿عَلِيمٌ﴾: بِمَا يُصلِحُ حَالَ الإنسَانِ، وبِمَا يَجعَلُ هَذَا عَقِيمًا، وَيَجعَلُ ذُرِّيَّةَ هَذَا ذُكُورًا، وَذُرِّيَّةَ هَذَا إنَاثًا، وَذُرِّيَّةَ هَذَا ذُكُورًا وَإنَاثًا.

﴿قَدِيرٌ﴾: أي ذُو قُدرَةٍ، والقُدرَةُ وَصفٌ يَتمكَّنُ بِهِ القَادِرُ مِن فِعلِ مَا يُرِيدُهُ بِدونِ عَجزٍ.

الأسمَاءُ فِي آيَاتِ سُورَةِ الحَشرِ: اللهُ، الإِلَهُ، الرَّحمَنُ، الرَّحِيمُ، المَلكُ، القُدوسُ، السَّلامُ، المُؤمنُ، المُهيمنُ، العَزِيزُ، الجَبَّارُ، المُتكَبرُ، الخَالِقُ، البَارِئُ، المُصورُ، الحَكيمُ، وَلَا يُسمَّىٰ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- «**الوَاهِبَ**»، وَلَكِن يُسَمَّىٰ «**الوَهَّابَ**»، والوَهَّابُ خَبرٌ عَن اللهِ، كَذَلِكَ «**القَدِيرُ**» اسمٌ، و«**العَلِيمُ**» اسمٌ.

الأسمَاءُ التِي فِي آيَةِ الشُّورَىٰ: عَلِيمٌ، قَدِيرٌ، أَمَّا الصِّفَاتُ فَكَثِيرةٌ.

❊ ❊ ❊

الإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ

وَنُؤمِنُ بِأَنَّهُ ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

﴿شَىْءٌ﴾: اسمُ لَيسَ مُؤخَّرٌ، ﴿كَمِثْلِهِۦ﴾: خَبَرُهَا مُقَدَّمٌ، واختَلَفَ العُلَمَاءُ فِي الكَافِ، هَل هِيَ زَائِدَةٌ أم لاَ؟

١- قَالَ بَعضُهُم: إنَّهَا غَيرُ زَائِدَةٍ، فَيلزَمُهُم أنْ يُؤَوِّلُوا المِثلَ إلَىٰ مَعنًىٰ تَكونُ بِهِ الكَافُ غَيرَ زَائِدَةٍ.

(أ) قَالُوا: نَعَم، المِثلُ هُنَا بِمَعْنَىٰ الصِّفَةِ؛ أي: لَيسَ كِصِفَتِهِ شَيءٌ، وَقَالُوا: إنَّ المِثلَ والمَثَل يَأتِيَانِ بِمعنًىٰ وَاحِدٍ، وَالمَثَلُ قَد أتَىٰ بِمعنَىٰ الصِّفَةِ، كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد: ١٥]، فقَالُوا: إنَّ المَثَل هُنَا بِمعنَىٰ الصِّفَةِ، وَعَلَىٰ هَذَا تَكونُ الكَافُ غَيرَ زَائِدَةٍ؛ وَهَذَا القَولُ لَيسَ بِبعِيدٍ عَن الصَّوابِ.

(ب) وَقَالَ بَعضُهُم: إنَّ (مِثلَ) بِمعنَىٰ (نَفْس)؛ أي: ذَات، أَي: لَيسَ كَذَاتِهِ شَيءٌ، وَعَلَىٰ هَذَا فَالكَافُ غَيرُ زَائِدَةٍ أيضًا.

٢- وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّ الكَافَ زَائِدَةٌ، لأنَّ مِثل بِمعنَىٰ المُمَاثِلِ، وتَكونُ الكَافُ زَائِدةً لِلتَّوكِيدِ، كَمَا تُزَادُ البَاءُ وَكمَا تُزَادُ (مِنْ).

*** اختِلافُ النُّحاةِ فِي الكَافِ فِي ﴿كَمِثْلِهِۦ﴾:**

قَالُوا: إِنَّ الكَافَ دَاخِلَةٌ عَلَىٰ المِثل، وظَاهِرُهُ أَنَّ للهِ تَعَالَىٰ مِثْلًا لَيسَ لَهُ مِثْلٌ، فَالتَّقدِيرُ: لَيسَ مِثلَ مِثْلِهِ شَيءٌ، وَهَذَا ظَاهِرُ البُطلَانِ، وَلِهَذَا اختَلفَت عِبَارَاتُ النَّحوِيينَ فِي تَخرِيجِ الآيَةِ عَلَىٰ أقوَالٍ:

القَولُ الأَوَّلُ: أَنَّ الكَافَ زَائِدَةٌ، وتَقدِيرُ الكَلام: «لَيسَ مِثلَهُ شَيءٌ»، وَقَالُوا: إِنَّ زِيَادَةَ الحُروفِ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ لِلتوكِيدِ، أمرٌ مَطَّردٌ.

القَولُ الثَّانِي: أَنَّ الزَائِدَ «مِثل» لَا الكَاف، ويَكونُ التَّقديرُ: «لَيسَ كَهُوَ شَيءٌ»، وَهَذَا ضَعِيفٌ مَردُودٌ؛ لأَنَّ الزِّيَادَةَ فِي الأسمَاءِ قَليلةٌ جِدًّا، أوْ نَادِرَةٌ، بِخِلَافِ الحُروفِ.

القَولُ الثَّالِثُ: أَنَّ «مِثلَ» بِمعنَىٰ صِفَةٍ، وَالمَعنَىٰ: «لَيسَ كَصِفَتِهِ شَيءٌ»، وَهَذَا لَيسَ بِبَعِيدٍ مِنَ الصَّوَابِ.

القَولُ الرَّابِعُ: أَنَّهُ لَيسَ فِي الآيَةِ زِيَادَةٌ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلتَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لَزِمَ مِن ذَلِكَ نَفيُ المِثلِ، وَإِذَا كَانَ لَيسَ لِلمِثلِ مِثْلٌ صَارَ المَوجُودُ وَاحِدًا، وَعَلَىٰ هَذَا القَولِ فَلا حَاجَةَ لأَنْ نُقَدِّرَ شَيئًا، وَهَذَا المَعنَىٰ هُوَ الصَّوابُ، وَهُوَ الأجوَدُ.

* الرَّدُّ عَلَىٰ المُمَثِّلَةِ:

١- نَقُولُ لَهُم: هَذَا رَأيُ الضُّلَّالِ؛ لأنَّ المُمَثِّلَةَ يَعبدُونَ صَنَمًا، لأنَّهُم يَقولُونَ: اللهُ مِثلُ كذَا، وَالمُعطِّلُ يَعبدُ عَدَمًا، لأنَّ نَتِيجَةَ تَعطِيلِهِ أنْ لَا وجُودَ للهِ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

إنَّ المُعَطِّلَ وَالمُمَثِّلَ مَا هُمَا مُتَيَقِّنَينِ عِبَادَةَ الرَّحمَنِ
ذَا عَابِدُ المَعدُومِ لَا سُبحَانَهُ أبَدًا، وَهَذَا عَابِدُ الأوثَانِ

٢- أنَّ قَولَهُم هَذَا مُبطِلٌ لِلآيَةِ الكَرِيمَةِ، ومَا أبطَلَ الحَقَّ فَهُوَ بَاطِلٌ، فَيكُونُ قَولُهُم هَذَا بَاطِلًا، وَهَذِهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ تَقطَعُ حُجَّةَ كُلِّ مُعطِّلٍ.

فَالتَّبَاينُ بَينَ المَخلوقَاتِ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ، فَكيفَ بِالتَّبَاينِ بَينَ الخَالِقِ وَالمَخلُوقِ؛ فَرقٌ عَظِيمٌ فِي الذَّاتِ والصِّفَاتِ وَكُلِّ شَيءٍ.

قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، السَّمِيعُ مِن أسمَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ، وقَسَّمَهُ العُلَمَاءُ إلَىٰ قِسمَينِ: سَمعِ إجَابَةٍ، وسَمعِ إدرَاكٍ.

١- سَمعُ الإجَابَةِ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، فَمَعنَىٰ السَّمِيعِ هُنَا: المُجِيبُ، لأنَّ مُجرَّدَ السَّمعِ لَيسَ فِيهِ ذَاكَ الثَّنَاءُ، وَهَذَا تَوسُّلٌ إلَىٰ اللهِ ﷻ، أنْ يُجِيبَ اللهُ الدَّعوةَ، والتَّوسُّلُ إلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ بمجَرَّدِ إدرَاكِهِ لِلصَّوتِ لَيسَ وَسِيلَةً فِي الوَاقِعِ؛ ولَكِنَّ التَّوسُّلَ إلَىٰ اللهِ بِكونِهِ مُجِيبًا لِلدُّعَاءِ؛ فَيُجِيبُ دُعَاءَ هَذَا السَّائِلِ، فَمعنَاهُ سَمعُ الإجَابَةِ، وَلَيسَ سَمعَ الإدرَاكِ.

٢- سَمعُ الإدرَاكِ: يَنقَسِمُ إلَىٰ ثَلَاثَةِ أقسَامٍ:

(أ) تَارَةً يَكُون لِلتَّأييدِ: قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٦].

(ب) وتَارَةً يَكُون لِلتَّهدِيدِ: قَالَ تعَالَىٰ: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾ [آل عمران:١٨١].

(جـ) وَتَارَةً يَكُونُ لِبيَانِ شُمولِ إدرَاكِهِ ﷻ: قَالَ تعَالَىٰ: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة:١].

السَّمعُ بِمعنَىٰ إدرَاكِ المَسمُوعِ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّاتِيةِ الَّتِي لَا تَنفَكُّ عَنهُ سُبحَانَهُ، فَلَم يَزَل وَلَا يَزَالُ مُتَّصِفًا بِهَا.

السَّمعُ بِمعنَىٰ النَّصرِ والتَّأييدِ مِنَ الصِّفَاتِ الفِعلِيةِ؛ لأَنَّهُ مَقرونٌ بِسبَبٍ.

السَّمعُ بِمعنَىٰ الإجَابَةِ مِنَ الصِّفَاتِ الفِعلِيةِ؛ لأَنَّهُ مَقرونٌ بِسَبَبٍ.

﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾: معنَاهُ: ذُو البَصرِ، وَيُطلَقُ عَلَىٰ العَلِيمِ، وَيُطلَقُ عَلَىٰ الرَّائِي، فَهُوَ بَصيرٌ رُؤيَةً، وَبَصيرٌ عِلمًا، فَهُوَ ﷻ يَرَىٰ كُلَّ شَيءٍ، وإنْ خَفِيَ، وإنْ بَعُدَ، فَإنَّهُ تَعَالَىٰ يَرَىٰ كُلَّ شَيءٍ لَا يَغيبُ عَنهُ شَيءٌ، كَذَلِكَ البَصيرُ بِمعنَىٰ عَلِيمٍ بِهِ.

وَالفِعلُ المُتَعدِّي: هُوَ مَا يَتَعدَّىٰ أَثَرُهُ فَاعِلَهُ، وَيَتَجَاوَزُهُ إلَىٰ المَفعُولِ بِهِ، **واللازِمُ**: هُوَ مَا يَلزَمُ فَاعِلَهُ، وَلَا يَتعدَّىٰ أَثَرُهُ لِغَيرِهِ، فَهُوَ قَاصِرٌ، وَغَيرُ مُجَاوِزٍ.

وَيَصيرُ اللازِمُ مُتَعدِّيًا بِالتَّضعِيفِ، وَبِالهَمزَةِ، وبِحَرفِ الجَرِّ.

وَالمُتعَدِّي قَد يَتَعدَّىٰ بِنفسِه، وَقَد يَتَعدَّىٰ بِغَيرِهِ، وَقَد يَتَعدَّىٰ إِلَىٰ مَفعولٍ وَاحِدٍ، أو أكثَرَ.

«السَّمِيعُ، والبَصيرُ» اسمَانِ مِن أسمَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ، ويتَعلَّقُ بِهِمَا ثَلَاثَةُ أمُورٍ؛ لأنَّهُمَا مُتعدِّيَانِ:

الأمرُ الأوَّلُ: ثُبوتُ الاسمِ للهِ ﷻ.

الأمرُ الثَّانِي: ثُبوتُ الصِّفَةِ التِي تَضمَّنَهَا الاسمُ للهِ ﷻ.

الأمرُ الثَّالِثُ: ثُبوتُ حُكمِ الصِّفَةِ وَمُقتَضَاهَا - وَهُوَ الأثَرُ-.

*** هَل يَلزَمُ مِن إثبَاتِ السَّمعِ الأذُنُ، كَمَا يَلزَمُ مِن إثبَاتِ البَصَرِ إثبَاتُ العَينَينِ؟**

الجَوَابُ: لَا يَلزَمُ مِن إثبَاتِ السَّمعِ أنْ نُثبِتَ للهِ أُذُنًا، لأنَّ هَذَا لَم يَرِدْ، ونُثبِتَ للهِ عَينَينِ لَا بِهَذِهِ الآيَةِ، وَلَكِن بِآيَاتٍ أخرَىٰ دَلَّت عَلَىٰ ذَلِكَ.

والتَّعمُّقُ فِي هَذِهِ الأمَورِ غَيرُ مُستَحَبٍّ.

فَإنْ قِيلَ: هَلْ يَلزَمُ مِن إثبَاتِ السَّمعِ إثبَاتُ الأذُنِ؟

قُلنَا: لَا يَلزَمُ مِن السَّمَاعِ إلَّا السَّمَاعُ، أمَّا الأذنُ فَالأُذنُ شَيءٌ آخَرُ فَوقَ السَّمَاعِ.

قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الشورى:١٢].

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: المَقَالِيدُ هِيَ المَفَاتِيحُ، أي: أزِمَّةُ الأمُورِ بِيَدِ اللهِ ﷻ فِي السَّمَوَاتِ وَالأرضِ، يَتَصرَّفُ فِيهَا كَمَا يَشَاءُ؛ لأنَّهُ لَا يُسأَلُ عَمَّا يَفعَلُهُ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكمِهِ.

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾: يَبسُطُ: يُوسِّعُ، ويَقدِرُ: يُضَيِّقُ، والرِّزقُ بِمعنَىٰ العَطَاء، والعَطَاءُ نَوعَانِ:

عَطاءٌ يَقومُ بِهِ البَدنُ: كَالأكلِ وَالشُّربِ وَاللِّبَاسِ وَالسَّكَنِ، وَمَا أشبَهَ ذَلِكَ.

وَعَطَاءٌ تَقومُ بِهِ الرُّوحُ: كَالعِلمِ وَالإيمَانِ، وَهذَا أعظَمُ مِنَ الأوَّلِ.

ويَنقَسِمُ الرِّزْقُ إلَىٰ قِسمَينِ: عَامٌّ، وَخَاصٌّ.

١- **الرِّزقُ العَامُّ**: هُوَ كُلُّ مَا يَنتَفِعُ بِهِ البَدَنُ، سَواءٌ كَانَ حَلَالًا أو حرَامًا، وَسوَاءٌ كَانَ المَرزُوقُ مُسلِمًا أو كَافِرًا، وَهُوَ نَوعَانِ: طَيبٌ، وخَبيثٌ.

٢- **الرِّزقُ الخَاصُّ**: هُوَ مَا يَقومُ بِهِ الدِّينُ مِنَ العِلْمِ النَّافِعِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، وَهُوَ الحَلَالُ المُعِينُ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ.

﴿لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾: هَل هُوَ مُجرَّدُ مَشِيئَةٍ أنَّ اللهَ يَبسُطُ وَيَقدِرُ؟ نَقولُ: لَا، لَيسَ مُجرَّدَ مَشيئَةٍ؛ بَل مَشِيئَةٌ مَقرونَةٌ بِحكمَةٍ.

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾. لأنَّ المَشِيئَةَ -وَهِيَ مُطلَقَةٌ- لَا تَأتِي إلَّا عَلَىٰ مُقتَضَىٰ العِلمِ والحِكمَةِ، وَهَذَا فِيهِ عُمومُ عِلمِ اللهِ ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ مِنَ الأعيَانِ

وَالأوصَافِ والأحوَالِ الحَاضِرَةِ وَالمُستَقبَلَةِ والمَاضِيَةِ، وَهُوَ عَالِمٌ بِهَا -جَلَّ وَعَلا-، لَا يَخفَىٰ عَلَيهِ شَيءٌ مِنهَا.

* فَوائِدُ مِن قَولِهِ تَعَالَىٰ:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى:١١-١٢].

١- نَفيُ التَّمثِيلِ: لِقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وَانتَفتِ المِثلِيةُ لِكمَالِ صِفَاتِهِ ﷻ، فَلا مُمَاثِلَ لَهَا.

٢- إثبَاتُ اسمَي السَّمِيعِ البَصيرِ، وَهُمَا اسمَانِ مِن أسمَاءِ اللهِ، وَالأخِيرُ العَلِيمُ.

٣- إثبَاتُ السَّمعِ وَالبَصرِ للهِ مِن قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ لأنَّ كُلَّ اسمٍ مِن أسمَاءِ اللهِ لَابُدَّ أنْ تَصِفَهُ بِالصِّفَةِ التِي اشتُقَّ مِنهَا.

٤- عُمومُ مُلكِ اللهِ ﷻ وتَدبِيرِهِ، لِقَولِهِ: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٥- أنَّهُ لَا مُشَارِكَ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَأخَذنَا ذَلِكَ مِن تَقدِيمِ الخَبَرِ: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٦- أنَّهُ: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ فَالأمرُ بِيدِهِ سُبحَانَهُ وتَعَالَىٰ.

٧- أنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُضَيِّقُ، فَإنْ قَالَ قَائِلٌ: هَل هُنَاكَ سَبَبٌ غَيرُ كَسبِ الإنسَانِ الدُّنيَوِيِّ لِسَعَةِ الرِّزقِ؟ قُلنَا: نَعَم، ومِنهَا صِلَةُ الرَّحِمِ.

* **مَرَاتِبُ الإيمَانِ بِالقَدَرِ**: العِلمُ، والكِتَابَةُ، والمَشِيئَةُ، والخَلقُ.

العِلمُ: الإيمَانُ بِعلمِ اللهِ المُحِيطِ، وَأَنَّهُ لَا يَعزُبُ عَنهُ شَيءٌ فِي السَّموَاتِ وَلَا فِي الأرضِ، وَأَنَّهُ يَعلَمُ مَا سَيكُونُ مِن قَبلِ أنْ يَكُونَ.

الكِتَابَةُ: كَتَبَ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- مَقَادِيرَ الأشيَاءِ عَلَىٰ حَسَبِ عِلمِهِ قَبلَ خَلقِ السَّموَاتِ وَالأرضِ بِخَمسِينَ ألفَ سَنَةٍ.

المَشِيئَةُ: أَنَّهُ لَا يَكُونُ إلَّا مَا يَشَاؤهُ اللهُ، وَأَنَّ مَشِيئَةَ العَبدِ تَحتَ مَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَىٰ.

الخَلقُ: أنَّ اللهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ، سَواءٌ مِمَّا فَعلَهُ أو فَعلَهُ عِبَادُهُ.

* * *

الإيمَانُ بِأنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ

ونُؤمِنُ بِأَنَّهُ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:٦].

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾: كُلُّ مَا يَدِبُّ عَلَىٰ الأرضِ مِن إنسَانٍ وغَيرِ إنسَانٍ، «مِن» هَذِهِ زَائِدَةٌ إعرَابًا؛ لَكِنَّ لَهَا مَعنًىٰ عَظِيمًا؛ وَهُوَ إرَادَةُ العُمومِ.

يَعنِي: أيَّ دَابَّةٍ فِي الأرضِ، رِزقُهَا عَلَىٰ اللهِ ﷻ، هُوَ الذِي يَتكَفَّلُ بِهِ.

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ﴾: المُستَقَرُّ: هُوَ مَا استَقرَّ فِيهِ عَلَىٰ الدَّوَامِ، وَالآخِرَةُ هِيَ المُستَقَرُّ، وَالمُستَودَعُ: مَا تَكونُ فِيهِ كَالوَدِيعَةِ إِلَىٰ أَنْ يَشَاءَ رَبُّهَا أَخْذَهَا، والمُستَودَعُ هُوَ الدُّنيَا إِلَىٰ أنْ تَقومَ السَّاعَةُ، كُلُّ هَذَا مُستَودَعٌ، والإنسَانُ فِيهَا وَدِيعَةٌ مَتَىٰ شَاءَ المُودِعُ أخذَهُ.

﴿كُلٌّ﴾؛ أي: مِنَ الرِّزقِ، والمُستَقَرِّ، والمُستَودَعِ.

﴿فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: فِي مَكتُوبٍ بَيِّنٍ ظَاهِرٍ، وذَلِكَ هُوَ اللَّوحُ المَحفُوظُ الذِي تَتفَرَّعُ عَنهُ بَقِيةُ الكِتَابَاتِ، فَإِنَّ المَلَكَ إِذَا بَلَغَ الجَنِينُ أربَعَةَ أشهُرٍ، بُعِثَ إِلَيهِ فَأُمِرَ بَكَتْبِ رِزقِهِ وَأجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقيٌّ أمْ سَعيدٌ.

الإيمانُ بأنَّ اللهَ عِندَهُ مفاتِحُ الغَيبِ

وَنُؤمنُ بأنَّهُ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

﴿وَعِندَهُۥ﴾: خَبرٌ مُقدَّمٌ، ﴿مَفَاتِحُ﴾: مُبتدأٌ مُؤخَّرٌ، وَتَقديمُ الخَبَرِ يَدلُّ عَلَىٰ الحَصرِ والاختِصَاصِ.

وَ﴿مَفَاتِحُ﴾: جَمعُ (مِفتَاحٍ)، وفِيهَا قَولَانِ: إمَّا المِفتَاحُ الذِي تُفتَحُ بِهِ الأبوَابُ، وإمَّا المَكَانُ الذِي يُفتَحُ، يَعنِي: مُستَودَعَاتِ العِلمِ، والصَّحِيحُ أنَّهَا تَشمَلُ الجَميعَ.

وَالغَيبُ: مَا كَانَ غَائِبًا، وَهُوَ أمرٌ نِسبِيٌّ، لَكِنَّ الغَيبَ المُطلَقَ عِلمُهُ خَاصٌّ باللهِ.

﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾. فَسَّرَهَا النَّبِيُّ ﷺ بالآيَةِ الكَرِيمَةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان:٣٤][1].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢٧).

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾: يَعلَمُ كُلَّ شَيءٍ فِي البَرِّ، وَكُلَّ شَيءٍ فِي البَحرِ، وخصَّهُمَا بِالذِّكرِ لِكونِهِمَا مِن أعظَمِ مَخلُوقَاتِ اللهِ، يَعلَمُ تَعَالَىٰ مَا فِيهِمَا مِن حَيوانٍ ونَبَاتٍ وَجَمَادٍ، عِلمًا مُفصَّلًا لَا يَخفَىٰ عَلَيهِ مِنهُ شَيءٌ.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾: مِن نَبَاتِ البَرِّ وَالبَحرِ وغَيرِ ذَلِكَ، يَعلَمُهَا، كَبِيرَةً أو صَغِيرَةً، رَطبَةً أو يَابِسَةً، ويَعلَمُ زَمَانَ سُقوطِهَا، ومَكَانَ سُقوطِهَا، وَطَرِيقَةَ سُقوطِهَا، وكَيفِيَّةَ سُقوطِهَا.

﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾: (حَبَّةٍ) شَامِلَةٌ للصَّغِيرَةِ والكَبِيرَةِ.

وظُلمَات: جَمعُ (ظُلمَةٍ)، وأَقَلُّ الجَمعِ ثَلاثَةٌ، فَلَو افتَرَضنَا أنَّ حَبَّةً غَائِصَةً فِي قَاعِ البَحرِ وفِي لَيلَةٍ مُمطِرَةٍ، فَالظُّلمَاتُ تَكونُ: ظُلمَةَ المَاءِ، وظُلمَةَ الطِّينِ التِي هِيَ غَائِصَةٌ فِيهِ، وظُلمَةَ الليلِ، وظُلْمَةَ الليلَةِ المُظلِمَةِ بِالسَّحَابَةِ، وظُلمَةَ الليلَةِ المُظلِمَةِ بِنزُولِ المَطَرِ، فَهَذِهِ خَمسُ ظُلمَاتٍ، وَاللهُ ﷻ يَعلَمُ هَذِهِ الحَبَّةَ فِي هَذِهِ الظُّلمَاتِ كُلِّهَا، وهُوَ العَلِيمُ الخَبِيرُ.

﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾: وَهَذَا أعَمُّ، فَالأشيَاءُ كُلُّهَا إمَّا رَطبَةٌ وإمَّا يَابِسَةٌ، وَقَد جَاءَتِ الآيَةُ مُفَصِّلةً؛ لِيكُونَ أشَدَّ وَقعًا فِي النُّفوسِ، وَأبْيَنَ فِي التَّعمِيمِ.

﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وَالكِتَابُ المُبِينُ: هُوَ اللوحُ المَحفُوظُ.

وَنُؤمِنُ بِأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ: ﴿عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:٣٤].

هَذِهِ الخَمسُ هِيَ مَفَاتِحُ الغَيبِ كَمَا فَسَّرَهَا النَّبيُّ ﷺ(١).

﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾: مِفتَاحٌ لِعَالَمِ الآخرَةِ، والسَّاعَةُ هِيَ السَّاعَةُ الكُبرَىٰ التِي فِيهَا يُبعَثُ النَّاسُ، لَكِن قَد تَشمَلُ مَا هُوَ أعمُّ وهُوَ سَاعَةُ الإنسَانِ؛ لأنَّ السَّاعَةَ نَوعَانِ: سَاعَةٌ عَامَّةٌ لِجَمِيعِ الخَلقِ وَهِيَ القِيَامَةُ الكُبرَىٰ، وَسَاعَةٌ خَاصَّةٌ لِكُلِّ إنسَانٍ بنفسِهِ وَهِيَ القِيَامَةُ الصُّغرَىٰ، وَعِلمُ السَّاعَةِ خَاصٌّ بِاللهِ تَعَالَىٰ، لَا أحدَ غَيرُهُ يَعلَمُهُ، لَكِن لَهَا أشرَاطٌ وَعَلامَاتٌ مِنهَا مَا قَد جَاءَ وَسَبَقَ، وَمنهَا مَا هُوَ مُستَقبَلٌ.

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾: الغَيثُ: المَطَرُ الذِي تَزولُ بِهِ الشِّدَّةُ، أمَّا المَطَرُ الذِي لَم تَزُل بِهِ الشِّدَّةُ فَلَيسَ بِغَيثٍ، فَالذِي يُنزِّلُ الغيثَ هُوَ اللهُ ﷻ، وَكَذَلِكَ المَطَرُ الذِي لَا تَزولُ بِهِ الشِّدَّةُ لَا يُنزِلُهُ إلَّا اللهُ، وَالغَيثُ مِفتَاحُ إحيَاءِ الأرضِ بَعدَ مَوتِهَا، وَهُوَ يُشبِهُ إحيَاءَ النَّاسِ بَعدَ مَمَاتِهِم.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾: الأرحَامُ جَمعُ (رَحِم) وَهُوَ وِعَاءُ الجَنِينِ فِي بَطنِ أمِّهِ، وَهِيَ شَامِلَةٌ لِكُلِّ رَحِمٍ مِنَ الآدَمِيِّينَ وَغَيرِ الآدَمِيِّينَ، وَعِلمُهُ بِمَا فِي الأرحَامِ عِلمٌ بِنَفسِ الجَنِينِ وَعِلمٌ بِعمَلِهِ ومَآلِهِ وَأجلِهِ، وَغيرِ ذَلِكَ مِنَ مُتعَلِّقَاتِهِ، وهُوَ مِفتَاحٌ لِكُلِّ إنسَانٍ بِحسَبِهِ؛ لأنَّ نَشأَةَ الحَيَاةِ تَكُونُ فِي الرَّحِمِ.

﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾: هَذَا مِفتَاحُ الزَّمَن، وَالزَّمنُ بِهِ الأعمَالُ فِي المُستَقبلِ، وهَذِهِ الأعمَالُ لَا يَعلَمُهَا أحَدٌ إلَّا اللهُ.

(١) تقدم تخريجه (ص٦٠).

ويُستَفَادُ مِن هَذَا الجُزء مِن الآيَةِ: أنَّ الإنسَانَ لَا يَعلَمُ مَاذَا يَكسِبُ غَدًا وإنْ قَدَّرَ أنَّهُ سَيفعَلُ كَذَا وكَذَا؛ فَإنَّهُ لَا يَعلَمُ هَل سَيحصُلُ أو لَا.

ولِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ لِنَبيهِ ﷺ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف:٢٣-٢٤]. فَإذَا قَصَدَ الإنسَانُ الفِعلَ، فَعلَيهِ أنْ يَذكُرَ المَشِيئَةَ، أمَّا إذَا قَصَدَ الإخبَارَ عَمَّا فِي نَفسِهِ فَلا عَلَيهِ ألَّا يَذكُرَهَا.

وَيُستَفَادُ أيضًا أنَّ مَن ادَّعَىٰ عِلمَ الغَيبِ فِي المُستَقبَلِ سَواءٌ فِيمَا يَتَعلَّقُ بِفعلِ اللهِ ﷻ أو بِفعلِ نَفسِهِ فَإنَّهُ كَافِرٌ، وَوَجهُ الدَّلَالَةِ أنَّهُ مُكذِّبٌ لِقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، وَتَكذِيبُ القُرآنِ كُفرٌ صُرَاحٌ.

﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾: نَفسٌ: نَكِرَةٌ تَعُمُّ كُلَّ نَفسٍ، فَكُلُّ نَفسٍ لَا تَدرِي أينَ تَموتُ، بَل لَا تَدرِي هَل تَموتُ فِي الأرضِ أمْ فِي البَحرِ أمْ فِي الجَوِّ، وهَذَا مِمَّا انفَرَدَ اللهُ ﷻ بِعلمِهِ، وَهَذَا مِفتَاحُ عَالَمِ الآخِرَةِ بِالنِّسبَةِ لِكُلِّ إنسَانٍ بِحَسَبِهِ، وَوَجهُ ذَلِكَ أنَّهُ مَن لَم يَدرِ بِأي أرضٍ يَموتُ لَا يَدرِي قَطعًا بِأي زَمَنٍ يَموتُ، لأنَّ خفَاءَ الزَّمَنِ أبلَغُ مِن خَفَاءِ المَكَانِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾: نَستَفِيدُ مِن هَذَا الجُزءِ مِنَ الآيَةِ: عِلمَ اللهِ ﷻ وَخِبرَتَهُ، والعِلمُ يَشمَلُ العِلمَ بِالظَّواهِرِ وبِالبَوَاطِنِ، وَالخِبرَةُ هِيَ العِلمُ بِبَوَاطِنِ الأمورِ، فَيَكُونُ فِي هَذِهِ الآيَةِ إثبَاتُ اسمَينِ للهِ تَعَالَىٰ: «العَليم، والخَبير»، وإثبَاتُ صِفَتَينِ لَهُ سُبحانَهُ وَهُمَا: «العِلمُ والخِبرَة».

❊ ❊ ❊

الإيمَانُ بصِفَةِ الكَلامِ

وَنُؤمِنُ بِأَنَّ اللهَ يَتكَلَّمُ بِمَا شَاءَ ومَتَىٰ شَاءَ كَيفَ شَاءَ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم:٥٢].

«نُؤمِنُ بِأَنَّهُ يَتكلَّمُ»: هَذِهِ صِفَةُ الكَلامِ، «بِمَا شَاءَ»: يَعنِي المُتكلَّمَ بِهِ، «مَتَىٰ شَاءَ»: يَعنِي الزَّمَنَ، «كَيفَ شَاءَ»: يَعنِي كَيفِيةَ الكَلَامِ.

الإيمَانُ بِصفَةِ الكَلامِ: هُوَ الاعتِقَادُ الجَازِمِ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ مُتَكَلِّمٌ بِكلَامٍ، وَأَنَّهُ لَم يَزَلْ يَتكلَّمُ، وَلَا يَزَالُ يَتكَلَّمُ بِمَا شَاءَ إذَا شَاءَ كَيفَ شَاءَ، وَأَنَّهُ سُبحَانَهُ يَتَكلَّمُ بِحَرفٍ، وَالحَرفُ إمَّا أنْ يَكُون بِاللُّغَةِ العَرَبِيةِ كَالقُرآنِ، أو بِاللغَةِ العِبرِيَّةِ كَالتَّوْرَاةِ، أو بِالسُّريَانِيةِ كَالإنجِيلِ، يَتكلَّمُ بِأي لُغَةٍ أَرَادَهَا، وَكَلامُهُ بِصَوتٍ، وَهَذَا الصَّوتُ لَيسَ كَأصوَاتِ المَخلُوقِينَ؛ لأنَّه تَعَالَىٰ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

يَتكلَّمُ بِكلَامٍ يَسمَعُهُ مَن شَاءَ مِن خَلقِهِ، سَمِعَهُ مُوسَىٰ عليه السلام مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ مِن غَيرِ وَاسِطَةٍ، وَمَن أذِنَ لَهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِن مَلَائِكَتِهِ وَرسُلِهِ، ويُكلِّمُ المُؤمِنينَ

ويُكلِّمُونَهُ يَومَ القِيَامَةِ، وَالكَلَامُ بِوَاسِطَةٍ بِالوَحيِ إلَىٰ الأنبِيَاءِ، وبِلَا وَاسِطَةٍ كَكَلَامِهِ تَعَالَىٰ لِمُوسَىٰ وَمُحمَّدٍ وَآدَمَ وَحوَّاءَ وجِبرِيلَ.

وَالكَلامُ كَونِيٌّ قَدَرِيٌّ تُوجَدُ بِهِ الأشيَاءُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠]، ودِينِيٌّ شَرعِيٌّ، وهُوَ الذِي مِنهُ الكُتبُ المُنزَّلَةُ عَلَىٰ رُسلِ اللهِ -عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ-.

قَولُ المُعتَزِلَةِ: قَالَت المُعتَزِلَةُ: إنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَا يُوصَفُ بِالكَلَامِ؛ لَكِنَّ كَلَامَهُ مَخلوقٌ، فَيُنسَبُ إلَيهِ الكَلامُ خَلقًا لَا وَصفًا؛ لأَنَّهُ فِعْلُهُ، خَلَقَهُ اللهُ ﷻ، ونَسَبَهُ إلَيهِ نِسبَةَ تَشرِيفٍ وتَكرِيمٍ، كَمَا نَسَبَ إلَيهِ نَاقَةَ صَالِحٍ، وكَمَا نَسَبَ إلَيهِ المَسَاجِدَ، وكمَا نَسَبَ إليهِ الكَعبَةَ.

قَولُ الأشعَرِيةِ: قَالَت الأشعَرِيةُ: إنَّ كَلَامَ اللهِ تَعَالَىٰ هُوَ المَعنَىٰ القَائِمُ بِنَفسِهِ، ومَا يُسمَعُ فَإنَّهُ مَخلُوقٌ خَلَقَهُ اللهُ؛ لِيُعبِّرَ عَمَّا فِي نَفسِهِ، فَإذَن، هَذَا القُرآنُ عِبَارَةٌ عَن كَلَامِ اللهِ.

والفَرقُ بَينَ المُعتَزِلَةِ والأشعَرِيَّةِ:

أنَّ المُعتَزِلَةَ يَقولُونَ: لَا نَنسُبُ الكَلامَ إلَيهِ وَصفًا، بَل فِعلًا وخَلقًا.

وَالأشَاعِرَةُ يَقولُونَ: نَنسُبُ الكَلامَ إلَيهِ وَصفًا، لَا بِاعتِبَارِ أنَّهُ شَيءٌ مَسمُوعٌ وأنَّهُ بِحروفٍ، بَل بِاعتِبَارِ أنَّهُ شَيءٌ قَائِمٌ بِنفسِهِ، وَمَا يُسمَعُ أو يُكتَبُ فَهُوَ مَخلوقٌ.

فَعَلَىٰ هَذَا يتَّفِقونَ مَعَ المُعتَزلَةِ فِي أنَّ مَا يُسمَعُ أو يُكتَبُ فَهُوَ مَخلوقٌ، فَهُم جَمِيعًا يَقولُونَ: إنَّ القُرآنَ مَخلوقٌ، لَكِنَّ المُعتَزلَةَ يَقولُونَ: إنَّهُ كَلَامُهُ حَقِيقَةً كَمَا أنَّ السَّمَواتِ خَلقُه حَقِيقَةً، وَقَالَت الأَشَاعِرَةُ: لَيسَ هُوَ كَلامَ اللهِ تَعَالَىٰ حَقِيقَةً، بَل هُوَ عِبَارَةٌ عَن كَلَامِ اللهِ، فَصَارَ الأَشَاعِرَةُ مِن هَذَا الوَجهِ أَبعَدَ عَن الحَقِّ مِنَ المُعتَزِلَةِ، وَكِلتَا الطَّائِفَتَينِ ضَالٌّ مُنحَرِفٌ؛ لأنَّ الكَلَامَ لَيسَ شَيئًا يَقومُ بِنفسِهِ، وَالكَلَامُ صِفَةُ المُتَكلِّمِ، لِذَا فَإِنَّ كَلَامَ اللهِ صِفَةٌ، وَصِفَاتُ اللهِ تَعَالَىٰ غَيرُ مَخلوقَةٍ؛ إذْ إنَّ الصِّفَاتِ تَابِعَةٌ لِلذَّاتِ، وكَمَا أنَّ ذَاتَ اللهِ ﷻ غَيرُ مَخلوقَةٍ فَكذَلِكَ صِفَاتُهُ غَيرُ مَخلُوقَةٍ.

خُلَاصَةُ عَقِيدَةِ أهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ فِي صِفَةِ الكَلَامِ: أنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إذَا شَاءَ، وَأنَّ الكَلَامَ صِفَةٌ لَهُ تَعَالَىٰ قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ، يَتكَلَّمُ بِهَا بِمَشِيئَتِهِ وَقُدرَتِهِ.

فَهُوَ سُبحَانَهُ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ مُتَكَلِّمًا إذَا شَاءَ، وَمَا تَكَلَّمَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ فَهُوَ قَائِمٌ بِهِ لَيسَ مَخلُوقًا مُنفَصِلًا عَنهُ، كَمَا تَقُولُ المُعتَزِلَةُ، وَلَا لَازِمًا لِذَاتِهِ لُزومَ الحَيَاةِ، كَمَا تَقُولُ الأَشَاعِرَةُ، بَلْ هُوَ تَابعٌ لِمَشِيئَتِهِ وَقُدرَتِهِ.

وَقَدْ دَلَّتِ الآيَاتُ وَالأَحَادِيثُ عَلَىٰ إثبَاتِ صِفَةِ الكَلَامِ للهِ تَعَالَىٰ، وَمَذهَبُ أهلِ السُّنَّةِ إثبَاتُ مَا دَلَّ عَلَيهِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِن أنَّ اللهَ مَوصُوفٌ بِالكَلَامِ، وَكَلَامُهُ سُبحَانَهُ مِن صِفَاتِهِ الذَّاتِيَّةِ لِقِيَامِه بِهِ وَاتِّصَافِهِ بِهِ، وَمِن صِفَاتِه الفِعلِيَّةِ الوَاقِعَةِ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدرَتِهِ، فَيَتكَلَّمُ إذَا شَاءَ، كَيفَ شَاءَ، بِمَا يَشَاءُ، لَمْ يَزَلْ

مُتكَلِّمًا وَلَا يَزَالُ مُتكَلِّمًا؛ لأنَّهُ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ كَامِلًا، وَالكَلَامُ مِن صِفَاتِ الكَمَالِ، وَلأَنَّهُ سُبحَانَهُ وَصَفَ نَفسَهُ بِهِ، وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ.

وَنُؤمِنُ بأنَّ: ﴿لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف:١٠٩]، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان:٢٧].

﴿لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾: المِدادُ: هُوَ مَا يُكتَبُ بِهِ، وهُوَ البَحرُ.

﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ سُبحَانَ اللهِ!، البَحرُ عَلَىٰ سَعتِهِ وكَثْرَةِ مَائِهِ وَعُمقِهِ، يَنفَدُ قَبلَ أنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ اللهِ؛ لأنَّ كَلِمَاتِ اللهِ ﷻ دَائِمَةٌ كَمَا أنَّ خَلقَهُ دَائِمٌ، وهُوَ إذَا خَلقَ فَقَد أرَادَ، وإذَا أرَادَ قَالَ.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾: «مَا» هُنَا اسمٌ مَوصُولٌ، وَهِيَ هُنَا تُفِيدُ الحَصرَ.

﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾: هَذِهِ أعظَمُ مِنَ الآيَةِ الأولَىٰ، وَمَعلومٌ أنَّ القُرآنَ مِن حَيثُ مَن تَكلَّمَ بِهِ لَا يَتفَاضَلُ، فَكلُّهُ كَلامُ اللهِ، وَأمَّا مِن حَيثُ مَا دَلَّ عَلَيهِ فيَتَفَاضَلُ.

وَهَذِهِ الآيَةُ أعظَمُ مِن الآيَةِ الأولَىٰ مِنْ حَيثُ مَا دَلَّتْ عَلَيهِ، ومِن حَيثُ المَعنَىٰ، وتَفسِيرُهَا؛ أي: بِزيَادَةِ الضِّعفِ عَلَىٰ الأوَّلِ بِستَّةِ أضعَافٍ.

﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾؛ يَعنِي: لَو جُمِعَ جَمِيعُ مَا فِي الأرضِ مِن أشجَارٍ

وَجُعِلَتْ أقلَامًا، وَأُضِيفَ إِلَىٰ البَحرِ سَبعَةُ أبحُرٍ، فَإِنَّهُ لَا تَنفدُ كَلِمَاتُ اللهِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: وهَذَا يَدلُّ عَلَىٰ عَظَمَةِ الرَّبِّ ﷻ وَكثرَةِ مَخلُوقَاتِهِ وَإِرَادَتِه ﷻ، كُلُّ هَذِهِ الآيَاتِ تَدلُّ عَلَىٰ إثبَاتِ صِفَةِ الكَلَامِ للهِ.

*** عَقِيدَةُ أهلِ السُّنَّةِ فِي صِفَةِ الكَلَامِ:**

وَأهلُ السُّنةِ وَالجمَاعةِ -جَعَلنَا اللهُ وإيَّاكُم مِنهُم، وأمَاتَنَا عَلَىٰ ذَلِكَ- يُؤمِنونَ:

١- بِأنَّ اللهَ يَتكلَّمُ.

٢- وَأنَّ كَلَامَهُ وَصفُهُ لَا فِعلُهُ.

٣- وَأنَّ كَلَامَهُ بِحَرفٍ وَصَوتٍ.

٤- وأنَّ كَلَامَهُ يَكُون أحيَانًا بِندَاءٍ وأحيَانًا بِمنَاجَاةٍ، وَالمُنَاجَاةُ: هِيَ الكَلَامُ الخَفِيُّ.

وَمَذهَبُ أهلِ السُّنةِ إثبَاتُ مَا دَلَّ عَلَيهِ الكِتَابُ وَالسُّنةُ مِن أنَّ اللهَ مَوصُوفٌ بِالكَلَامِ، وَكَلامُهُ سُبحَانَهُ مِن صِفَاتِهِ الذَّاتِيَّةِ، لِقيَامِهِ بِهِ واتصَافِهِ بِهِ، وَمِن صِفَاتِه الفِعلِيةِ الوَاقِعَةِ بِمشِيئَتِهِ وقُدرَتِهِ، فَيتكَلَّمُ إذَا شَاءَ كَيفَ شَاءَ بِمَا يَشَاءُ، لَم يَزَلْ مُتكَلِّمًا ولَا يَزَالُ مُتكلِّمًا، لأنَّهُ لَم يَزَلْ وَلَا يَزَالُ كَامِلًا، وَالكَلَامُ مِن صِفَاتِ الكَمَالِ، وَلأنَّهُ سُبحَانَهُ وَصَفَ نَفسَهُ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ وَوَصَفَهُ بِهَا رَسولُهُ ﷺ.

سَبَبُ ضَلالِ الْمَذَاهِبِ الْمُنحَرِفَةِ فِي كَلامِ اللهِ تَعَالَى وَأشهَرُهَا الأشَاعِرَةُ وَالْمُعتَزِلَةُ

أَنَّهُم -نَسأَلُ اللهَ العَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ وَأَلَّا يُزِيغَ قُلوبَنَا- جَعَلوا مَرجِعَ الصِّفَاتِ إِلَىٰ العَقلِ، ولَم يَجعلوهَا إِلَىٰ النَّقلِ.

فَيقُولُونَ: مَا خَالَفَ العَقلَ فَإِنَّنَا نَسلُكُ فِيهِ أَحَدَ أمرَينِ:

إِمَّا أَنْ نُؤَوِّلَهُ، وإِمَّا أَنْ نُفوِّضَهُ.

والتَّأويلُ عِندَهُم يَعنِي: التَّحرِيفَ فِي الحَقِيقَةِ؛ لَكنَّهُم أتَوا بِالتَّأوِيلِ تَلطِيفًا.

أو نُفَوِّضَهُ؛ يَعنِي يَقولُونَ: لَا ندرِي، ويَقولُونَ: إنَّ ظَاهِرَ النَّصِّ لَا يدُلُّ عَلَىٰ شَيءٍ، ثُمَّ الكَيفُ أيضًا مِن بَابِ أولَىٰ.

المَسلكُ الثَّانِي -فِي آيَاتِ الصِّفَاتِ وأحَادِيثِهَا عِندَ الأشَاعِرَةِ-: هُوَ التَّحرِيفُ الذِي يُسمُّونَهُ التَّأوِيلَ، وهُوَ الذِي يَمشُونَ عَلَيهِ فَيُفَسرونَ ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي: جَاء أمرُهُ، ويُفسرونَ: «رَحِمَكَ اللهُ» أي: أحسَنَ إِلَيكَ، أو أَرَادَ بِكَ الرَّحمَةَ؛ فَلا يُثبِتونَ للهِ صِفةَ الرَّحمَةِ، إِلَىٰ آخِرِ تَحرِيفَاتِهِم.

فعِندنَا الآن مَذهَبَانِ فِي كَلَامِ اللهِ:

المَذهَبُ الأوَّلُ: مَذهبُ المُعتَزلَةِ.

وَالمَذهَبُ الثَّانِي: مَذهبُ الأشَاعِرَةِ.

وكِلَاهُمَا بَاطِلٌ كَمَا مَرَّ تَقرِيرُهُ.

* * *

الإيمانُ بأن كَلِمَاتِ اللهِ أتَمُّ الكَلِمَاتِ وأكمَلُهَا

وَنؤمِنُ بِأَنَّ كَلِمَاتِه أَتَمُّ الكَلِمَاتِ صِدقًا فِي الأخبَارِ، وعَدلًا فِي الأَحكَامِ، وحُسنًا فِي الحَدِيثِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام:١١٥]. وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء:٨٧].

وَنؤمِنُ بِأَنَّ القُرآنَ الكَرِيمَ كَلامُ اللهِ تَعَالَىٰ تَكلَّم بِهِ حَقًّا، وَألقَاهُ إِلَىٰ جَبرِيلَ، فَنزَلَ بِهِ جَبرِيلُ عَلَىٰ قَلبِ النَّبيِّ ﷺ، ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [النحل:١٠٢]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥].

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾: فَلَيسَ فِي كَلَامِ اللهِ ﷻ كَذِبٌ، وَلَيسَ فِي كَلِمَاتِهِ جَورٌ، وَلَيسَ فِي كَلِمَاتِهِ قَبِيحٌ، بَل كَلِمَاتُهُ -جَلَّ وَعَلَا- أكمَلُ الكَلِمَاتِ فِي كُلِّ مَعَانِي الكَمَالِ، إنْ نَظرتَ إلَىٰ السِّيَاقِ وجَدتَهُ أكمَلَ سِياقٍ، وإنْ نَظَرتَ إِلَىٰ المَعنَىٰ وَجَدتَهُ أكمَلَ مَعنًىٰ، وَإِنْ نَظَرتَ إِلَىٰ التَّنسِيقِ بَينَ المَعانِي وَجَدتَهُ أحسَنَ تَنسِيقٍ...إلَخ.

﴿صِدْقًا﴾: هَذِهِ تَمييزٌ وعَامِلُهَا ﴿ وَتَمَّتْ ﴾، أي: تَمَّ صِدقُهَا وَتَمَّ عَدلُهَا،

فَالَّذِي يَلِيقُ أَنْ يُوصَفَ بِالصِدقِ: الأخبَارُ، وَالَّذِي يَليقُ أَنْ يُوصَفَ بِالعَدلِ: الأحكَامُ.

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾: «مَن» اسمُ استِفهَامٍ، وَالمَقصُودُ بِالاسْتِفْهَامِ النَّفيُ، وَكُلَّمَا جَاءَ الاستِفهَامُ مَقصُودًا بِهِ النَّفيُ كَانَ أعظَمَ مِن النَّفي المُجَرَّدِ، لأنَّ الاستِفهَامَ الذِي يُقصَدُ بِهِ النَّفيُ، استَفهَامٌ مُشْرَبٌ بِالتَّحدِّي؛ كَأنَّ المُتكلِّمَ يَقُولُ: إنْ كُنتَ تَجِدُ أَحَدًا أحسَنَ مِن هَذَا فَبَيِّنهُ لِي.

فَقولُهُ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ أبلَغُ مِمَّا لَو قِيلَ: لَا أحَدَ أصدَقُ مِن اللهِ تَعَالَىٰ حَدِيثًا.

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ﴾ يَقولُونَ: إنَّ مَعنَىٰ الصِّدقَ: الإخبَارُ بِمَا يُطابِقُ الوَاقِعَ، ولَا خَبرَ يُطَابِقُ الوَاقِعَ أكثَرَ مِن خَبرِ اللهِ ﷻ، وَفِي وَصفِ الحَدِيثِ بِالصِّدقِ وَالكَلمَاتِ بِالصِّدقِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أنَّ القرآنَ كَلامُ اللهِ؛ لأنَّ وَصفَ الصِّدقِ لَا يَنطَبِقُ إلَّا عَلَىٰ الخبرِ، فَيكونُ اللهُ تَعَالَىٰ مُتكلِّمًا بِالقُرآنِ خَبرًا، وَمُتكلِّمًا بِالقُرآنِ تَشرِيعًا.

«**وَنؤمِنُ بِأنَّ القُرآنَ الكَرِيمَ كَلامُ اللهِ تَعَالَىٰ**»: «القُرآنُ الكَرِيمُ» الكَرمُ فِي القُرآنِ يَشمَلُ كَثرَةَ الثَّوابِ فِي قِراءَتِهِ، وَكثرَةَ الخَيرَاتِ فِي العَمَلِ بِهِ، وَالحُسنَ، فَالقُرآنُ الكَريمُ وُصِفَ بِالكَرَمِ لِهَذِهِ الأسبَابِ الثَّلاثَةِ: الحُسنِ، وَكَثرَةِ الثَّوابِ، وَالخَيرِ الكَثِيرِ الذِي يَكُون فِي العَمَلِ بِهِ.

عَقِيدَةُ أهلِ السُّنةِ فِي القُرآنِ: الإيمَانُ بِأَنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ، مُنزَّلٌ غَيرُ مَخلُوقٍ، مِنهُ بَدَأ وإلَيهِ يَعودُ.

مَا وَجهُ كَونِ الإيمَان بِالقُرآنِ مِنَ الإيمَانِ بِاللهِ؟

الجَوَابُ: وَجهُهُ أنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ، وَكَلامُ اللهِ صِفَةٌ مِن صِفَاتِهِ، وَأيضًا فَإنَّ اللهَ وَصَفَ القُرآنَ بِأنَّهُ كَلامُهُ، وَأنَّهُ مُنَزَّلٌ، فَتَصدِيقُ ذَلِكَ مِن الإيمَانِ بِاللهِ الذِي أخبَرَنَا بِذَلِكَ سُبحَانَهُ.

«**مُنزَّلٌ**»: أي مِن عِندِ اللهِ، لِقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، ولِقَولِهِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١]. فَهُوَ كَلامُ اللهِ كَمَا أخبَرَنَا اللهُ -تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ-.

«**غَيرُ مَخلوقٍ**»: يَعنِي: لَيسَ مِن مَخلُوقَاتِ اللهِ التِي خَلقَهَا، وَالدَّليلُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، وَالقُرآنُ مِن الأمرِ، لِقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢]. فَالقُرآنُ كَلَامُ اللهِ، وَالكَلَامُ صِفَةُ المُتكلِّمِ.

«**مِنهُ بَدَأ**»: يَعنِي أنَّ ابتَداءَ تَنزِيلِهِ مِن اللهِ لَا مِن جِبرِيلَ ولَا مِن غَيرِهِ، فَجبرِيلُ نَازِلٌ بِالقُرآنِ مِن عِندَ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٣].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر:١].

«**وَإلَيهِ يَعودُ**»: فِيهَا مَعنَيانِ:

الأوَّلُ: أنَّهُ يُرفَعُ آخِرَالزَّمَانِ فَلا يَبقَىٰ مِنهُ شَيءٌ فِي الصُّدورِ ولَا فِي السُّطورِ؛

وذَلِكَ مِن عَلَامَاتِ السَّاعَةِ.

وَالقَولُ الثَّانِي: إلَيهِ يَعودُ؛ يَعنِي: يُنسَبُ إلَيهِ.

«**وَأنَّ اللهَ تَكلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً**»: بِنَاءً عَلَىٰ الأصلِ وهُوَ: أنَّ جَمِيعَ الصِفَاتِ حَقِيقِيَّةٌ، وإذَا كَانَ كَلَامُ اللهِ حَقِيقَةً، فَلا يُمكِنُ أنْ يَكُون مَخلُوقًا لأنَّهُ صِفَتُهُ، وصِفَةُ الخَالِقِ غَيرُ مَخلُوقَةٍ، كَمَا أنَّ صِفَةَ المَخلوقِ مَخلوقَةٌ.

قَالَ الإمَامُ أحمَدُ: مَن قَالَ: إنَّ لَفظِي بِالقُرآنِ مَخلُوقٌ؛ فَهُوَ جَهميٌّ، ومَن قَالَ: غَيرُ مَخلُوقٍ؛ فَهُوَ مُبتَدِعٌ.

فَإذَا أُرِيدَ بِاللَّفظِ: التَّلَفُّظُ، فَهَذَا الصَّوتُ الخَارِجُ مِن حَرَكَةِ اللسَانِ وَالفَمِ والشَّفَتينِ مَخلُوقٌ؛ سَواءٌ كَانَ المَلفُوظُ بِهِ قُرآنًا أو حَدِيثًا أو كَلَامًا تَتكَلَّمُهُ.

أمَّا إذَا قُصِدَ بِاللفظِ المُلفوظَ بِهِ، فَهَذَا مِنهُ مَخلوقٌ وَمِنهُ غَيرُ مَخلُوقٍ، وعَلَيهِ إذَا كَانَ المَلفوظُ بِهِ هُوَ القُرآنُ فَلَيسَ بِمخلُوقٍ.

فَالإمَامُ أحمَدُ أرَادَ مَن قَالَ هَذَا القَولَ؛ ويَعنِي: المَلفُوظَ بِهِ؛ فَسَّرَهُ فَقَالَ: «مَن قَالَ: لَفظِي بِالقُرآنِ مَخلوقٌ -يُرِيدُ القَرآنَ-؛ فَهُوَ جَهميٌّ».

وَلَا شَكَّ أنَّ الذِي يُرِيدُ بِاللفظِ هُنَا: المَلفوظَ بِهِ؛ جَهميٌّ، أمَّا مَن قَالَ: لَفظِي بِالقُرآنِ غَيرُ مَخلوقٍ؛ فَهُوَ مُبتَدِعٌ؛ لأنَّ هَذَا مَا عُهِدَ عَن السَّلَفِ.

ولَا يَجوزُ إطلَاقُ القَولِ بِأنَّهُ -أي: القُرآنِ- حِكَايَةٌ عَن كَلَامِ اللهِ -كَمَا قَالَتِ الكُلَّابِيةُ- أو هُوَ: عِبَارَةٌ عَن كَلَامِ اللهِ -كَمَا قَالَت الأشَاعِرَةُ-.

الإيمانُ بِصِفَةِ العُلُوِّ

نُؤمِنُ بِأنَّ اللهَ تَعالَىٰ عَلِيٌّ عَلَىٰ خَلقِهِ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨].

«نُؤمِنُ بِأنَّه تَعَالَىٰ عَليٌّ عَلَىٰ خَلقِهِ بِذَاتِهِ وَصفَاتِهِ»: أمَّا عُلوُّهُ بِالصِّفَاتِ فَقَد أطبَقَتْ عَليهِ الأمَّةُ سُنيُّهَا وَبدعِيُّهَا، فَقَالُوا: إنَّ اللهَ ﷻ عَلِيٌّ بِصفَاتِهِ، فَصِفَاتُهُ أعلَىٰ الصِّفَاتِ، وَلَا يُمكِنُ لأحَدٍ أنْ يُماثِلَهُ فِي صِفَاتِهِ، إلَّا أنَّ أَهلَ التَّمثِيلِ الذِينَ يُمثِّلونَ اللهَ تَعَالَىٰ بِخلقِهِ انتَقَصوا صِفَاتِ الخَالِقِ -جَلَّ وَعَلَا-، وهَؤلَاءِ كُفَّارٌ لَا يُعَدُّونَ مِن أهلِ المِلَّةِ؛ لأنَّ كُلَّ إنسَانٍ يَقُولُ: إنَّ اللهَ تَعَالَىٰ مِثلُ خَلقِهِ، فَهُوَ مُكذِّبٌ لِقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾، وَتَكذِيبُ القُرآنِ كُفرٌ.

❊ ❊ ❊

إشكالات مَنْ لا يُثبِتُونَ عُلُوَّ الله تَعَالَى بِذَاتِه

قَالَ الَّذِينَ لَا يُثْبِتُونَ عُلُوَّ اللهِ تَعَالَىٰ بِذَاتِهِ: إِنَّكُم إِذَا أَقررتُم بِعلُوِّ اللهِ تَعَالَىٰ بِذَاتِهِ فَقَد خَالَفتُمُ القُرآنَ، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الملك:١٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ [الملك:١٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ﴾ [الزخرف:٨٤].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الأنعام:٣].

قَالُوا: فَهذِهِ أَربَعُ آيَاتٍ كُلُّهَا تَدلُّ عَلَىٰ عَدَمِ العُلوِّ، فَقولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ إِنْ قُلتُم «فِي» ظَرفِيَّةٌ، فَقَد حَصَرتُمُ اللهَ فِي السَّمَاءِ؛ لأَنَّ الظَّرفَ أَكبَرُ مِن المَظروفِ، فَتكونُ السَّمَاءُ مُحِيطَةً بِهِ، وَأَنتُم لَا تَقولُونَ بِأَنَّ السَّمَاءَ تُحِيطُ بِهِ سُبحَانَهُ، فَإِمَّا أَنْ تَقولُوا: إِنَّ السَّمَاءَ تُحيطُ بِهِ وَهُوَ فِيهَا، وَإِمَّا أَنْ تُنكِروا أَنَّ يَكُون فِي السَّمَاءِ.

* **الجَوَابُ عَن هَذَا بِأَحَدِ وَجهَينِ:**

الأَوَّلُ: إمَّا أنْ يَكُون قَولُهُ: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ بِمَعنَىٰ «عَلَىٰ»، و«فِي» تَأتِي بِمعنَىٰ «عَلَىٰ» كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام:١١]، يَعنِي: عَلَىٰ الأرضِ، وقَولِهِ: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه:٧١]، يَعنِي: عَلَيهَا، وإذَا جَعَلتَ «فِي» بِمعنَىٰ «عَلَىٰ» زَالَ الإشكَالُ؛ فَيكونُ اللهُ فَوقَ السَّمَاءِ.

الثَّانِي: أنَّ المُرادَ بِالسَّمَاءِ: العُلُوُّ؛ لأنَّ السَّمَاءَ فِي اللغَةِ العَرَبِيةِ كُلُّ مَا عَلَا فَأظَلَّ، فَكُلُّ مَا عَلَا فَوقَ فَهُوَ سَمَاءٌ، حَتَّىٰ السَّقفُ سَماءٌ بِالنِّسبَةِ لَنَا، فَيَكُونُ: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: مَن فِي العُلُوِّ.

فَإذَا قَالَ قَائِلٌ: أرونَا شَاهِدًا عَلَىٰ أنَّ السَّمَاءَ بِمعنَىٰ العُلوِّ.

فَالجَوَابُ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد:١٧]، وَالمَاءُ نَازِلٌ مِنَ السَّحَابِ وهُوَ مُسَخَّرٌ بَينَ السَّمَاءِ وَالأرضِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة:١٦٤]، فَتبَيَّنَ أنَّ السَّمَاءَ بِمعنَىٰ العُلوِّ.

وَعَلَىٰ هَذَا فَنَقولُ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: مَن فِي العُلوِّ المُطلَقِ الذِي لَا يَكُونُ مَعَهُ أحَدٌ، فَهُوَ الظَّاهِرُ الذِي لَيسَ فَوقَهُ شَيءٌ.

أمَّا قَولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞ﴾ [الزخرف:٨٤]، فَمِنَ المَعلُومِ أنَّ الشَّخصَ الوَاحِدَ لَا يَكُون فِي مَكَانَينِ فِي آنٍ وَاحِدٍ، هَذَا مُستَحِيلٌ،

وَلَكِن مَعنَىٰ قَولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾، هُوَ كَقَولِكَ: فُلانٌ أمِيرٌ فِي مَكَّةَ وَأمِيرٌ فِي المَدِينَةِ، يَعنِي: إمرَتُهُ فِي هَذَا وَفِي هَذَا، وأمَّا مَكانُهُ فَفِي وَاحِدَةٍ مِنهُمَا، إمَّا فِي مَكَّةَ وإمَّا فِي المَدِينَةِ.

وَيَعنِي كَذَلِكَ: هُوَ إلَهُ مَن فِي السَّمَاءِ وَإلَهُ مَن فِي الأرضِ، وَهَذَا وَاضِحٌ، مَا قَالَ فِي السَّماءِ فَقَط، وَمَا قَالَ فِي الأرضِ فَقَط.

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:٣]، الجَوَابُ عَلَىٰ هَذِهِ الآيَةِ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: إمَّا أنْ نَجعَلَ ﴿ٱللَّهُ﴾ مُتعلِّقًا بِهَا، ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾، فَتكُونُ كَقَولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ أي: أنَّهُ مَألُوهٌ فِي السَّموَاتِ وَمَألُوهٌ فِي الأرضِ، وَعَلَىٰ هَذَا يَكُونُ جَارٌّ ومَجرورٌ ومَعطُوفٌ مُتَعلِّقًا بِلَفظِ الجَلالَةِ.

الوَجهُ الثَّانِي: أنْ نَقولَ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وَنَقِفُ، ثُمَّ نَستَأنِفُ ونَقُولُ: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾، وَيَكونُ جَلَالُ الآيَةِ وَعَظَمَتُهَا أنَّهُ مَعَ كَونِهِ فِي السَّمَوَاتِ فَإنَّهُ يَعلَمُ سِرَّكُم وجَهرَكُم فِي الأَرضِ، فَلَيسَ عُلُوُّهُ فِي السَّمَوَاتِ بِمَانِعٍ مِن عِلمِهِ بِسرِّكُم وجَهرِكُم فِي الأرضِ، وبِهَذَا تَلتَئِمُ الأدِلَّةُ وَيَبقَىٰ العُلوُّ الذَّاتِيُّ ثَابِتًا بِخَمسَةِ أدِلَّةٍ، وَأدِلَّةُ القُرآنِ وَالسُّنَّةِ لَا تُحصَىٰ.

أهلُ السُّنَّةِ استَدَلُّوا عَلَىٰ عُلوِّ اللهِ -تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ- عُلوًّا ذَاتيًّا بِالكِتَابِ وَالسُّنَّة والإجمَاعِ وَالعَقلِ وَالفِطرَةِ، وَقَد مَرَّت.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، وَقَالَ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، فَهَذَا يَدلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ لَيسَ لَهُ مَكانٌ، وَإِذَا كَانَت هَذِهِ المَخلُوقَاتُ وَهِيَ مَخلُوقَةٌ بِهَذِهِ السَّعَةِ وَهَذِهِ العَظَمَةِ، فَكَيفَ بخَالِقِهَا سُبحَانَهُ؟!

فَالجَوَابُ: نَعَم، إنْ قُلتُم لَيسَ لَهُ مَكانٌ يُحِيطُ بِهِ فَهَذَا صَحِيحٌ، وإنْ قُلتُم لَيسَ لَهُ مَكَانٌ؛ أي: أَنَّهُ لَيسَ فَوقَ كُلِّ شَيءٍ فَهَذَا بَاطِلٌ.

وَالذِينَ قَالُوا: إنَّ اللهَ فِي كُلِّ مَكَانٍ استَدَلُّوا بِقولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة:٧]. وَفِي الآيَةِ الأخرَىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤].

وَالجَوَابُ: نَقولُ: إذَا أثبَتُّمُ المَعِيَّةَ الذَّاتِيَّةَ نَفَيتُم بِذَلِكَ أدِلَّةَ العُلوِّ؛ لأنَّ كَونَهُ عَالِيًا عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ يَمنَعُ أَنْ يَكُون مَعَ كُلِّ شَيءٍ فِي مَكَانِهِ.

إذَن نَقولُ: أخَذتُم بَعضَ النُّصُوصِ وتَرَكتُم بَعضَهَا، وَإِذَا قُلتُم: هُوَ مَعنَا مَعَ عُلوِّهِ، فَمَاذَا يَكونُ؟

الجَوَابُ: هَذَا هُوَ المُطَابِقُ لِلآيَاتِ، وَالمَعِيَّةُ لَا تَمنَعُ العُلوَّ أبدًا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: تَنَطَّعتُم عِندَمَا قُلتُم: إنَّ اللهَ عَلِيٌّ بِذَاتِهِ؛ فَمَا الذِي جَعلَكُم تَقولُونَ: (بِذَاتِهِ)، وَقَد قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٠).

فَالجَوَابُ: إنَّنَا لَم نَتَنَطَّعْ، وَلَكِنَّنَا أَرَدنَا أَنْ نَدفَعَ قَولَ سُوءٍ، وَهُو قَولُ الذِينَ يَقولُونَ: إنَّ اللهَ لَيسَ عَلِيًّا بِذَاتِهِ، نَقولُ: بَل هُوَ عَليٌّ بِذَاتِهِ، وَلَولَا أَنَّهُم أحوَجُونَا إِلَىٰ هَذَا القَولِ مَا قُلنَاهُ، ولَاقتَصرنَا عَلَىٰ قِرَاءَةِ القُرآنِ وَالحَدِيثِ، وَلَم نَزِدْ حَرفًا وَاحِدًا.

وَالآنَ قَد تَبَيَّنَ أنَّ اللهَ تَعَالَىٰ عَالٍ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ عَلَىٰ جَمِيعِ الخَلقِ.

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾، ﴿ٱلْعَلِيُّ﴾ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ، وَالصِّفَةُ المُشَبَّهَةُ تَدُلُّ عَلَىٰ الثُّبوتِ والاستِمرَارِ وَالوَصفِ الثَّابِتِ المُستَقِرِّ، فَهُوَ العَليُّ عُلوًّا لَازِمًا ذَاتِيًّا، وَلِهَذَا كَانَ عُلوُّهُ عَلَىٰ جَمِيعِ الخَلقِ مِن صِفَاتِهِ الذَّاتِيةِ اللازِمَةِ، حَتَّىٰ لَو قُلنَا: إنَّهُ يَنزِلُ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنيَا، ذَلِكَ لَا يُنَافِي عُلوَّهُ، لأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ. ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ يَعنِي: ذَا العَظَمَةِ التِي لَا أعظَمَ مِنهَا، فَلا أعظَمَ مِنهُ فِي سُلطَانِهِ ومُلكِهِ وقَهرِهِ وغَيرِ ذَلِكَ.

قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨]، ﴿ٱلْقَاهِرُ﴾ الغَالِبُ، ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ فَوقِيَّةٌ مَعنَوِيَّةٌ وذَاتِيةٌ.

* * *

الإيمانُ بالاستِوَاءِ عَلَى حَقِيقَتِه بِدونِ تَأوِيلٍ ولا تَشبِيهٍ

وَنُؤمِنُ بِأَنَّهُ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس:٣]، وَاستِواؤهُ عَلَىٰ العَرشِ: عُلُوُّهُ عَلَيهِ بِذَاتِهِ؛ عُلوًّا خَاصًّا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وعَظَمَتِهِ، لَا يَعلَمُ كَيفِيَّتَهُ إِلَّا هُو.

العُلُوُّ العَامُّ مِنَ الصِّفَاتِ الذَاتِيةِ التِي لَم يَزَلِ اللهُ وَلَا يَزَالُ مُتَّصِفًا بِهَا، أمَّا العُلُوُّ الخَاصُّ فَهُوَ الاستِوَاءُ عَلَىٰ العَرشِ، وَالاستِوَاءُ صِفَةٌ فِعليةٌ ثَابِتَةٌ للهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ كَسَائِرِ صِفَاتِهِ -جَلَّ وَعَلَا-.

وَمَعنَىٰ **استَوَىٰ عَلَىٰ العَرشِ**: هُوَ الاعتِقَادُ الجَازِمُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ فَوقَ سَمَواتِهِ مُستَوٍ عَلَىٰ عَرشِهِ، استَوَاءً يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعظَمَتِهِ، عَلِيٌّ عَلَىٰ خَلقِهِ، بَائِنٌ مِنهُم، مُحيطٌ بِكُلِّ شَيءٍ.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وَمُدَّةُ هَذِهِ الأَيَّامِ كَأَيَّامِنَا التِي نَعرِفُ؛ لأنَّ اللهَ ﷻ

- ذَكرَهَا مُنكَّرةً، أَوَّلُهَا الأَحَدُ، وآخِرُهَا الجُمُعَةُ، وَهِيَ هَذِهِ الأَيَّامُ المَعروفَةُ، وَهَذِهِ الأَيَّامُ بِالتَّقدِيرِ؛ أي: بِمقدَارِ يوم وَيوم وَيوم وَيوم وَيوم وَيوم، سِتَّةِ أَيَّامٍ.

الفَرقُ بينَ الخَلقِ والأَمرِ: الخَلقُ تَنشَأ عَنهُ المَخلُوقَاتِ، وَالأمرُ تَنشَأ

عَنهُ الشَّرَائِعُ والمَأمورَاتُ، وَيَمْتَنِعُ تماًمًا أنَّهُمَا شَيءٌ وَاحِدٌ.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: بَعدَ خَلقِ السَّمَوَاتِ وَالأرضِ استَوَىٰ عَلَىٰ العَرشِ.

*** فَهَل قَبلَ ذَلِكَ كَانَ مُستَوِيًا عَلَىٰ العَرشِ أوْ لَا؟**

الجَوَابُ: إنْ قُلنَا: لَا، أخطَأنَا، وَإنْ قُلنَا: نَعَم، أخطَأنَا؛ لأنَّ اللهَ أخبَرَنَا أنَّهُ استَوَىٰ بَعدَ خَلقِ السَّمَوَاتِ وَالأرضِ عَلَىٰ العَرشِ، وَسَكَتَ عَمَّا قَبلَ ذَلِكَ، فَالوَاجِبُ عَلَينَا السُّكوتُ، وَأنْ نَقُولَ: اللهُ أعلَمُ.

وَقَالُوا: استَوَىٰ عَلَىٰ العَرشِ؛ أي: عَلَا عَلَيهِ.

*** وَاعلَم أنَّ (استَوَىٰ) تَأتِي فِي اللغَةِ عَلَىٰ أربَعَةِ أوجُهٍ وَهِيَ:**

١- **مُطلَقَةٌ**: وَمَعنَاهَا الكَمَالُ، كَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤]، أي: كَمُلَ خَلقُهُ وَعَقلُهُ.

٢- **وَمُقَيَّدَةٌ بـ «عَلَىٰ»**: وَتَكونُ بِمعنَىٰ العُلُوِّ، كَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يونس:٣]، أي: استَقَرَّ وَعَلَا وَارتَفَعَ وصَعِدَ.

٣- **وَمُقَيَّدَةٌ بـ «إلَىٰ»**: وَتَكونُ بِمعنَىٰ القَصدِ، كَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:١١]، عَلَىٰ أحَدِ القَولَينِ.

٤- **وَمَقرونَةٌ بِالوَاوِ**: وَتَكونُ بِمعنَىٰ التَّسَاوِي، كَقَولِ النَّحوِيِّينَ: استَوَىٰ المَاءُ والخَشَبَةَ؛ أي: تَسَاوَىٰ المَاءُ مَعَ الخَشَبَةِ التِي تَكُونُ عَلَىٰ البِئرِ.

العُلوُّ العَامُّ: هُوَ عُلوُّ اللهِ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ مِن السَّمَوَاتِ وَالأرضِ وَالجِبَالِ وَالآدَمِيِّ وَغَيرِ ذَلِكَ.

وَالعُلوُّ الخَاصُّ: استِواؤُهُ عَلَىٰ العَرشِ، وَلِهَذَا لَا يَحِلُّ أنْ نَقُولَ: إنَّ اللهَ استَوَىٰ عَلَىٰ المَاءِ أو عَلَىٰ المَخلوقَاتِ، بَل نَقولُ: استوَىٰ عَلَىٰ العَرشِ خَاصَّةً.

قَالَ الإمَامُ مَالكٌ فِي استِوَاءِ اللهِ عَلَىٰ عَرشِهِ: الاستِوَاءُ غَيرُ مَجهُولٍ، وَالكَيفُ غَيرُ مَعقُولٍ، والإيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، والسُّؤالُ عَنهُ بِدعَةٌ.

«**الاستِوَاءُ غَيرُ مَجهُولٍ**»: فَكلُّ إنسَانٍ يَعرِفُ بِالفِطرَةِ السَّليمَةِ مَعنَىٰ الاستَوَاءِ، وَيَعرِفُ أنَّهُ استَواءٌ يَليقُ بِجَلَالِهِ.

«**الكَيفُ غَيرُ مَعقولٍ**»: يَعنِي لَا يُدرِكُهُ العَقلُ، فَإذَا لَم يُدرِكهُ العَقلُ صَارَ مَرجِعُهُ إلَىٰ السَّمعِ، وإذَا لَم يَرِدْ بِهِ السَّمعُ فَالعَقلُ يُوجِبُ التَّوقُّفَ.

«**الإيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ**»: أي: بِالاستِوَاءِ عَلَىٰ أنَّهُ غَيرُ مَجهولٍ، وأنَّ العُلوَّ والإيمَانَ بِهِ وَاجِبٌ، لأنَّهُ جَاءَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنةِ.

«**السُّؤالُ عَنهُ بِدعَةٌ**»: أَي: عَن الاستِوَاءِ، وَالمُرَادُ :عَن كَيفِيَّتِهِ؛ فَالسُّؤَالُ بِدعَةٌ، وذَلِكَ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ السُّؤالَ عَنهُ سُؤالُ دِينٍ وَعَقِيدَةٍ، وَلَم يَرِدْ عَنِ الصَّحَابَةِ ﭫ، فَمَا مِنهُم أحدٌ سَأَلَ النَّبيَّ ﷺ عَن كَيفِيَّةِ الاستِوَاءِ مَعَ شِدَّةِ حِرصِهِم

عَلَىٰ مَا يَتعَلَّقُ بِرَبِّهِم ﷻ، وَمَعَ وجُودِ المُجِيبِ بِالتَّأكِيدِ وَهُوَ الرَّسُولُ ﷺ.

فَإِذَا كَانَ السَّبَبُ مَوجُودًا وَالمَانِعُ مَفقُودًا، لَزِمَ مِنهُ وجُودُ الشَّيءِ؛ لَكِن لَم يَسأَلُوا عَنهُ، وَذَلِكَ لأَدَبِهِم مَعَ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَعِلمِهِم بِأَنَّ هَذَا الأَمرَ لَا يُمكِنُ الوصُولُ إِلَيهِ.

الوَجهُ الثَّانِي: أَنَّ السُّؤَالَ عَنهُ مِن سِمَاتِ أَهلِ البِدَعِ، فَلَا أَحَدَ يَسأَل عَن الكَيفِيَّةِ إِلَّا وهُوَ مُبتَدِعٌ.

❊ ❊ ❊

قَولُ أهْلِ البِدَعِ فِي الاستِواءِ

أهلُ البِدَعِ يَقولُونَ فِي الاستِوَاءِ: إِنَّهُ بِمعنَىٰ استَولَىٰ وَمَلك وقَهَرَ، وهَذِهِ صِفَةٌ مَعنَويَّةٌ ولَيسَت فِعلِيَّةً، فَيقُولُونَ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: مَلكَهُ وقَهَرَهُ، **ولَا شَكَّ أنَّ قَولَهُم بَاطِلٌ مِن عِدَّةِ وجُوهٍ:**

أولًا: أنَّ قَولَهُم مُخَالِفٌ لِظَاهِرِ اللَّفظِ. وَمَا كَانَ ظَاهِرَ اللفظِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَجوزُ العُدولُ عَنهُ إلَّا بِدَلِيلٍ، خَاصَّةً فِي الأمورِ الغَيبيةِ.

ثَانِيًا: أَنَّهُ خِلافُ إجمَاعِ السَّلَفِ، فَمَا مِن أحَدٍ مِنَ السَّلفِ قَالَ: استَوَىٰ؛ أي: مَلَكَ وَقَهَرَ.

ثَالِثًا: أَنَّهُ يَلزَمُ عَلَيهِ لَوَازِمُ بَاطِلَةٌ؛ مِنهَا:

١- أنْ يَكُون العَرشُ مِلكًا لِغَيرِ اللهِ، ثُمَّ مَلَكَهُ بِالمُغَالَبَةِ، وَأنَّ هَذَا الاستِيلَاءَ لَم يَكُن إلَّا بَعدَ خَلقِ السَّمَوَاتِ وَالأرضِ.

٢- أنَّنَا إذَا قُلنَا: (استَوَىٰ) بِمعنَىٰ (استَولَىٰ)؛ جَازَ لَنَا أنْ نَقولَ: إنَّ اللهَ ﷻ استَوَىٰ عَلَىٰ الأرضِ لأنَّهُ مُستَولٍ عَلَيهَا.

٣- هَذَا مُخَالِفٌ لِلُّغَةِ العَرَبِيةِ مِثلَمَا أَنَّهُ مُخَالِفٌ لِظَاهِرِ اللفظِ، فَلَم يَأتِ (استَوَىٰ) بِمعنَىٰ (استَولَىٰ) أبَدًا.

فَائِدَتَانِ:

١- العُلوُّ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّاتِيةِ، فَلَا يُمكِنُ أنْ يَنفَكَّ اللهُ تَعَالَىٰ عَنهُ أَبَدًا.

٢- الاستِوَاءُ عَلَىٰ العَرشِ عُلوٌّ خَاصٌّ.

قَالَ العَلَّامَةُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

أُمِرَ اليَهُودُ بِأَنْ يَقولُوا حِطَّةٌ ... فَأَبَوا وَقَالُوا حِنْطَةٌ لِهَوَانِ
وَكَذَلِكَ الجَهْمِيُّ قِيلَ لَهُ: استَوَىٰ ... فَأَبَىٰ وَزَادَ الحَرْفَ لِلنُّقصَانِ
قَالَ: استَوَىٰ استَولَىٰ وَذَا مِن جَهلِهِ ... لُغَةً وَعَقْلًا مَا هُمَا سِيَّانِ
نُونُ اليَهُودِ وَلَامُ جَهمِيٍّ هُمَا ... فِي وَحْيِ رَبِّ العَرشِ زَائِدَتَانِ
وَكَذَلِكَ الجَهمِيُّ عَطَّلَ وَصْفَهُ ... وَيَهُودُ قَدْ وَصَفُوهُ بِالنُّقْصَانِ
فَهُمَا إذَنْ فِي نَفْيِهِم لِصِفَاتِهِ الْـ ... ـعُلْيَا كَمَا بَيَّنْتُهُ أَخَوَانِ

❊ ❊ ❊

الإيمانُ بِصِفَتَي العُلُوِّ وَالْمَعِيةِ

وَنُؤمِنُ بِأنَّهُ تَعَالَىٰ مَعَ خَلقِهِ وَهُوَ عَلَىٰ عَرشِهِ، يَعلَمُ أحوَالَهُم وَيَسمَعُ أقوَالَهُم ويَرَىٰ أفعَالَهُم ويُدَبِّرُ أمُورَهُم، يَرزُقُ الفَقِيرَ وَيَجبُرُ الكَسِيرَ، يُؤتِي المُلكَ مَن يَشَاءُ، وَيَنزِعُ المُلكَ مِمَّن يَشَاءُ وَيُعِزُّ مَن يَشَاءُ، وَيُذِلُّ مَن يَشَاءُ، بِيَدِهِ الخَيرُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، وَمَن كَانَ هَذَا شَأنَهُ كَانَ مَعَ خَلقِهِ حَقِيقَةً، وإنْ كَانَ فَوقَهُم عَلَىٰ عَرشِهِ حَقِيقَةً: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١].

«وَنُؤمِنُ بِأنَّهُ تَعَالَىٰ مَعَ خَلقِهِ وهُوَ عَلَىٰ عَرشِهِ»: لَمَّا ذَكَرْنَا عُلوَّهُ ﷻ الذَّاتِيَّ، وَالوَصفِيَّ، وَذَكَرْنَا استَواءَهُ عَلَىٰ العَرشِ، وَهُوَ عُلوُّهُ عَلَىٰ عَرشِهِ ﷻ عَلَىٰ صِفَةٍ لَا يَعلَمُهَا إلَّا اللهُ، كَانَ عَلَينَا أنْ نَذكُرَ المَعِيَّةَ؛ وذَلِكَ لأنَّ الإنسَانَ قَد يُشْكِلُ عَلَيهِ الجَمعُ بَينَ العُلوِّ وَالمَعِيةِ، وَكَذَلِكَ القُربُ.

وَتَقرِيرُ ذَلِكَ أنَّ المَعِيَّةَ فِي اللغَةِ العَرَبِيَّةِ تَقتَضِي المُصَاحَبَةَ، وَهَذِهِ المُصَاحَبَةُ تَختَلِفُ بِاختِلَافِ مَوَارِدِهَا، وَبِحسَبِ القَرَائِنِ والسِّيَاقِ، لَكِن لَا يَلزَمُ الاختِلَاطُ وَالالتِصَاقُ وَالحُلُولُ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ.

الجَمْعُ بَيْنَ العُلُوِّ وَالْمَعِيَّةِ

الجَمْعُ بَيْنَ العُلُوِّ وَالمَعِيَّةِ مِنْ وُجُوهٍ ثَلَاثَةٍ:

١- أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ وَصَفَ نَفسَهُ بِهِمَا؛ بِأَنَّهُ عَالٍ وَبِأَنَّهُ مَعَنَا، وَلَا يُمكِنُ أنْ يَجمَعَ اللهُ لِنَفسِهِ بَينَ شَيئَينِ مُتَنَاقِضَينِ أَبَدًا؛ فَالجَمعُ بَينَهُمَا يَدلُّ عَلَىٰ إِمكَانِ اجتِمَاعِهِمَا؛ لأَنَّ المُتَنَاقِضَينِ لَا يُمكِنُ اجتِمَاعُهُمَا، فَإِذَا كَانَ اللهُ قَد جَمَعَ بَينهُمَا لِنفسِهِ دَلَّ عَلَىٰ عَدَمِ التَّنَاقُضِ.

٢- أَنَّ العُلُوَّ لَا يُنَافِي المَعِيَّةَ؛ وَلِهَذَا كَانَ مِن أَسَالِيبِ العَرَبِ أَنَّهُم يَقولُونَ: مَا زِلنَا نَسِيرُ وَالقَمَرُ مَعنَا، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَعدُّونَ مَقُولَتَهُم هَذِهِ تَنَاقُضًا.

٣- أَنَّ كَونَ اللهِ ﷻ مَعَ خَلقِهِ حَقِيقَةً وَهُوَ عَلَىٰ عَرشِهِ حَقِيقَةً فَهَذَا لَيسَ فِيهِ تَنَاقُضٌ؛ لأَنَّ هَذَا جَائِزٌ فِي حَقِّ المَخلُوقِ، فَفِي حَقِّ الخَالِقِ مِن بَابِ أَولَىٰ، وَعَلَىٰ فَرضِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ فِي حَقِّ المَخلُوقِ فَإِنَّهُ جَائِزٌ فِي حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ، لأَنَّهُ تَعَالَىٰ لَا يُقَاسُ بِخلقِهِ.

مَعيةُ اللهِ تَعَالَىٰ لِخلقِهِ تَنقَسِمُ إِلَىٰ قِسمَينِ: عَامَّةٍ، وخَاصَّةٍ.

المَعِيةُ العَامَّةُ المُطلَقَةُ: هِيَ التِي تَشمَلُ كُلَّ أحدٍ مِن مُؤمِنٍ وَكَافِرٍ، وَبَرٍّ

وفَاجِرٍ، ودَلِيلُهَا: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤].

وَهِيَ تَستَلزِمُ الإحَاطَةَ بِالخَلقِ؛ عِلمًا وَقُدرَةً وَسَمعًا وبَصَرًا وسُلطَانًا، وَغَيرَ ذَلِكَ مِن مَعَانِي رُبُوبِيتِهِ -جَلَّ وعَلَا-.

وَتَكونُ فِي سِياقِ التَّخويفِ وَالمُحَاسَبَةِ، وَالحَثِّ عَلَىٰ المُرَاقَبَةِ.

وَهِيَ صِفَةٌ ذَاتِيةٌ لأَنَّ اللهَ لَم يَزَل وَلَا يَزَالُ مُحِيطًا بِالخَلقِ؛ عِلمًا وَقُدرَةً وَسُلطانًا وسَمعًا وبَصَرًا.

المَعِيةُ الخَاصَّةُ قِسمَانِ: مُقَيدَةٌ بِوَصفٍ، ومُقَيدَةٌ بِشَخصٍ.

وَهِيَ تَستَلزِمُ النَّصرَ وَالتَّأيِيدَ وَالحِفظَ وَالتَّوفِيقَ وَالحِمَايَةَ مِنَ المَهَالِكِ مَعَ مَا تَستَلزِمُهُ المَعِيَّةُ العَامَّةِ.

وَالمَعِيَّةُ الخَاصَّةُ مُرَتَّبَةٌ عَلَىٰ الاتِّصَافِ بِالأوصَافِ الجَمِيلَةِ، وَالأخلَاقِ الحَمِيدَةِ، وَهِيَ صِفَةٌ فِعلِيةٌ لأَنَّهَا تَابِعَةٌ لِمَشِيئَةِ اللهِ -جَلَّ وعَلَا-.

١- **المَعِيةُ الخَاصَّةُ المُقَيدَةُ بِوَصفٍ:** كَقولِ رَبِّنَا -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨].

٢- **المَعِيةُ الخَاصَّةُ المُقَيدَةُ بِشَخصٍ:** كَقَولِهِ تَعَالَىٰ عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠].

وَكَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ لِمُوسَىٰ وَهَارونَ: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]. فَهَٰذِهِ مَعيَّةٌ خَاصَّةٌ مُقَيدَةٌ بِشَخصٍ.

أثَرُ الإيمانِ بِأنّ اللهَ تَعَالَى مَعَنا

إِذَا آمَنتَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ مَعَكَ يَعلَمُكَ وَيُشَاهِدُكَ، ولَا يَخفَىٰ عَلَيهِ شَيءٌ مِن أحوَالِكَ؛ فَإِنَّهُ يَقوَىٰ خَوفُكَ مِنَ اللهِ ﷻ، حِينئذٍ يَتِمُّ لَكَ مُرَاقَبَةُ اللهِ ﷻ؛ لأَنَّكَ لَو كُنتَ فِي حُجرَةٍ مُظلِمَةٍ لَيسَ عِندَكَ أحدٌ، تَقولُ: اللهُ ﷻ مَعِي وَهُوَ عَلَىٰ عَرشِهِ، فَتَخشَاهُ وتَخَافُهُ، وَلَا تَفعَلُ شَيئًا يُغضِبُهُ.

فَإِذَا أحسَنْتَ وَاستَقَمتَ وَكُنتَ مِنَ الصَّالِحِينَ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ مَعَ المُحسِنِينَ، بِنَصرِهِ وَتَأيِيدِهِ، وَحِفظِهِ وَتَوفِيقِهِ، وَحِمَايَتِهِ لِعَبدِهِ مِنَ المَهَالِكِ وَالشُّرورِ، وَنَصرِهِ لَهُ عَلَىٰ أعدَائِهِ مِنْ شَيَاطِينِ الإنْسِ وَالجِنِّ، وَهَذَا كُلُّهُ رِضْوَانٌ مُعَجَّلٌ، وَنَعِيمٌ عَظِيمٌ.



مُقتَضَيَاتُ المَعِيَّةِ وَمُستَلزَمَاتُهَا

إنَّ اللهَ تَعَالَىٰ مَعَ خَلْقِهِ، وَهُوَ عَلَىٰ عَرشِهِ، يَعلمُ أحوَالَهُم، ويَسمَعُ أقوَالَهُم، ويَرَىٰ أفعَالَهُم، ويُدَبِّرُ أمورَهُم، يَرزُقُ الفَقِيرَ، ويَجبُرُ الكَسِيرَ، يُؤتِي المُلكَ مَن يَشَاءُ، ويَنزِعُ المُلكَ مِمَّن يَشَاءُ، ويُعزُّ مَن يَشَاءَ، ويُذِلُّ مَن يَشَاءُ، بيدِهِ الخَيرُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، وَمَن كَانَ هَذَا شَأنَهُ كَانَ مَعَ خَلقِهِ حَقِيقَةً، وإنْ كَانَ فَوقَهُم عَلَىٰ عَرشِهِ حَقِيقَةً، ولَا مَانِعَ، وَلَيسَ فِي هَذَا تَنَاقُضٌ، ولَا أيُّ وَصفٍ لَا يَلِيقُ بِاللهِ.

بَل الذِي لَا يَليقُ بِاللهِ تَعَالَىٰ؛ أنْ نَفهَمَ أنَّ المَعِيةَ الاختِلاطُ وَالحُلولُ فِي المَكَانِ، كَمَا قَالَتِ الجَهمِيةُ، وَلِهَذَا لَمَّا ظَهَرَ هَذَا القَولُ المُبتَدَعُ الضَّالُّ، صَارَ السَّلَفُ يَقُولُونَ: هُوَ مَعَنَا بِعلمِهِ، فَفسَّروا المَعِيةَ بِلَازِمِهَا وَهُوَ العِلمُ؛ عَلَىٰ أنَّ لَازِمَ المَعِيةِ لَيسَ العِلمَ فَقَط، بَل هُوَ مَعَنَا بِعلمِهِ، وَسمعِهِ، وبَصَرِهِ، وسُلطَانِهِ، وقُدرَتِهِ، ورُبوبِيَّتِهِ، وغَيرِ ذَلِكَ مِن مَعَانِي الرُّبُوبِيَّةِ.

❊ ❊ ❊

بَيَانُ كُفرِ مَن قَالَ بِقَولِ الحُلُولِيَّةِ

«وَلَا نَقولُ كَمَا تَقولُ الحُلولِيَّةُ مِنَ الجَهمِيَّةِ وَغَيرِهِم: إِنَّهُ مَعَ خَلقِهِ فِي الأرضِ». فَالجَهمِيةُ يَقولُونَ: إنَّ اللهَ حَالٌّ مَعَ خَلقِهِ فِي الأرضِ.

«وَنَرَىٰ أنَّ مَن قَالَ ذَلِكَ»: حَسبَمَا تَقتَضِيهِ الحَالُ؛

«فَهُوَ كَافِرٌ»: إنْ بَلَغَتهُ الحُجَّةُ؛ فَهَذَا مُستَحِيلٌ عَلَىٰ اللهِ، وَنَقصٌ فِي حَقِّهِ.

«أو ضَالٌّ»: إنْ لَم يَكُن كَذَلِكَ.

«لأنَّهُ وَصَفَ اللهَ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ النَّقَائِصِ».

ثُمَّ اعلَم أنَّ مُقتَضَىٰ المَعِيةِ عَامٌّ وخَاصٌّ؛ فَإذَا كَانَ المَقصُودُ بِذَلِكَ بَيانَ إحَاطَةِ اللهِ ﷻ بالخَلقِ، فَهِيَ مَعيةٌ عَامَّةٌ، وَتَكونُ المَعِيةُ لِلتَّهدِيدِ، وَالمَقصودُ تَهدِيدُ هَؤلَاءِ وَوَعِيدُهُم، وَقَد يَكُون المُرَادُ مِنهَا النَّصرَ وَالتَّأييدَ، وَهَذِهِ قَد تُقَيَّدُ بِوَصفٍ وَقَد تُقَيَّدُ بِشَخصٍ، فَمَن كَانَ مُتقِيًا مُحسِنًا كَانَ اللهُ مَعَهُ، وَمَن كَانَ صَابِرًا كَانَ اللهُ مَعَهُ، وَقَد تُقَيَّدُ بِشَخصٍ مُعَينٍ.

*** الرَّدُّ عَلَىٰ مَن قَالُوا بِالحُلولِ:**

أوَلًا: قَولُهُم: إنَّ هَذَا هُوَ ظَاهِرُ اللَّفظِ.

وَالرَّدُّ عَلَيهِم: أنَّ ظَاهِرَ النَّصِّ لَيسَ كَمَا ذَكَرُوا، إذْ لَو كَانَ الظَّاهِرُ كَمَا

ذَكَرُوا لَكَانَ فِي الآيَةِ تَنَاقُضٌ: «أَنْ يَكُونَ مُستَوِيًا عَلَىٰ عَرشِهِ، وَمَعَ كُلِّ إنسَانٍ فِي كُلِّ مَكَانٍ»، والتَّنَاقُضُ فِي كَلَامِ اللهِ تَعَالَىٰ مُستَحِيلٌ.

ثَانِيًا: قَولُهُم: إنَّ المَعِيةَ لَا تُعقَلُ إلَّا مَعَ المُخَالَطَةِ، أو المُصَاحَبَةِ فِي المَكَانِ.

وَالرَّدُّ عَلَيهِم: هَذَا مَردُودٌ؛ فَالمَعِيَّةُ فِي اللُّغَةِ اسْمٌ لِمُطلَقِ المُصَاحبَةِ، وَقَد تَقتَضِي الاختِلَاطَ، وَقَد تَقتَضِي المُصَاحَبَةَ فِي المَكَانِ، وَقَد لَا تَقتَضِي الاختَلاطَ، وَلَا المُشَارَكَةَ فِي المَكَانِ، مِثلُ: القَائِدِ مَعَ جُنُودِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي غُرفَةِ القِيَادَةِ، لَكِنْ يُوَجِّهُهُم، فَهَذَا لَيسَ فِيهِ اختِلَاطٌ وَلَا مُشَارَكَةٌ فِي المَكَانِ.

ثَالِثًا: وَصفُهُم اللهَ بذَلِكَ مِن أبطَلِ البَاطِلِ، وَأشدِّ التَّنَقُّصِ للهِ ﷻ؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ ذَكَرَ هَذَا عَن نَفسِهِ مُتَمَدِّحًا، أنَّهُ مَعَ عُلُوِّهِ عَلَىٰ عَرشِهِ فَهُوَ مَعَ الخَلقِ وَإنْ كَانُوا أسفَلَ مِنهُ، فَإذَا جَعلتُمُ اللهَ ﷻ فِي الأرضِ فَهَذَا نَقصٌ.

رَابِعًا: يَلزَمُ عَلَىٰ قَولِهِم أحَدُ أمرَينِ لَا ثَالِثَ لَهُمَا وَكِلَاهُمَا مُمتَنِعٌ:

١ - إمَّا أنْ يَكُونَ اللهُ ﷻ مُتَجَزِّئًا، كُلُّ جُزءٍ مِنهُ فِي مَكَانٍ.

٢ - وَإمَّا أنْ يَكُون مُتَعدِّدًا، كُلُّ إلَهٍ فِي جِهَةٍ، لِضَرورَةِ تَعدُّدِ الأمكِنَةِ -تَعَالَىٰ اللهُ عَن ذَلِكَ عُلوًّا كَبِيرًا-.

خَامِسًا: قَولُهُم هَذَا يَستَلزِمُ أنْ يَكُون اللهُ حَالًّا فِي الخَلقِ، وصَارَ هَذَا سُلَّمًا لِقَولِ أهلِ وحدَةِ الوجُودِ.

الإيمَانُ بِأن اللهَ يَنزِلُ إلَى السمَاءِ الدنيَا كُل لَيلَةٍ فِي الثلثِ الأخِيرِ منَ الليلِ

«وَنُؤمِنُ بِمَا أخبَرَ بِهِ عَنهُ رَسُولُهُ ﷺ أَنَّهُ يَنزِلُ كُلَّ لَيلَةٍ إلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنيَا حِينَ يَبقَىٰ ثُلُثُ الليلِ الأخِيرُ فَيقُولُ: «مَن يَدعُونِي فَأستَجِيبَ لَهُ؟، مَن يَسألُنِي فَأعطِيَهُ؟ مَن يَستَغفِرنِي فَأغفِرَ لَهُ؟ [1]».

فِي الحَدِيثِ إثبَاتُ صِفَةِ النُّزولِ الإلَهيِّ نُزولًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، نُؤمِنُ بِهِ وَلَا نُشَبِّهُهُ بِنزُولِ المَخلُوقِ؛ لأنَّهُ سُبحَانَهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وَهُوَ مِن صِفَاتِ الأفعَالِ، وَفِيهِ أيضًا إثبَاتُ العُلوِّ للهِ ذِي الجَلالِ؛ لأنَّ النُّزولَ إنَّمَا يَكُون مِن العُلوِّ، وَفِيهِ أيضًا الرَّدُّ عَلَىٰ مَن تَأوَّلَ الحَديثَ بِأنَّ مَعنَاهُ نُزولُ رَحمَتِهِ، أو نُزولُ أمرِهِ؛ لأنَّ الأصلَ الحَقِيقَةُ وَعَدمُ الحَذفِ؛ ولأنَّهُ قَالَ: «مَن يَدعُونِي فَأستَجيبَ لَهُ؟»، وَهَل يُعقَلُ أنْ تَقولَ رَحمَتُهُ -جَلَّ وَعَلَا- هَذَا القَولَ؟! أوْ أنْ يَقولَ أمرُهُ هَذَا المَقَالَ؟!

بَلْ إنَّهُ مِن الإحَالَةِ أنْ يَقولَ مَلكٌ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- هَذَا

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

الكَلَامَ: «مَن يَدعُونِي فَأستَجِيبَ لَهُ؟، مَن يَسألُنِي فَأعطِيَهُ؟ مَن يَستَغفِرُنِي فَأغفِرَ لَهُ؟».

وَفِي الحَدِيثِ أيضًا إثبَاتُ صِفَةِ الكَلَامِ للهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- حَيثُ جَاءَ فِيهِ: «فَيقُولُ»، وَفِيهِ إثبَاتُ الإعطَاءِ مِنَ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-: «فَأعطِيَهُ»، وَفِيهِ أيضًا إثبَاتُ الإجَابَةِ «فَأستَجِيبَ لَهُ»، وَفِيهِ إثبَاتُ المَغفِرَةِ «فَأغفِرَ لَهُ»، وَهَذِهِ كُلُّهَا مِن صِفَاتِ الأفعَالِ.

نُؤمِنُ بِقلوبِنَا، ونَعتَقِدُ ذَلِكَ وَأنَّهُ حَقٌّ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ؛ لأنَّ نَبيَّهُ مُحمَّدًا ﷺ -وَهُوَ أعلَمُ النَّاسِ بِهِ وَأصدَقُ النَّاسِ خَبرًا، وَأحسَنُ حَدِيثًا- أخبَرَ بِهِ عَن رَبِّهِ بِأنَّهُ يَنزِلُ كُلَّ لَيلَةٍ إلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنيَا حِينَ يَبقَىٰ ثُلثُ اللَّيلِ الآخِرُ، كَيفَ يَنزِلُ؟ اللهُ أعلَمُ.

«يَنزِلُ» الفِعلُ مُضَافٌ إلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، فَيكُونُ يَنزلُ هُوَ بِنَفسِهِ، وَلَا حَاجَةَ إلَىٰ أنْ نَقُولَ بِذَاتِهِ؛ لأنَّ كُلَّ فِعلٍ أضَافَهُ اللهُ إلَىٰ نَفسِهِ فَهُوَ مَنسُوبٌ إلَيهِ.

«السَّمَاء الدُّنيَا»: الدُّنيَا: يَعنِي القُربَىٰ مِنَ النَّاسِ، وَهِيَ أسفَلُ السَّمَوَاتِ، يَنزِلُ -جَلَّ وَعَلَا- نُزولًا يَلِيقُ بِهِ ﷻ، ولَا يُمكِنُ أنْ نَتَصوَّرَ كَيفِيَتَهُ.

«حِينَ يَبقَىٰ ثُلثُ اللَيلِ الأخِيرُ» يَبتَدِئ اللَّيلُ بِالإجمَاعِ مِن غُروبِ الشَّمسِ، وَأمَّا انتِهَاءُ اللَّيلِ فَقَدْ:

١- قِيلَ بِطلوعِ الفَجرِ.

٢- وَقِيلَ بِطلُوعِ الشَّمسِ.

أمَّا فلَكيًا فإنَّهُ يَنتَهِي بِطلُوعِ الشَّمسِ؛ لأنَّ طُلوعَ الشَّمسِ وغُروبَها هُوَ الفَاصِلُ بَينَ اللَّيلِ والنَّهارِ.

أمَّا إذَا أُرِيدَ اللَّيلُ الشَّرعِي؛ فَإنَّهُ يَنتَهِي بِطلُوعِ الفَجرِ، وَهُوَ الذِي يُحمَلُ عَلَيهِ قَولُ النَّبيِّ ﷺ.

وَقَدْ قَالَ بَعضُ المُتَحذلِقِينَ المُتَعَالِمِينَ: إنَّهُ يَلزَمُ مِن هَذَا أنْ يَكُون اللهُ ﷻ دَائِمًا نَازِلًا فِي السَّمَاءِ الدُّنيَا، لأنَّ ثُلثَ اللَّيلِ الأخِيرَ دَائِمًا مَوجُودٌ يَدورُ عَلَىٰ الأرضِ.

وَنَقولُ: مَا أجهَلَكُم باللهِ وَصِفَاتِهِ ﷻ ! هَلْ تَعتَقِدونَ أنَّ اللهَ يَخفَىٰ عَلَيهِ ذَلِكَ حِينَمَا أخبرَ نَبِيُّهُ عَنهُ بِأنَّهُ يَقُولُ كَذَا وَأقرَّهُ اللهُ عَلَيهِ؟ إنْ قَالُوا: نَعَم، فَقَد كَفَروا، وَهَؤلَاءِ لَا كَلَامَ مَعَهُم حِينئذٍ، وإنْ قَالُوا: بَلَىٰ، نَقولُ: آمِنُوا بِالنَّصِّ كَمَا جَاءَ، وَنَقولُ: النُّزولُ الإلَهيُّ مَوجُودٌ.

وَقُل: مَتىٰ كَانَ ثُلثُ اللَّيلِ الأخِيرُ عَلَىٰ وَجهِ الأرضِ، فَالنُّزولُ الإلَهِي مَوجُودٌ حتَّىٰ إذَا مَا طَلَعَ الفَجرُ فَالنُّزولُ الإلَهِي غَيرُ مَوجُودٍ، والرَّبُّ ﷻ لَا يُقاسُ بِالخَلقِ، فَنُؤمِنُ بِأمُورِ الغَيبِ عَلَىٰ مَا جَاءَتْ، وَلَا نُكَلِّفُ أنفُسَنَا شيئًا يُوجِبُ لَنَا أنْ نُنكِرَ مَا ثَبَتَ.

❋ ❋ ❋

الإيمانُ بِأن اللهَ تَعالى يَأتي يومَ المعَادِ للفصلِ بَينَ العِبادِ

«وَنُؤمِنُ بِأنَّ اللهَ يَأتِي يَومَ المَعَادِ لِلفَصلِ بَينَ العِبَادِ»، نُؤمِنُ بِذَلِكَ ونُصَدِّقُ وَنَجزِمُ بِهِ وَكَأنَّنَا نُشَاهِدُهُ رَأيَ العَينِ؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أخبَرَنَا بِذَلِك، وَثِقَتُنَا بِمَا أخبَرَ اللهُ أبلَغُ مِن ثِقَتِنَا بِمَا نَرَاهُ؛ لأنَّ أعيُنَنَا قَد تَرَىٰ المُتَحرِّكَ سَاكِنًا وَالسَّاكِنَ مُتَحرِّكًا، وَغيرَ ذَلِكَ، لَكِن مَا أخبَرَ اللهُ بِهِ فَهُوَ حَقٌّ.

وَالإتيَانُ وَالمَجِيءُ المُضَافُ إلَىٰ اللهِ سُبحَانَهُ نَوعَانِ: مُطلَقٌ، وَمُقَيدٌ.

فَإذَا كَانَ المُرَادُ مَجيءَ رَحمَتِهِ، أو مَجيءَ عَذَابِهِ، وَنَحوَ ذَلِكَ قُيِّدَ بِذَلِك، أمَّا النَّوعُ الثَّانِي فَهُوَ المَجِيءُ المُطلَقُ فَهَذَا إتيَانُهُ وَمَجِيئُهُ هُوَ سُبحَانَهُ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢]، الخِطَابُ لِلرَّسُولِ، وَلِكُلِّ مَن يَتَأتَّىٰ خِطَابُهُ.

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ يَعنِي: بَعدَ دَكِّ الأرضِ، وَالقَاعِدَةُ أنَّنَا نُؤمِنُ بِالنُّصوصِ عَلَىٰ ظَاهِرِهَا، ونَقولُ: جَاءَ اللهُ نَفسُهُ، ولَكِن عَلَىٰ أيِّ كَيفِيةٍ، اللهُ أعلَمُ.

والأدَبُ مَعَ اللهِ ﷻ بِأنْ نَقُولَ: يَجيءُ بِوجهٍ يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعظَمَتِهِ،

وَلَا نعلَمُ عَن كَيفِيتِهِ شَيئًا.

﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ المُرَادُ الجِنسُ، فَيَشمَلُ جَمِيعَ المَلَائِكَةِ؛ لأنَّ الذِي وَرَدَ أنَّ مَلَائِكَةَ السَّمَاءِ الدُّنيَا تَنزِلُ، وتُحِيطُ بِالخَلقِ ثُمَّ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ الثَّانِيةِ تُحِيطُ بِالجَميعِ، ثُمَّ مَلائِكَةُ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، وَكُلَّمَا اتَّسَعَتِ الدَّائِرَةُ كَانَ العَدَدُ أكثَرَ، وَهكَذَا السَّمَوَاتُ الآنَ، فَأهلُ السَّمَاءِ الثَّانِيةِ أكثَرُ مِن الأولَىٰ والثَّالِثَةُ أكثَرُ مِنَ الثَّانِيةِ وَهَلُمَّ جَرًّا، وذَلِكَ لأنَّ السَّمواتِ كُلَّمَا ارتَفَعَت اتَّسَعَت، لأنَّهَا مُحِيطَةٌ ببعضِهَا، وَلأنَّ الفَلكَ كُرَويٌّ كَمَا هُوَ مَعلُومٌ.

﴿صَفًّا صَفًّا﴾ هَذِهِ حَالُ المَلَائِكَةِ، أَنَّها تَأتِي صُفُوفًا، أهلُ السَّمَاءِ الدُّنيَا، ثُمَّ أَهْلُ السَّمَاءِ الثَّانِيةِ، ثُمَّ أَهْلُ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فتَكونُ الصُّفوفُ سَبعَةً، أمَّا كَيفَ تَأتِي؟ فَلا نَدرِي وَنَقولُ: اللهُ أعلَمُ؛ لأنَّ هَذِهِ أمُورٌ غَيبِيَّةٌ لَا تُدرِكُهَا العُقُولُ ولَا يَدخُلُهَا القِيَاسُ، فَعَلَينَا أنْ نُؤمِنَ بِهَا كَمَا جَاءَتْ وَنَقولُ: هَذَا مَا قَالَهُ اللهُ وَرَسولُهُ، وَعَلَينا أنْ نُصدِّقَ، وَعَلَينا أنْ نَتَأدَّبَ مَعَ اللهِ، وَألَّا نَتكلَّمَ إلَّا بِمَا تَكلَّمَ بِهِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر:٢٣].

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ﴾ أي: بِالنَّارِ -أعَاذَنِي اللهُ وإيَّاكُم مِنهَا-، يُجَاءُ بِهَا تُقَادُ بِسَبعِينَ ألفَ زِمَامٍ، كُلُّ زِمَامٍ يَقُودُهُ سَبعُونَ ألفَ مَلَكٍ(١)، ومَا أقوَىٰ المَلَائِكَةَ، لَا يَعلَمُ مَدَىٰ قُوَّتِهِم إلَّا اللهُ ﷻ، وَنَحنُ لَا نَدرِي كَيفِيةَ هَذِهِ الأزِمَّةِ،

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٢).

ولَا غِلظَهَا، ولَا نَعرِفُ مَدَىٰ قُوَّتِهَا، حِينئِذٍ تَبلُغُ القُلوبُ الحَنَاجِرَ، وكُلُّ إنسَانٍ يَخَافُ؛ لأنَّهُ لَا يَدرِي مَا مَصِيرُهُ؛ لأنَّهُ حَتَّىٰ الآنَ مَا تَبَيَّنَ الأمرُ.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ لَكِن هَلْ يَنفَعُ التَّذَكُّرُ ذَاكَ اليَوم؟ لَا، وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ يَعنِي: مَا أَبْعَدَ الذِّكرَىٰ عَنْهُ، الذِّكرَىٰ تَنفَعُ فِي الدُّنيَا قَبلَ حُلولِ الأجَلِ، وَلَكِن بَعدَ حُلولِ الأجَلِ لَا ذِكرَىٰ، وَيَومَ القِيَامَةِ لَا ذِكرَىٰ، لَكِن يَتَذكَّرُ الإنسَانُ يَومَ القِيَامَةِ، وَيَقُولُ صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ﷺ: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢]، وَلَكن لَا تَنفَعُ.



الإيمَانُ بِصِفَةِ الإرَادَةِ

وَنُؤمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٦]. وَنُؤمِنُ بِأَنَّ إِرَادَتَهُ تَعَالَىٰ نوعَانِ:

كَونِيةٌ: يَقَعُ بِهَا مُرَادُهُ، وَهِيَ مَقصُودَةٌ لِغَيرِهَا، وَلَا يَلزَمُ أَنْ يَكُون مَحبُوبًا للهِ، وَهِيَ التِي بِمعنَىٰ المَشِيئَةِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وَالفِعلُ بِاعتِبَارِ مَا يَفعَلُهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِنفسِهِ فِعلٌ مُبَاشِرٌ، وَبِاعتِبَارِ مَا يُقدِّرُهُ عَلَىٰ العِبَادِ فِعلٌ غَيرُ مُبَاشِرٍ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يُنسَبَ فِعلُ العَبدِ إِلَىٰ اللهِ عَلَىٰ سَبِيلِ المُبَاشَرَةِ؛ لأَنَّ المُبَاشِرَ لِلفِعلِ الإِنسَانُ، وَلَكِن يَصِحُّ أَنْ يُنسَبَ إِلَىٰ اللهِ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّقدِيرِ وَالخَلقِ، أَمَّا مَا يَفعَلُهُ اللهُ بِنفسِهِ، كَاستِوَائِهِ عَلَىٰ عَرشِهِ، وَكَلَامِهِ، ونُزُولِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنيَا، وَضَحِكِهِ...وَمَا أَشبَهَ ذَلِكَ، فَهُوَ يُنسَبُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ فِعلًا مُبَاشِرًا.

مِن أَسمَاءِ اللهِ فِي هَذِهِ الآيَةِ: «الله»، وَمِنَ الصِّفَاتِ: «المَشِيئَةُ، وَالفِعلُ، وَالإِرَادَةُ».

وَشَرعِيةٌ: لَا يَلزَمُ بِهَا وقُوعُ المُرَادِ، وَهِيَ مَقصُودَةٌ لِذَاتِهَا، وَلَا يَكُون المُرَادُ فِيهَا إلَّا مَحبُوبًا للهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٢٧].

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ فَكُلُّ مَا أَرَادَهُ اللهُ ﷻ فَعَلَهُ، لَا يَمتَنِعُ عَلَيهِ، وَالمَخلُوقُ لَيسَ فَعَّالًا لِمَا يُرِيدُ، قَد يُرِيدُ الشَّيءَ ويَعجزُ عَنهُ، وَقَد يُرِيدُهُ مَعَ القُدرَةِ ثُمَّ يُحَالُ بَينَهُ وبَينَهُ، واللهُ تَعَالَىٰ لَا يُسأَلُ عَمَّا يَفعلُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣].

وَمَعنَىٰ ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مَا فَعَلَهُ فَهُوَ لِحِكمَةٍ، وَلَا يَحتَاجُ إِلَىٰ أَنْ يَقولَ عِلَّتَهُ، فَهُوَ رَبٌّ وَلَيسَ عَبدًا، أَمَّا غَيرُهُ مَنَ الفَاعِلِينَ فَإِنَّهُ يُسأَلُ لِمَ فَعَلتَ هَذَا؟ فَيَقُولُ: فَعَلتُ لِكَذَا وَكَذَا، وَقَد تَكُونُ هَذِهِ الغَايَةُ مَذمُومَةً.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَذَا بِالنِّسبَةِ لِما لَم يَكُن فَيُرِيدُ أَنْ يَكونَ، أَمَّا إِذَا أَرَادَ أَنْ يُعْدِمَ شَيئًا فَهَل يَصِحُّ أَنْ نَقولَ: إِنَّهُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ؟!

نَقُولُ: نَعَم؛ لأَنَّ الإِعدَامَ فِعلٌ.

فَالإِرَادَةُ نَوعَانِ:

الأَوَّلُ: إِرَادَةٌ كَونِيَّةٌ، وَهَذِهِ الإِرَادَةُ مُرَادِفَةٌ تَمَامًا لِلمَشِيئَةِ، فـ «**أَرَادَ**» فِيهَا بِمَعنَىٰ شَاءَ.

وَهَذِهِ الإِرَادَةُ:

أَوَّلًا: تَتَعَلَّقُ بِمَا يُحِبُّهُ اللهُ وَبِمَا لَا يُحِبُّهُ، وَعَلَىٰ هَذَا فَلَو قَالَ قَائِلٌ: هَل أَرَادَ

اللهُ الكُفرَ؟! فَقُلْ: بِالإِرَادَةِ الكَونيَّةِ، نَعَمْ أَرَادَهُ، وَلَو لَم يُرِدْهُ اللهُ ﷻ مَا وَقَعَ.

ثَانِيًا: يَلزَمُ فِيهَا وَقُوعُ المُرَادِ؛ يَعنِي: أَنَّ مَا أَرَادَهُ اللهُ فَلَابُدَّ أَنْ يَقَعَ، وَلَا يُمكِنُ أَنْ يَتَخَلَّفَ.

القِسمُ الثَّانِي: إِرَادَةٌ شَرعِيَّةٌ، وَهِيَ مُرَادِفَةٌ لِلمَحَبَّةِ، فـ «أَرَادَ» فِيهَا بِمَعنَىٰ أَحَبَّ، فَهِيَ:

أَوَّلًا: تَختَصُّ بِمَا يُحِبُّهُ اللهُ، فَلَا يُرِيدُ اللهُ الكُفْرَ بِالإِرَادَةِ الشَّرعِيَّةِ، وَلَا الفِسقَ...

ثَانِيًا: لَا يَلزَمُ فِيهَا وقُوعُ المُرَادِ؛ بِمَعنَىٰ: أَنَّ اللهَ يُرِيدُ شَيئًا شَرْعًا وَلَا يَقَعُ، فَهُوَ سُبحَانَهُ يُرِيدُ مِنَ الخَلقِ أَنْ يَعبُدُوهُ، وَلَا يَلزَمُ وقُوعُ هَذَا المُرَادِ، قَدْ يَعبُدُونَهُ، وَقَدْ لَا يَعبُدُونَهُ، بِخِلَافِ الكَوْنِيَّةِ.

وَالفَرقُ بَينَ الإِرَادَةِ الكَونِيَّةِ وَالإِرَادَةِ الشَّرعِيَّةِ:

أَنَّ الكَونِيَّةَ قَدْ يُحِبُّهَا اللهُ وَيَرضَاهَا، وَقَدْ لَا يُحِبُّهَا وَلَا يَرضَاهَا، وَأَمَّا الشَّرعِيَّةُ؛ فَإِنَّهُ يُحِبُّهَا تَعَالَىٰ وَيَرضَاهَا، فَاللهُ أَرَادَ المَعصِيَةَ كَونًا، وَلَمْ يُرِدْهَا وَلَم يَرضَهَا شَرْعًا.

وَالإِرَادَةُ الكَونِيَّةُ لَابُدَّ مِن وقُوعِهَا، وَأَمَّا الشَّرعِيَّةَ فَقَدْ تَقَعُ وَقَدْ لَا تَقَعُ.

وَالكَونِيَّةُ مَقصُودَةٌ لِغَيرِهَا؛ كَخلقِ إِبلِيسَ، وَسَائِرِ الشُّرورِ؛ لِتَحصُلَ بِسَبَبِ ذَلِكَ المُجَاهَدَةُ، وَالتَّوبَةُ، وَالاستِغفَارُ، وَغَيرُ ذَلِكَ مِنَ المَحَابِّ.

وَالشَّرعِيَّةُ مَقصُودَةٌ لِذَاتِهَا، فَاللهُ أَرَادَ الطَّاعَةَ كَونًا وَشَرعًا، وَأَحَبَّهَا وَرَضِيَهَا.

وَتَجتَمِعُ الإِرَادَتَانِ: الكَونِيَّةُ وَالشَّرعِيَّةُ، فِي حَقِّ المُخلِصِ المُطِيعِ، وَتَنفَرِدُ الإِرَادَةُ الكَونِيَّةُ فِي حَقِّ العَاصِي.

وَمَن لَم يُثبِتِ الإِرَادَتَينِ وَيُفَرِّقْ بَينَهُمَا فَقَدْ ضَلَّ؛ كَالجَبرِيَّةِ، وَالقَدَرِيَّةِ.

فَالجَبرِيَّةُ؛ أَثبَتُوا الإِرَادَةَ الكَونِيَّةَ فَقَط.

وَالقَدَرِيَّةُ؛ أَثبَتُوا الإِرَادَةَ الشَّرعِيَّةَ فَقَطْ.

وَأَهلُ السُّنَّةِ؛ أَثبَتُوا الإِرَادَتَينِ جَمِيعًا، وَفَرَّقُوا بَينَهُمَا.

وَقَد دَخَلَ القَاضِي عَبدُ الجَبَّارِ الهَمَدَانِيُّ المُعتَزِلِيُّ عَلَىٰ الصَّاحِبِ بنِ عَبَّادٍ وَكَانَ مُعتَزِلِيًّا أَيضًا، وَكَانَ عِندَهُ أَبُو إِسحَاقَ الإِسْفَرَايِينِيُّ.

فَقَالَ عَبدُ الجَبَّارِ عَلَىٰ الفَورِ: سُبحَانَ مَن تَنَزَّهَ عَنِ الفَحشَاءِ!

فَقَالَ الإِسْفَرَايِينِيُّ فَورًا: سُبحَانَ مَن لَا يَقَعُ فِي مُلكِهِ إِلَّا مَا يَشَاءُ!

فَقَالَ عَبدُ الجَبَّارِ -وَفَهِمَ أَنَّهُ قَدْ عَرَفَ مُرَادَهُ-: أَيُرِيدُ رَبُّنَا أَنْ يُعصَىٰ؟!

فَقَالَ الإِسْفَرَايِينِيُّ: أَيُعصَىٰ رَبُّنَا قَهرًا؟!

فَقَالَ عَبدُ الجَبَّارِ: أَرَأَيتَ إِنْ مَنَعَنِي الهُدَىٰ وَقَضَىٰ عَلَيَّ بِالرَّدَىٰ، أَحْسَنَ أَمْ أَسَاءَ؟

فَقَالَ الإِسْفَرَايينيُّ: إِنْ كَانَ مَنَعَكَ مَا هُوَ لَكَ، فَقَدْ أَسَاءَ، وَإِنْ كَانَ مَنَعَكَ مَا هُوَ لَهُ فَيَخْتَصُّ بِرَحمَتِهِ مَنْ يَشَاء.

فَانصَرَفَ الحَاضِرُونَ وَهُم يَقُولُونَ: وَاللهِ لَيْسَ عَن هَذَا جَوَابٌ.

* * *

الإيمَانُ بِأنَّ إرَادَةَ اللهِ الشَّرعِيَّةَ وَالكَونِيةَ تَابِعَةٌ لِحِكمَتِه تَعَالَى

وَنُؤمِنُ بِأنَّ مُرَادَهُ الكَونِيَّ وَالشَّرعِيَّ تَابِعٌ لِحِكمَتِهِ: فَكُلُّ مَا أَرَادَهُ كَونًا، أو تَعبَّدَ بِهِ خَلْقَهُ شَرعًا؛ فَإنَّهُ لِحِكمَةٍ وَعَلَىٰ وَفْقِ الحِكمَةِ، سَواءٌ عَلِمنَا مِنهَا مَا نَعلَمُ أو تَقَاصَرَتْ عُقُولُنَا عَن ذَلِكَ.

مَا أَرَادَهُ اللهُ تَعَالَىٰ كَونًا أو شَرعًا فَإنَّ الحِكمَةَ تَقتَضِيهِ؛ لأنَّ مُرَادَهُ تَابِعٌ لِحِكمَتِهِ، ودَلِيلُ ذَلِكَ قَولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

فَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَىٰ أنَّ مَشِيئَةَ اللهِ تَعَالَىٰ تَابِعَةٌ لِحِكمَتِهِ، قَد نَعلَمُ تِلكَ الحِكمَةَ وَقَد لَا نَعلَمُهَا، وَلَكِن يَنبَغِي أنْ نُسَلِّمَ للهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- فِيمَا قَضَاهُ وَقَدَّرَهُ؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَفعَلُ مَا يَشَاءُ، وَهُوَ سُبحَانَهُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ، لَا يُسأَلُ عَمَّا يَفعَلُ، لأنَّهُ لَا يَفعَلُ شَيئًا إلَّا لِحِكمَةٍ.

وَهَذَا الذِي هُوَ فِي ظَاهِرِ الحَالِ مَضرَّةٌ عَلَينا وَمَكروهٌ لَنَا، نَجِدُ عَاقِبَتَهُ حَمِيدَةً فَهَذِهِ حِكمَةٌ، أَمَّا مَا يَنفَعُنَا فَالحِكمَةُ فِيهِ ظَاهِرَةٌ؛ أَنَّهُ إِحسَانٌ مِنَ الرَّبِّ ﷻ، يُعِينُنَا إِذَا كُنَّا صَادِقِينَ عَلَىٰ البِرِّ والتَّقوَىٰ، وَخَيرُ النَّاسِ مَن استَعَانَ بِنِعَمِ اللهِ

عَلَىٰ طَاعَتِهِ، وَالحِكمَةُ قَد تَظهَرُ لَنَا سَرِيعًا أو لَا تَظهَرُ.

فَيجِبُ أَنْ نَعلَمَ عِلمَ اليَقِينِ أَنَّ كُلَّ شَيءٍ قَضَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ وَقَدَّرهُ، أو شَرَعَهُ فَهُوَ لِحِكمَةٍ، وَلَا يُمكِنُ أَنْ يَقَعَ سَفهًا إطلَاقًا، وَلَا لَغوًا، وَلَا لَعِبًا، فَكُلُّ شَيءٍ خَلَقَهُ اللهُ مِن دَقِيقٍ وجَلِيلٍ، مِن العَالَمِ العُلويِّ أَوِ السُّفلِيِّ، مِنَ النَّاطِقِ وَغَيرِ النَّاطِقِ، مِنَ المُتَحرِّكِ وَغَيرِ المُتَحرِّكِ، مِنَ النَّامِي وَغَيرِ النَّامِي؛ فَإِنَّهُ لِحِكمَةٍ.

لَكِن لَا يَلزَمُ أَنْ نَعلَمَ تِلكَ الحِكمَةَ؛ لأَنَّ عُقُولَنَا أَقصَرُ مِن أَنْ تُدرِكَ حِكمَةَ اللهِ ﷻ.

فَكُلُّ مَا قَضَاهُ كَونًا أو تَعبَّدَ بِهِ خَلْقَهُ شَرعًا؛ فَإِنَّهُ لِحِكمَةٍ، وَهَذِهِ هِيَ الحِكمَةُ الغَائِيَّةُ، وَالغَايَةُ مِنهُ حَمِيدَةٌ، وَعَلَىٰ وَفقِ الحِكمَةِ، وَهَذِهِ هِيَ الحِكمَةُ الصُّورِيةُ؛ يَعنِي: الصُّورَةَ التِي هُوَ عَلَيهَا مُوَافِقَةٌ لِلحِكمَةِ تَمَامًا.

سَوَاءٌ عَلِمنَا مِنهَا مَا نَعلَمُ، أو تَقَاصَرَت عُقُولُنَا عَن ذَلِكَ، فَإِنَّهُ لِحِكمَةٍ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين:٨]، الجَوَابُ: بَلَىٰ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، الجَوَابُ: لَا أَحَدَ أحسَنُ مِنَ اللهِ حُكمًا -لَا الكَونِيَّ ولَا الشَّرعِيَّ-.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، فَإِذَا عَرفتَ أَنَّ اللهَ أحكَمُ الحَاكِمِينَ عَلِمتَ أَنَّ مَا قَدَّرَهُ فَهُوَ لِحكمَةٍ عَظِيمَةٍ، إنْ أدرَكتَهَا فَذَاكَ، وإنْ لَم تُدرِكهَا، فَسَلِّمِ الأمرَ إلَىٰ مَن يَعلَمُهَا ﷻ.

❊ ❊ ❊

الإيمانُ بأن اللهَ يُحِبُّ ويُحَبُّ

وَنُؤمِنُ بِأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُحِبُّ أولياءَهُ، وَهُم يُحبُّونَهُ؛ أي: نؤمِنُ بِأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُحِبُّ ويُحَبُّ، فَهُوَ مَحبُوبٌ لأولِيَائِهِ، وأولِيَاؤُهُ مَحبُوبُونَ لَدَيهِ، فَالمَحبَّةُ مُتَبَادَلَةٌ ودَلِيلُ ذَلِكَ: قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، وَفِي هَذِهِ الآيَةِ رَدٌّ عَلَىٰ مَن نَفَىٰ المَحبَّةَ مِنَ الجَانِبَينِ.

وَهَذِهِ الآيَةُ يُسمِّيهَا العُلَمَاءُ آيَةَ المِحنَةِ؛ يَعنِي: آيَةَ الامتِحَانِ؛ لأنَّ قَومًا ادَّعَوا أَنَّهُم يُحبُّونَ اللهَ فَأمرَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ أنْ يَقولَ لَهُم: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ وَهَذَا تَحدٍّ لِكُلِّ مَنِ ادَّعَىٰ مَحبَّةَ اللهِ تَعَالَىٰ، أنْ يُقالَ لَهُ: إنْ كُنتَ صَادِقًا فِي مَحبَّةِ اللهِ فَاتَّبعِ الرَّسُولَ ﷺ.

فَمَن أحدَثَ فِي دِينِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا لَيسَ مِنهُ وَقَالَ: إنَّنِي أحِبُّ اللهَ وَأحِبُّ رَسُولَ اللهِ بِمَا أحدَثْتُهُ -يَعنِي بِالبِدعَةِ- قُلنَا لَهُ: هَذَا كَذِبٌ، لَو كَانَت مَحبَّتُكَ صَادِقَةً لاتَّبَعتَ الرَّسُولَ ﷺ، وَلَم تَتَقدَّم بَينَ يَدَيهِ بِإدخَالِ شَيءٍ فِي شَرِيعَتِهِ لَيسَ مِن دِينِهِ، فَكُلُّ مَن كَانَ أتبَعَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ للهِ أحَبَّ، وَإذَا أحَبَّ اللهَ وَقَامَ بِعِبَادَتِهِ؛ فَإنَّ اللهَ يُحبُّهُ، بَلْ إنَّ اللهَ ﷻ يُعطِيهِ أكثَرَ مِمَّا عَمِلَ.

فَفِي هَذِهِ الآيَةِ إثبَاتُ المَحبَّةِ لَهُ؛ لِقَولِهِ: ﴿تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾، وَمِنهُ؛ لِقَولِهِ: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]، الفَاءُ وَاقِعَةٌ فِي جَوَابِ الشَّرطِ، أي: إذَا ارتَدَدتُم عَن دِينِ اللهِ؛ فَإنَّ ذَلِكَ لَا يَضرُّ اللهَ شَيئًا، فَاللهُ غَنِيٌّ عَن العَالَمِينَ، فَكُلُّ مَن ارتَدَّ عَن دِينِ اللهِ تَعَالَىٰ لَا يَعبَأ بِهِ شَيئًا؛ لأنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنهُ، بَل يُزِيلُهُ وَيَأتِي بِخَيرٍ مِنهُ، ﴿يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ وإنْ كَانُوا يُحبُّونَ اللهَ وَيُحبُّهُمُ اللهُ فَسَوفَ يَقُومُونَ بِطَاعَةِ اللهِ عَلَىٰ وَفْقِ مَا جَاءَ بِهِ رَسولُ اللهِ ﷺ.

وَالمَحبَّةُ التِي ذُكِرَتْ مَحبَّةٌ حَقِيقِيةٌ ولَيسَت مَجَازًا عَن الإثَابَةِ؛ لأنَّ الإثَّابَةَ شَيءٌ وَالمَحبَّةَ شَيءٌ آخَرُ، بَل الإثَابَةُ دَلِيلُ المَحبَّةِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦]، الصَّابِرِينَ عَلَىٰ شَرِيعَةِ اللهِ، وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ أقدَارِ اللهِ، وشَرِيعَةُ اللهِ: أوَامِرُهُ ونَوَاهِيهِ؛ فَهُم صَابِرُونَ عَلَىٰ الأوَامِرِ، صَابِرُونَ عَن النَّواهِي، صَابِرُونَ عَلَىٰ الأقدَارِ، فَمَن كَانَ هَذَا حَالَهُ؛ فَإنَّ اللهَ يُحبُّهُ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩]، أي: اعدِلُوا، وَهَذَا أمرٌ مِن الإقسَاطِ، وَهُوَ العَدلُ فِي المُعَامَلَاتِ وَالأحكَامِ مَعَ القَرِيبِ وَالبَعِيدِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥]، هَذَا انتِقَالٌ إلَىٰ

مَا هُوَ أكمَلُ؛ فَالإحسَانُ أكمَلُ مِنَ العَدلِ، وَهَذَا أمرٌ بِالإحسَانِ وَهُوَ الإتيَانُ بِالعَمَلِ مَعَ الإحسَانِ فِي ذَلِكَ، يَعنِي: مَعَ الإتيَانِ بِهِ عَلَىٰ أحسَنِ أحوَالِهِ وَأكمَلِهَا، وَالإحسَانُ أعلَىٰ مَقَامَاتِ الطَّاعَةِ.

وَإنَّمَا ذُكِرَتْ هَذِهِ الآيَاتُ فِي إثبَاتِ المَحبَّةِ للهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، وَذَلِكَ لأنَّ فِي هَذَا رَدًّا عَلَىٰ مَن سَوَّىٰ بَينَ المَشِيئَةِ وَالمَحبَّةِ وَقَالَ إنَّهُمَا مُتَلَازِمَتَانِ، فَكُلُّ مَا شَاءَ اللهُ فَقَد أحبَّهُ، وَمَرَّ أنَّ ذَلِكَ لَيسَ كَذَلِكَ.

فَإنَّ «شَاءَ» فِي الإرَادَةِ الكَونِيةِ قَد تَكُونُ لِمَا يُحبُّهُ، وَقَد تَكُونُ لِمَا لَا يُحبُّهُ، «بَل لِمَا يُبغِضُهُ»، وَفِي الإرَادَةِ الشَّرعِيةِ بِمعنَىٰ « أحَبَّ».

*** انقسَمَ النَّاسُ فِي المَحبَّةِ ثَلاثَةَ أقسَامٍ:**

١- **قِسمٌ قَالُوا:** إنَّ اللهَ يُحِبُّ وَيُحَبُّ. وَهَذَا هُوَ القَولُ المُتَعَيِّنُ كَمَا فِي الآيَاتِ.

٢- **وَقِسمٌ قَالُوا:** إنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ ولَا يُحَبُّ. فَهَؤلَاءِ شُبِّهَ عَلَيهِم وَقَالُوا: إنَّ المَحبَّةَ لَا تَكُونُ إلَّا بَينَ نَظِيرَينِ.

*** وَهَذِهِ الشُّبهَةُ مَنقُوضَةٌ مِن أوجُهٍ:**

أوَّلًا: مِن جِهَةِ النَّصِّ الصَّرِيحِ عَلَىٰ ثُبوتِ المَحبَّةِ مِنَ اللهِ وَللهِ، ولَا قِيَاسَ مَعَ النَّصِّ، وَالقِيَاسُ المُبطِلُ لِلنَّصِّ فَاسِدُ الاعتِبَارِ.

ثَانِيًا: ادِّعَاؤُهُم أنَّ المَحبَّةَ لَا تَكُونُ إلَّا بَينَ شَيئَينِ مُتَجَانِسَينِ؛ وهَذَا

خَطَأً، بَلْ تَكُونُ بَينَ شَيئَينِ بَينَهُمَا أعظَمُ التَّبَاينِ، كَمَا بَينَ الإنسَانِ وَبَعيرِهِ.

٣- **وَقِسمٌ قَالُوا:** إنَّ اللهَ يُحَبُّ ولَا يُحِبُّ، وهَؤلَاءِ قَالُوا: إنَّ المَحبَّةَ مِن اللهِ المُرادُ بِهَا الإثَابَةُ.

وَهَؤلَاءِ هُمُ الأشَاعِرَةُ وَقَولُهُم بَاطِلٌ؛ لأنَّ اللهَ أثبَتَ بِالقُرآنِ -وَكَذَلِكَ ثَبَتَ بِالسُّنَّةِ- أَنَّهُ تَعَالَىٰ يُحِبُّ ولَا قِياسَ مَعَ وجُودِ النَّصِّ.

السَّبَبُ الوَحِيدُ لِكَونِ اللهِ تَعَالَىٰ يُحِبُّ العَبدَ: هُوَ اتِّبَاعُ الرَّسُولِ ﷺ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١].



الإيمَانُ بِأن اللهَ يَرضَى رِضًا حَقِيقِيًّا وَيَكْرَهُ كُرْهًا حَقِيقِيًّا

وَنُؤمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَرضَىٰ مَا شَرَعَهُ مِنَ الأعمَالِ وَالأقوَالِ، وَيَكرَهُ مَا نَهَىٰ عَنهُ مِنهَا، اللهُ تَعَالَىٰ يَرضَىٰ رِضًا حَقِيقيًّا، ويَكرَهُ كُرهًا حَقِيقِيًّا.

فاللهُ تَعَالَىٰ مَوصُوفٌ بِالرِّضَا، وَهُوَ يَرضَىٰ عَن العَمَلِ وَيَرضَىٰ عَنِ العَامِلِ، وَرِضَا اللهِ سُبحَانَهُ صِفَةٌ ثَابِتَةٌ لَهُ تَعَالَىٰ، وَهِيَ فِي نَفسِهِ، لَيسَت شَيئًا مُنفَصِلًا عَنهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- كَمَا يَدَّعِيهِ أهلُ التَّعطِيلِ، وَهِيَ صِفَةٌ حَقِيقِيةٌ مُتعلِّقَةٌ بِمَشِيئَتِهِ تَعَالَىٰ؛ أي: أَنَّهَا مِن الصِّفَاتِ الفِعلِيَّةِ.

وَصِفَةُ الكَرَاهَةِ صِفَةٌ حَقِيقِيَّةٌ ثَابِتَةٌ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، كَرَاهَةُ اللهِ تَعَالَىٰ تَكُونُ لِلعَمَلِ، وَتَكونُ لِلعَامِلِ أيضًا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ [الزمر:٧]، وَإِذَا كَانَ غَنيًّا عَنَّا هَلْ يَتَضَرَّرُ؟ لَا، الذِي يَتَضَرَّرُ الكَافِرُ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧]، هَذَا نَفيُ الرِّضَا فَهُوَ بِمَفهُومِهِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ يَرضَىٰ مِنهُم الإيمَانَ، وَلِهَذَا صَرَّحَ بِهِ فِي قَولِهِ: ﴿وَإِن

تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧]، وفِي هَذِهِ الآيَةِ دليلٌ عَلَىٰ أنَّ شُكْرَ النِّعمَةِ مِنَ الإيمَانِ، وَكُفرَهَا مِنَ الكُفرِ.

دَلِيلُ الكرَاهةِ: قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة:٤٦]، اللهُمَّ أجِرنَا، هَذِهِ الآيَةُ خَطِيرَةٌ جِدًّا وَمِيزَانٌ؛ ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾، أي فِي الجِهَادِ ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾، هَذَا فِيهِ تَحذِيرٌ شَدِيدٌ لِمَن رَأىٰ مِن نَفسِهِ أنَّهُ مُثبَّطٌ عَن الطَّاعَةِ فَلَعَلَّ اللهَ تَعَالَىٰ كَرِهَ أنْ يَكُون هَذَا الرَّجُلُ مِن عِبَادِهِ المُطِيعِينَ لَهُ فَثَبَّطَهُ عَن الطَّاعَةِ -نَسأَلُ اللهَ أنْ يُعينَنَا عَلَىٰ ذِكرِهِ وَشُكرِهِ وَحُسنِ عِبَادَتِه-.

فَاحَذَر وَفتِّش، إذَا رَأيتَ نَفسَكَ مُتكَاسِلًا عَن الخَيرِ اخشَ أنْ يَكُون اللهُ كَرِهَ انبِعَاثَكَ، ثُمَّ أعِدِ النَّظَرَ مَرَّةً ثَانِيةً، وَصَبِّر، نَفسَكَ وَأرغِمهَا عَلَىٰ الطَّاعَةِ، وَاليَومَ تَفعَلُهَا كَارِهًا، وَغَدًا تَفعَلُهَا طَائِعًا هَيِّنَةً عَلَيكَ، فَلَقَد أوجَبَ اللهُ عَلَيكَ أنْ تُحِبَّ مَا أوجَبَهُ عَلَيكَ.

وَالشَّاهِدُ مِن هَذِهِ الآيَة: أنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَم يَقُل: وَقَالَ لَهُمُ اقعُدُوا مَعَ القَاعِدِينَ؛ لأنَّ اللهَ لَا يَأمُرُ بِالفَحشَاءِ وَلَكِن ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ﴾ مَن القَائِلُ؟ النَّفسُ، وَالشَّيطَانُ، وَجَليسُ السُّوءِ يُثَبِّطُ عَن الخَيرِ، وَلِهَذَا حَذَفَ الفَاعِلَ؛ أي: القَائِلَ؛ لِيَكُونَ أشمَلَ.

وَنُؤمِنُ بِأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَرضَىٰ عَن الذِينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ، وَهَذَا هُوَ إثبَاتُ الرِّضَا مِنَ اللهِ عَن العَامِلِينَ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة:٨]، أهلُ التَّحرِيفِ مِنَ الأشَاعِرَةِ وَغيرِهِم، لَا يُؤمِنُونَ بِرِضَا اللهِ ﷻ وَيَقولُونَ: المُرَادُ بِالرِّضَا: الثَّوابُ، أو: إرَادةُ الثَّوابِ؛ وَذَلِكَ لأنَّهُم يُثبِتُونَ الإرَادَةَ.

وَاللهُ تَعَالَىٰ مَوصُوفٌ بِالرِّضَا، وَهُوَ سُبحَانَهُ يَرضَىٰ عَنِ العَمَلِ، وَيَرضَىٰ عَنِ العَامِلِ؛ يَعنِي: أنَّ رِضَا اللهِ مُتَعَلِّقٌ بِالعَمَلِ وَبِالعَامِلِ.

أمَّا بِالعَمَلِ، فَمِثلُ قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْۗ﴾ [الزمر:٧]. أي: يَرضَ الشُّكرَ لَكُم.

وَيَتَعَلَّقُ الرِّضَا أيضًا بِالعَامِلِ، كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ [البينة:٨].

وَصِفَةُ الكَرَاهَةِ صِفَةٌ حَقِيقِيَّةٌ ثَابِتَةٌ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَكَرَاهَةُ اللهِ تَعَالَىٰ تَكُونُ لِلعَمَلِ كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ [التوبة:٤٦].

وَتَكُونُ أيضًا لِلعَامِلِ كَمَا فِي حَدِيثِ جِبرِيلَ: «**إنَّ اللهَ تَعَالَىٰ إذَا أبغَضَ عَبدًا نَادَىٰ جِبرِيلَ: إنِي أُبغِضُ فُلَانًا فَأبغِضهُ...**»[1].

* * *

(١) أخرجه مسلم (٢٦٣٧).

الإيمانُ بأن اللهَ يَغضَبُ علَى من يَستَحِقُّ الغَضَبَ

وَنُؤمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَغضَبُ عَلَىٰ مَن يَستَحِقُّ الغَضَبَ مِنَ الكَافِرِينَ وَغَيرِهِم، وَالغَضَبُ ضِدُّ الرِّضَا، وَمِن عَقِيدَةِ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ: أَنَّ اللهَ مَوصُوفٌ بِالغَضَبِ عَلَىٰ مَن يَستَحِقُّ مِنَ الكَافِرِينَ وَغَيرِ الكَافِرِينَ، وَالغَضَبُ هُوَ صِفَةٌ مِن صِفَاتِ اللهِ الفِعلِيَّةِ، التِي تَتَعلَّقُ بِالمَشِيئَةِ.

وَالأَشَاعِرَةُ يَقُولُونَ: إِنَّ الغَضَبَ لَا يُوصَفُ اللهُ بِهِ؛ لأَنَّ الغَضَبَ غَلَيَانُ دَمِ القَلبِ، وَضَلُّوا؛ فَإِنَّ هَذَا غَضَبُ المَخلُوقِ، أَمَّا غَضَبُ الخَالِقِ فَلَيسَ هَذَا، بَل هُوَ غَضَبٌ يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ ﷻ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح:٦]، هَذَا وَصفُ المُنَافِقِينَ وَالكَافِرِينَ.

وَالشَّاهِدُ مِن هَذِهِ الآيَةِ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

وَظَنُّ السَّوءِ بِاللهِ أَجمَعُ مَا قِيلَ فِيهِ: أَنْ نَظُنَّ فِي اللهِ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ، فَمَن ظَنَّ أَنَّ اللهَ لَا يَنصُرُ أَولِيَاءَهُ فَقَد ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوءِ، وَمَن ظَنَّ أَنَّ اللهَ نَاقِصٌ فِي

صِفَاتِهِ فَقَد ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوءِ، وَمَن ظَنَّ أنَّ البَاطِلَ يَعلُو الحَقَّ عُلوًّا دَائِمًا مُستَمِرًّا فَقَد ظَنَّ بِاللهِ ظَنَّ السَّوءِ، وَمَن ظَنَّ أنَّ الله تَعَالَىٰ لَا يَبعثُ العِبَادَ وَيُجَازِيهِم فَقَد ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوءِ، وَهَلُمَّ جَرًّا، **فَالقَاعِدَةُ فِي ظَنِّ السَّوءِ أنْ يُظَنَّ بِاللهِ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ**، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾، يَعنِي عَلَيهِم يَدورُ السَّوءُ وَيُحِيطُ بِهِم مِن كُلِّ نَاحِيَةٍ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل:١٠٦]، فَسَّرَ أهلُ التَّعطِيلِ الغَضَبَ فَقَالُوا: هُوَ الانتِقَامُ أو إرَادَةُ الانتِقَامِ، وَهَذَا غَلَطٌ يُكَذِّبُهُ القُرآنُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف:٥٥]، ﴿ءَاسَفُونَا﴾ بِمَعنَىٰ أغضَبونَا، وَقَولُهُ: ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ والانتِقَامُ هُوَ أنْ يَبلُغَ بِالعُقوبَةِ حَدَّهَا، فَجعَلَ الانتِقَامَ نَتِيجةَ الغَضَبِ، فَهُمَا شَيئَانِ مُتَغايرَانِ، وَكَذَلِكَ أيضًا إرَادَةُ الانتِقَامِ لَيسَت هِيَ الغَضَبَ؛ لأنَّ الغَاضِبَ يَغضَبُ أولًا، ثُمَّ يُرِيدُ أنْ يَنتَقِمَ ثَانِيًا، ثُمَّ يَنتَقِمُ ثَالِثًا، وَلَكِنَّ نَفيَهُم لِلغَضَبِ الحَقِيقِيِّ مَبنِيٌّ عَلَىٰ الدَّلِيلِ الوَهمِيِّ الذِي سَمَّوهُ عَقليًّا.

* * *

الإيمَانُ بِصِفَةِ الوَجهِ للهِ تَعَالَى

وَنُؤمِنُ بِأَنَّ للهِ تَعَالَىٰ وَجهًا مَوصُوفًا بِالجَلَالِ وَالإكرَامِ لِقَولِهِ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧].

وَجهُ اللهِ ﷻ صِفَةٌ مِن صِفَاتِهِ، وَالوَجهُ صِفَةٌ خَبَرِيةٌ وَلَيسَ صِفَةً مَعنوِيةً وَلَا فِعلِيةً، والضَّابِطُ فِي الصِّفَاتِ الخَبَرِيةِ المَحضةِ، مَا قَالَ شَيخُ الإسلَامِ رَحِمَهُ اللهُ: مِن صِفَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ مَا مُسَمَّاهُ أبعَاضٌ لَنَا وَأجزَاءٌ لنَا. وَتعَالَىٰ اللهُ عَن التَّبعِيضِ وَالتَّجزِئَةِ وَمَا أشبَهَ، وَلَكِنَّ هَذَا ضَابِطٌ.

وَصِفَاتُ رَبِّنَا الخَبَرِيةُ لَا تَثبُتُ مِن جِهَةِ العَقلِ، وَلَولَا أنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أخبَرَنَا أنَّ لَهُ وَجهًا مَا عَرَفنَا ذَلِكَ، وَلَولَا أنَّ اللهَ أخبَرَنَا أنَّ لَهُ يَدَينِ مَا عَرفنَا ذَلِكَ، فَهَذِهِ إنَّمَا تَثبُتُ عَن طَرِيقِ الخَبَرِ، وَنَقولُ: لَهُ وَجهٌ يَليقُ بِجَلَالِهِ وَعظَمَتِهِ، نُؤمِنُ بِهِ؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أخبَرَنَا عَنهُ، وَوَصَفَ بِهِ نَفسَهُ، وَلَكِنَّنَا لَا نَتَعرَّضُ لِكَيفِيَّتِهِ؛ لأنَّهُ لَا إحَاطَةَ لَنَا بِذَلِكَ.

﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ أي: ذُو العَظَمَةِ ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ مِنهُ لِلنَّاسِ وَمِنَ النَّاسِ لَهُ، فَهُوَ مُكرِمٌ لِعبَادِهِ المُطِيعِينَ لَهُ بِالثَّوابِ، وَهُوَ مُكرَمٌ مِن عِبَادِهِ الذِينَ يَعبُدونَهُ

وَيَتَذَلَّلُونَ لَهُ، فَالإِكرَامُ هُنَا مَصدَرٌ صَالِحٌ لأنْ يَقعَ مِنَ اللهِ لِمَن يَستَحِقُّ الإِكرَامَ، وَصَالِحٌ أنْ يَقعَ مِنَ العِبَادِ للهِ عَجَلَّ وَهُوَ أهلٌ لِلإِكرَامِ.

فَسَّرَ أهلُ التَّحرِيفِ الوَجهَ بِالثَّوَابِ، فَفَسَّرُوهُ بِشَيءٍ حَادِثٍ بَعدَ أنْ لَم يَكُن، وَهُوَ لَيسَ قَدِيمًا، فَصَارَ مِن بَابِ المُمكِنِ الذِي يَجوزُ ارتِفَاعُهُ.

وَالمُضَافُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ نوعَانِ:

أَحَدُهُمَا: مَا يَكُونُ مُنفَصِلًا بَائِنًا عَنهُ، قَائِمًا بِنَفسِهِ، أَوْ قَائِمًا بِغَيرِهِ، فَإِضَافَتُهُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ إِضَافَةُ خَلقٍ وَتَكوِينٍ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا فِيمَا يُقصَدُ بِهِ تَشرِيفُ المُضَافِ، أَوْ بَيانُ عَظَمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ لِعِظَمِ المُضَافِ، فَهَذَا النَّوعُ لَا يُمكِنُ أَنْ يَكُونَ مِن ذَاتِ اللهِ، وَلَا مِن صِفَاتِهِ.

وَمِن هَذَا النَّوعِ: إِضَافَةُ اللهِ تَعَالَىٰ رَوحَ آدَمَ وَعِيسَىٰ إِلَيهِ، وَإِضَافَةُ البَيتِ، وَالنَّاقَةِ.

وَالنَّوعُ الثَّانِي مِنَ المُضَافِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ: مَا لَا يَكُونُ مُنفَصِلًا عَن اللهِ؛ بَلْ هُوَ مِن صِفَاتِهِ الذَّاتِيَّةِ أَوْ الفِعلِيَّةِ، كَوَجهِهِ، وَيَدِهِ، وَسَمعِهِ، وَبَصَرِهِ، وَاستِوَائِهِ عَلَىٰ عَرشِهِ، وَنُزُولِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنيَا، وَنَحوِ ذَلِكَ.

فَإِضَافَتُهُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ مِن بَابِ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلَىٰ مُوصُوفِهَا، وَلَيسَ مِن بَابِ إِضَافَةِ المَخلُوقِ وَالمَملُوكِ إِلَىٰ خَالِقِهِ وَمَالِكِهِ.

❊ ❊ ❊

إثْبَاتُ صِفَةِ اليَدَيْنِ للهِ تَعَالَى

وَنُؤمِنُ بِأنَّ للهِ يَدَينِ كَرِيمَتَينِ عَظِيمَتَينِ؛ يَدَانِ تَثنِيةٌ، «كَرِيمَتَينِ» وَصْفٌ بالكرَمِ، «عَظِيمَتَينِ» وَصفٌ بِالعَظَمَةِ، وَلَابُدَّ لِكُلِّ صِفَةٍ مِن هَذِهِ الصِّفَاتِ دَلِيلٌ، أمَّا دَلِيلُ التَّثنِيةِ فَلِقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، وَقَالَ تَعَالَىٰ لِلشَّيطَانِ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص:٧٥]، أمَّا الدَّلِيلُ عَلَىٰ أنَّهُمَا كَرِيمَتَانِ فَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَبۡسُوطَتَانِ﴾، والبَسطُ ضِدُّ القَبضِ.

وَقَولُ النَّبيِّ ﷺ: «يَدُ اللهِ مَلأىٰ سَحَّاءُ اللَّيلَ وَالنَّهارَ»[1]، وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ أَنَّهُمَا عَظِيمَتَانِ قَولُهُ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧]، يَعنِي: مَا عَظَّمَ هَؤلَاءِ المُشرِكُونَ اللهَ حَقَّ تَعظِيمِهِ؛ حَيثُ جَعَلوا لَهُ أندَادًا لَا تُساوِي شَيئًا، لَا تَنفَعُ وَلَا تَضرُّ، وَلَيسَ لَهَا قُوَّةٌ ولَا سَمعٌ ولَا بَصرٌ، وَالحَالُ أنَّ الأرضَ جَمِيعًا بِمَا فِيهَا مِن جِبَالٍ وَأنهَارٍ وَأشجَارٍ ﴿قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

مَا هِيَ القَبضَةُ بِالنِّسبَةِ لَنَا؟ القَبضَةُ مَا يَقبِضُ عَلَيهِ الإنسَانُ، وَقَد جَاءَ فِي

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣).

الحَدِيثِ: أنَّ اللهَ يَجعَلُ كُلَّ الأرضِ عَلَىٰ إصبَعٍ، وَالسَّمَاءَ عَلَىٰ إصبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إصبَعٍ ... إلخ[1].

وَهَذَا يَدلُّ عَلَىٰ العَظَمَةِ، زِدْ عَلَىٰ هَذَا ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾، عَلَىٰ عِظَمِهَا وَسَعتِهَا مَطوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ، قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء:١٠٤]. وَالتَّشبِيهُ هُنَا لِلطَّيِّ بِالطَّيِّ لَكِن لَيسَ مَعنَاهُ أنَّ السَّمَواتِ مِثلُ سِجلِّ الكُتُبِ.

وَالسُّنَّةُ جَاءَتْ بِأنَّ كِلتَا يَدَيهِ يَمِينٌ، وَجَاءَتْ بِأنَّ اللهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- يَأخُذُ الأرضَ بِشمَالِهِ، وَالجَمعُ بَينَ النَّصَّينِ بِأنَّ الرَّسولَ ﷺ لَمَّا قَالَ: «**كِلتَا يَديهِ يَمينٌ**»[2] فَهَذَا مِنَ اليُمنِ وَالبَرَكَةِ.

وَصِفَةُ اليَدَينِ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّاتِيَّةِ الخَبَرِيَّةِ، التِي لَولَا أنَّ اللهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- أخبَرَنَا بِهَا مَا عَلِمنَاهَا، وَلِأنَّ مُسمَّاهَا بِالنِّسبَةِ لَنَا أبعَاضٌ وَأجزَاءٌ، أمَّا بِالنِّسبَةِ للهِ فَلا نَقولُ ذَلِكَ -تَعَالَىٰ اللهُ عَن ذَلِكَ عُلوًّا كَبيرًا-، وإنَّمَا هُوَ مَوصُوفٌ بِأنَّ لَهُ يَدَينِ كَرِيمَتَينِ عَظِيمَتَينِ، كَمَا أثبَتَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ وَعَلَىٰ لِسَانِ رَسولِهِ ﷺ.

وَمَا وَرَدَ مِن صِفَةِ اليَدَينِ عَلَىٰ سَبِيلِ الإفرَادِ: فَهَذَا المُفرَدُ لَا يَمنَعُ التَّعدُّدَ إذَا ثَبتَ التَّعدُّدُ؛ لأنَّ المُفرَدَ المُضَافَ يُفِيدُ العُمُومَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٧).

المُثَنَّىٰ وَالجَمعُ: اللهُ تَعَالَىٰ لَيسَ لَهُ إلَّا يدَانِ اثنَتَانِ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الكتَابِ والسُّنةِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، وَالمَقَامُ مَقَامُ تَشرِيفٍ، وَلَو كَانَ اللهُ خَلقَهُ بِأكثرَ مِن يَدينِ لَذَكَرَ ذَلِكَ.

وَفِي السُّنةِ قَولُهُ ﷺ: «**يَطوِي اللهُ تَعَالَىٰ السَّموَاتِ بِيمِينِهِ والأرضَ بِيدِهِ الأخرَىٰ**»[1]. فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهُمَا يَدَانِ اثنَتَانِ، وَالإجمَاعُ عَلَىٰ أنَّ للهِ يَدَينِ اثنَتَينِ فَقَط بِدونِ زِيَادَةٍ.

فَمَا نَصنَعُ بِقولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس:٧١]؟، فَهَذَا جمعٌ.

قَالَ العُلمَاءُ: الجَوابُ مِن وَجهَينِ:

١ - فَأَقَلُّ الجَمعِ اثنَانِ، كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم:٤]، فـ ﴿أَيْدِينَآ﴾ لَا تَدلُّ عَلَىٰ أكثَرَ مِنَ اثنَتَينِ، يَعنِي: لَا يَلزَمُ أنْ تَدُلَّ عَلَىٰ أكثَرَ مِنَ اثنَتَينِ.

٢ - وَلَكِنَّ جُمهُورَ أهلِ اللغَةِ عَلَىٰ أنَّ أقلَّ الجَمعِ ثَلَاثَةٌ.

المُرَادُ بـ: ﴿أَيْدِينَآ﴾: نَفسُ الذَّاتِ التِي لَهَا يَدٌ، وهُنَاكَ فَرقٌ بَينَ قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾، وَبينَ قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، فَاللهُ تَعَالَىٰ لَفَتَ الأنظَارَ لِلأنعَامِ وَبيَّنَ خَلقَهُ لَهَا بِقَولِهِ: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥١٩)، ومسلم (٢٧٨٧) بلفظ: «**يَقبِضُ اللهُ الأرضَ وَيَطوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ ...**».

فَالأنعَامُ لَم يَخلُقهَا اللهُ تَعَالَىٰ بِيدَيهِ، وإلَّا لَا فَارِقَ بَينَ آدَمَ وَالأنعَامِ مِن هَذِهِ الحَيثِيَّةِ، فَلَا تَشرِيفَ وَلَا تَفضِيلَ حِينئِذٍ، إذَن، المُرَادُ بِـ﴿أَيۡدِينَآ﴾ نَفسُ الذَّاتِ التِي لَهَا يَد، لَا عَلَىٰ سَبِيلِ الكَثرَةِ وَالتَّعدُّدِ.

بِمَاذَا نَردُّ عَلَىٰ مَن أوَّلَ اليَدَينِ بِالنِّعمَةِ أو القُدرَةِ كَمَا هُوَ قَولُ الأشَاعِرَةِ وَغَيرِهِم مِن أهلِ البِدَعِ؟

الرَّدُّ مِن وجُوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ الأصلَ فِي الكَلَامِ الحَقِيقَةُ فَدَعوَىٰ المَجَازِ مُخَالِفٌ لِلأصلِ.

الوَجهُ الثَّانِي: أنَّ ذَلِكَ خِلَافُ الظَّاهِرِ.

فَقَد اتَّفَقَ الأصلُ وَالظَّاهِرُ عَلَىٰ بُطلَانِ هَذِهِ الدَّعوَىٰ.

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ اطِّرَادَ لَفظِهَا فِي مَوَارِدِ الاستِعمَالِ، وَتَنوُّعَ ذَلِكَ، وَتَصرِيفَ استِعمَالِهِ يَمنَعُ المَجَازَ.

الوَجهُ الرَّابِعُ: أنَّ مِثلَ هَذَا المَجَازِ لَا يُستَعمَلُ بِلَفظِ التَّثنِيةِ، وَلَا يُستَعمَلُ إلَّا مُفرَدًا أو مَجمُوعًا.

الوَجهُ الخَامِسُ: أنَّهُ لَيسَ مِنَ المَعهودِ أنْ يُطلِقَ اللهُ عَلَىٰ نَفسِهِ مَعنَىٰ القُدرَةِ وَالنِّعمَةِ بِلَفظِ التَّثنِيةِ، بَل بِلَفظِ الإفرَادِ الشَّامِلِ لِجَمِيعِ الحَقِيقَةِ.

الوَجهُ السَّادِسُ: أنَّهُ لَو ثَبَتَ استِعمَالُ ذَلِكَ بِلَفظِ التَّثنِيةِ لَم يَجُز أنْ يَكُونَ

المُرَادُ بِهِ هُنَا (القُدرَة)؛ فَإِنَّهُ يُبطِلُ تَخصِيصَ آدَمَ، فَإِنَّهُ وَجَمِيعَ المَخلُوقَاتِ حتَّىٰ إبلِيسُ خُلِقُوا بِقُدرَةِ اللهِ.

الوَجهُ السَّابِعُ: أنَّ هَذَا التَّرتِيبَ المَذكورَ فِي قَولِهِ تَعالَىٰ: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ يَأبَىٰ حَملُ الكَلَامِ عَلَىٰ القُدرَةِ؛ فَإِنَّهُ نَسَبَ الخَلقَ إلَىٰ نَفسِهِ سُبحَانَهُ، ثُمَّ عَدَّىٰ الفِعلَ إلَىٰ اليَدِ، ثُمَّ ثَنَّاهَا، ثُمَّ أدخَلَ عَلَيهَا البَاءَ، وَمِثلُ هَذَا نَصٌّ صَرِيحٌ لَا يَحتَمِلَ المَجازَ بِوجهٍ مِنَ الوجُوهِ.

هَل للهِ أصَابعُ؟

نَعَم، للهِ أصَابعُ، عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بِهِ تَعَالَىٰ.

هَل ثُبوتُ الأصَابعِ مِن لَازِمِ ثُبُوتِ اليَدِ؟

لَا، لَكِنَّ إثبَاتَ الأصَابعِ جَاءَ بِأدِلَّةٍ أخرَىٰ؛ مِنهَا قَولُ رَسولِ اللهِ ﷺ: **«قُلُوبُ بَنِي آدَمَ بَينَ إصبَعَينِ مِن أصَابعِ الرَّحمَنِ»**(1).

وَنَقولُ: إنَّ قُلوبَنَا بَينَ إصبَعَينِ مِن أصَابعِ الرَّحمَنِ، وَلَكِنَّ هَذِهِ البَينِيةَ لَا تَستَلزِمُ المُمَاسَّةَ.

* * *

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٤).

الإيمانُ بِأن للهِ تَعَالى عَينَين

أجمَعَ أهلُ السُّنةِ عَلَىٰ أنَّ للهِ عَينَينِ اثنتَينِ، وَيؤيدُهُ قَولُ النَّبيِّ ﷺ فِي الدَّجَّالِ: «**إنَّهُ أعوَرُ وَلَيسَ رَبُّكُم بِأعوَرَ**»(١).

وَنُؤمِنُ بِأنَّ للهِ تَعَالَىٰ عَينَينِ اثنَتينِ حَقِيقِيَّتَينِ، «عَينَينِ» هَذَا تَثنِيةٌ «اثنتين» تَأكيدٌ «حَقيقِيَّتَينِ» نَفيٌ لِلمَجَازِ، وَالدَّليلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا**﴾ [هود:٣٧]، وَالجَمعُ جَمعٌ لَفظًا لَا مَعنًىٰ؛ لأنَّ الثَّابِتَ أنَّ للهِ عَينَينِ اثنَتَينِ، وَورُودُ الجَمعِ هَاهُنا إمَّا أنْ يُرادَ بِهِ مُطلَقُ التعَدُّدِ، وهُوَ عَلَىٰ قَولِ مَن يَقولُ: إنَّ أَقَلَّ الجَمعِ اثنَانِ.

وإمَّا أنْ يُرادَ بِهِ التَّعظِيمُ لَا حَقِيقَةُ العَدَدِ، وَوَجهُ ذَلِكَ أنَّهُ أضِيفَ إلَىٰ «نَا» التِي تَقتَضِي التَّعظِيمَ، وكِلَا الوَجهَينِ صَحِيحٌ.

وقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**حِجَابُهُ النُّورُ**»(٢)؛ أي: حِجَابُ الرَّبِّ ﷻ الذِي احتَجَبَ بِهِ عَنِ المَخلُوقَاتِ «النُّورُ»، وهُوَ نُورٌ عَظِيمٌ لَا يُشَابِهُ نورَ الشَّمسِ وَلَا غَيرهَا مِمَّا

(١) أخرجه البخاري (٣٠٥٧)، ومسلم (١٦٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٩).

تشَاهِدُ، بَل هُوَ أعظَمُ، وَمَعَ ذَلِكَ «**لَو كَشَفَهُ لأحرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجهِهِ مَا انتَهَىٰ إلَيهِ بَصرُهُ مِن خَلقِهِ**»(١).

السُّبُحَاتُ: البهَاءُ والعَظَمةُ وَالجَلالُ، لَو كُشِفَ هَذَا النُّورُ «**لأَحرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجهِهِ مَا انتَهَىٰ إلَيهِ بَصرُهُ مِن خَلقِهِ**».

الشَّاهِدُ مِنَ الحَدِيثِ قَولُهُ: «**بَصرُهُ**» حَيثُ أثبَتَ للهِ تَعَالَىٰ بَصَرًا.

وَقَولُهُ: «**لأحرَقَتْ سُبحَاتُ وَجهِهِ مَا انتَهَىٰ إلَيهِ بَصرُهُ**» لَا يُقَالُ: إنَّ هَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أنَّ لِبَصرِ اللهِ مُنتَهًىٰ، وَلَكنَّهُ فِيهِ دَليلٌ عَلَىٰ أنَّ المُبصَرَ لَهُ مُنتهًىٰ دُونَ البصَرِ، وَلَو كَشفَ اللهُ حِجابَهُ لَاحتَرَقَت كُلُّ الخَلائِقِ مِن النُّورِ العَظِيمِ.

«**مَا انتَهَىٰ إلَيهِ بَصرُهُ**» هَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أنَّ هَاتَينِ العَينَينِ يُبصِرُ بِهِمَا -جَلَّ وَعَلَا-؛ لأنَّ العَينَينِ هُمَا أدَاةُ الإبصَارِ.

وأجمَعَ أهلُ السُّنةِ عَلَىٰ أنَّ العَينَينِ اثنتَانِ: وَدَليلُ ذَلِكَ قَولُ النَّبيِّ ﷺ فِي الدَّجَالِ: «**إنَّهُ أعْورُ وإنَّ رَبَّكُم لَيسَ بِأعوَرَ**»(٢).

وَوَجهُ الدَّلَالَةِ: أنَّهُ لَو كَانَت للهِ تَعَالَىٰ أكثَرُ مِن عَينَينِ، لَكَانَت هَذِهِ الكَثرَةُ كَمالًا، وَلَمَّا لَم يَذكُرِ الثَّلاثَ عُلِمَ أنَّهُ لَيسَ لَهُ ثَلاثٌ، وأنَّ لَهُ اثنَتَينِ فَقَط، وَكَذَلِكَ قَولُهُ ﷺ فِي الدَّجَّالِ: «**مَكتُوبٌ بَينَ عَينَيهِ (كَافِرٌ) يَقرؤهُ كُلُّ مُؤمِنٍ؛**

---

(١) التخريج السابق نفسه.

(٢) تقدم تخريجه (ص١٢٣).

الكَاتِبُ وغَيرُ الكَاتِبِ»[١]، وَكَذَلِكَ قَولُ النَّبيِّ ﷺ: «وَاعلَمُوا أَنَّكُم لَن تَرَوا رَبَّكُم حَتَّىٰ تَمُوتُوا»[٢].

وَقَدْ فَسَّرَ أَهْلُ التَّحرِيفِ وَالتَّعطِيلِ العَينَ بِالرُّؤيَةِ بِدُونِ عَينٍ، وَقَالُوا: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾: بِرُؤيَةٍ مِنَّا، وَلَكِنْ لَا عَينَ، وَالعَينُ لَا يُمكِنُ أَنْ تُثبَتَ للهِ ﷻ أَبَدًا؛ لأَنَّ العَينَ جُزءٌ مِنَ الجِسمِ؛ فَإِذَا أَثبَتنَا العَينَ للهِ؛ أَثبَتنَا تَجزِئَةً وجِسمًا، وَهَذَا شَيءٌ مُمتَنِعٌ، فَلَا يَجُوزُ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ العَينَ مِن بَابِ تَأكِيدِ الرُّؤيَةِ؛ يَعنِي: كَأَنَّمَا نَرَاكَ، وَلَنَا عَينٌ، وَالأَمرُ لَيسَ كَذَلِكَ!!

وَهَذَا خَطَأٌ مِن عِدَّةِ أَوجُهٍ:

الوَجهُ الأَوَّلُ: أَنَّهُ مُخَالِفٌ لِظَاهِرِ اللَّفظِ.

الثَّانِي: أَنَّهُ مُخَالِفٌ لإِجمَاعِ السَّلَفِ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ لَا دَلِيلَ عَلَيهِ؛ أي: عَلَىٰ أَنَّ المُرَادَ بِالعَينِ مُجرَّدُ الرُّؤيَةِ.

الرَّابِعُ: أَنَّنَا إِذَا قُلنَا بِأَنَّهَا الرُّؤيَةُ، وَأَثبَتَ اللهُ لِنَفسِهِ عَينًا؛ فَلَازِمُ ذَلِكَ أَنَّهُ يَرَىٰ بِتِلكَ العَينِ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ فِي الآيَةِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهَا عَينٌ حَقِيقِيَّةٌ.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٣١)، ومسلم (٢٩٣٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٢٥٨)، وابن ماجه (٤٠٧٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٥٩).

الإيمانُ بِأن اللهَ لا يُرى يقظةً أبدًا وَأن المُؤمِنِينَ يَرَوَنَ رَبَّهُم يومَ القِيامَةِ

وَنُؤمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعالَىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، وَنُؤمِنُ بِأَنَّ المُؤمِنِينَ يَرَونَ رَبَّهُم يومَ القِيامَةِ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣].

هَاتَانِ آيَتَانِ تدُلَّانِ عَلَىٰ صِفَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ أَنَّ اللهَ تَعالَىٰ يُرَىٰ. فَمَتَىٰ يُرَىٰ؟ أمَّا فِي الدُّنيَا فَلا يُرَىٰ يقظَةً أبدًا؛ لأنَّ بَنِي آدَمَ لَا يَحتَمِلونَ النَّظَرَ إِلَىٰ اللهِ ﷻ ؛ لأنَّ أبدَانَهُم ضَعيفةٌ لَا تَحتَمِلُ.

أَمَّا رُؤيَةُ اللهِ تَعالَىٰ فِي الآخِرَةِ فَمُمكِنَةٌ؛ لأنَّ النَّاسَ فِي ذَلِكَ اليَومِ يَكونُونَ فِي عَالَمٍ آخَرَ، تَختَلِفُ فِيهِ أحوَالُهُم عَن حَالِهِم فِي هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنيَا.

وَدَلِيلُ استَحالَةِ رُؤيَةِ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعالَىٰ- فِي الدُّنيَا: قَولُه تَعالَىٰ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣]، وَإِذَا كَانَ الجَبَلُ عَجَزَ أنْ يَحتَمِلَ فَالبَشَرُ مِن بَابِ أولَىٰ.

هَل رَأىٰ النَّبيُّ ﷺ رَبَّهُ لَيلَةَ المِعرَاجِ؟

الجَوَابُ: لَا، وَلِهَذَا سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ: هَل رَأيتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: «**نُورٌ أَنَّىٰ أَرَاهُ**»[1]، وَفِي رِوَايَةٍ: «**رَأيتُ نُورًا**»[2]، وَهَذَا النُّورُ نُورُ الحِجَابِ، فَالنَّبيُّ ﷺ لَم يَرَ اللهَ فِي اليَقَظَةِ، أَمَّا مَنَامًا فَفِيهِ الحَدِيثُ المَشهورُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنِّي نَعَسْتُ، فَاسْتَثْقَلْتُ نَوْمًا، فَرَأَيْتُ رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَقَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلأُ الْأَعْلَىٰ**»[3].

إِذَنْ تَعيَّنَ أَنْ يَكُونَ الإِيمَانُ بِرؤيَةِ المُؤمِنِينَ رَبَّهُم يَومَ القِيامَةِ بِعرَصَاتِ القِيَامَةِ رُؤيَةَ امتِحَانٍ واختِبَارٍ، حَيثُ يَجتَمِعُ المُؤمِنونَ وَالمُنافِقونَ، ثُمَّ يَأتِيهِمُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الصُّورَةِ التِي يَأتِيهِم عَلَيهَا كَمَا يَشَاءُ ﷻ، وَالحِكمَةُ مِن تَمكِينِ المُنَافِقينَ مِن رُؤيَةِ اللهِ ﷻ هِيَ إظهَارُ الحَسرَةِ عَلَيهِم، ثُمَّ يَأمُرهُم بِالسُّجودِ، فَمَن كَانَ يَسجُدُ للهِ تَعَالَىٰ فِي الدُّنيَا طَوَاعِيةً عَن إيمَانٍ يَسجُدُ للهِ ﷻ، وَمَنْ لَا فَإِنَّ ظَهرَهُ يَصِيرُ طَبَقًا وَاحِدًا وَلَا يَستَطِيعُ السُّجودَ.

فَتزدَادُ حَسرَتُهُم؛ لأنَّ رُؤيَةَ الإنسَانِ مَا يُحِبُّ، ثُمَّ حِرمَانَهُ مِنهُ، أشدُّ مِن عَدَمِ رُؤيَتِهِ بِالكُلِّيةِ، أمَّا رُؤيَتهُ إيَّاهُ بَعدَ دُخولِ الجَنَّةِ -أسألُ اللهَ تَعَالَىٰ أنْ يَجعلَنِي وإِيَّاكُم مِمَّن يَرونَهُ فِي ذَلِكَ المَكَانِ- فَهِيَ رُؤيَةُ إكرَامٍ، يُكرِمُهُمُ اللهُ ﷻ إذَا

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٨).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٣٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

كَشَفَ الحِجَابَ لَهُم عَن وَجهِهِ فَرأَوهُ، ولَا يَرونَ نَعِيمًا أَلَذَّ مِن الرُّؤيَةِ وَالنَّظَرِ إِلَىٰ وَجهِ اللهِ؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «**أَسأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَىٰ وَجهِكَ**»[1].

فَنحنُ نُؤمِنُ بِأَنَّنَا نَرَىٰ رَبَّنَا يَومَ القِيَامَةِ عَلَىٰ الوَجهِ الذِي جَاءَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنةِ رُؤيَةً حَقِيقِيةً، أكدَّهَا الرَّسولُ ﷺ تَأكِيدًا بَالِغًا بِقولِهِ: «**إِنَّكُم سَتَرَونَ رَبَّكُم كَمَا تَرونَ القَمَرَ لَيلَةَ البَدرِ، لَا تُضامُونَ فِي رُؤيَتِهِ وَكَمَا تَرونَ الشَّمسَ صَحوًا لَيسَ دُونَهَا سَحَابٌ**»[2]؛ فَشَبَّهَ الرُّؤيَةَ بِالرُّؤيَةِ لَا المَرئِيَّ بِالمَرئِيِّ.

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣]. فَفِيهِ: نَفْيُ الإِدْرَاكِ، وَالرُّؤْيَةُ لَا تَسْتَلْزِمُ الإِدْرَاكَ، أَلَا تَرَىٰ الرَّجُلَ يَرَىٰ الشَّمْسَ، وَلَا يُحِيطُ بِهَا إِدْرَاكًا؟

فَإِذَا أَثْبَتْنَا أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُرَىٰ، لَم يَلْزَمْ أَنْ يَكُونَ يُدْرَكُ بِهَذِهِ الرُّؤْيَة؛ لأَنَّ الإِدْرَاكَ أَخصُّ مِن مُطْلَقِ الرُّؤْيَةِ.

وَنَفْيُ الإِدْرَاكِ يَدُلُّ عَلَىٰ وُجُودِ أَصْلِ الرُّؤْيَةِ؛ لأَنَّ نَفْيَ الأَخصِّ يَدَلُّ عَلَىٰ وُجُودِ الأَعَمِّ، وَلَو كَانَ الأَعَمُّ مُنْتَفِيًا لَوَجَبَ نَفْيُهُ، وَقِيلَ: لَا تَرَاهُ الأَبصَارُ؛ لأَنَّ نَفْيَهُ يَقْتَضِي نَفْيَ الأَخصِّ وَلَا عَكْسَ، وَلأَنَّهُ لَو كَانَ الأَعَمُّ مُنْتَفِيًا لَكَانَ نَفْيُ الأَخَصِّ إِيهَامًا وَتَلْبِيسًا يُنَزَّهُ عَنْهُ كَلَامُ اللهِ ﷻ.

(١) أخرجه النسائي (١٣٠٥)، وابن أبي عاصم (٣٧٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٣٠١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣).

الإيمانُ بأنَّ صِفَاتِ اللهِ ثبوتيَّةٌ ومنفيَّةٌ

وَنُؤمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَا مِثلَ لَهُ، لِكمَالِ صِفَاتِهِ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وَنُؤمِنُ بِأَنَّهُ: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، لِكمَالِ حَيَاتِهِ وَقَيومِيَّتِهِ.

هَذَا أَوَانُ الشُّرُوعِ فِي ذِكْرِ الصِّفَاتِ التِي يُسمِّيهَا بَعضُهُم: (السَّلبِيَّةِ)، وَبَعضُهُم يُسَمِّيهَا: (الصِّفَاتِ المَنفِيةَ)، وَهَذَا التَّعبِيرُ أحسَنُ فَيُقَالُ: صِفَاتُ اللهِ ثُبوتِيةٌ وَمَنفِيةٌ؛ أي: ثَابِتَةٌ وَمَنفِيَّةٌ؛ لأنَّ الصِّفَاتِ التِي وَصَفَ اللهُ بِهَا نَفسَهُ إمَّا مُثبَتَةٌ وإمَّا مَنفِيَّةٌ.

قُلْتُ: ولَكنَّ الصَّوَابَ: أنَّهُ لَا فَرقَ، لأنَّ السَّلبَ وَالنَّفْيَ مَعنَاهُمَا وَاحِدٌ، فَإذَا قُلتَ: فُلَانٌ لَم يَقُم، فَمعنَىٰ هَذَا أَنَّهُ مَسلُوبٌ عَنهُ القِيَامُ؛ أَي: مَنْفِيٌّ عَنْهُ، وَلَا إشكَالَ فِي ذَلِكَ، وهَذَا أولَىٰ مِمَّا استَحسَنَهُ بِقولِهِ: وَهَذَا التَّعبِيرُ أحسَنُ.

طَرِيقَةُ السَّلَفِ: تَتَضَمَّنُ إثبَاتَ الأسمَاءِ وَالصِّفَاتِ، مَعَ نَفْيِ مُمَاثَلَةِ المَخلُوقَاتِ، إثبَاتًا بِلَا تَشبِيهٍ وتَنزِيهًا بِلَا تَعطِيلٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ

شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، فَفِي قولِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ رَدٌّ لِلتَّشبِيهِ وَالتَّمثِيلِ، وَفِي قَولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ رَدٌّ لِلإلحَادِ وَالتَّعطِيلِ.

* وَالأصلُ فِي بَابِ الأسمَاءِ وَالصِّفَاتِ أنْ يُوصَفَ اللهُ تَعَالَىٰ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفَسَهُ وَبِمَا وَصَفَتهُ بِهِ رُسُلُهُ نَفيًا وَإثبَاتًا، فَيُثبَتُ للهِ مَا أثبَتَهُ لِنفسِهِ، ويُنفَىٰ عَنهُ مَا نَفَاهُ عَن نَفسِهِ.

* * *

ضَابِطُ الصفَاتِ المَنْفِيةِ

نَقولُ: ضَابِطُ الصِّفَاتِ المَنفِيَّةِ أَنَّهُ يُنْفَىٰ عَن اللهِ:

أولًا: كُلُّ صِفَةِ عَيبٍ: فَلا تُذكَرُ للهِ إطلَاقًا. مِثل: العَمَىٰ، هَذَا مَنفيٌّ عَن اللهِ؛ لأنَّ العَمَىٰ نَقصٌ.

ثَانِيًا: كُلُّ صِفَةِ نَقصٍ فِي كَمَالِهِ: أي: أنَّ صِفَاتِهِ الكَامِلَةَ لَا يُمكِنُ أنْ يَعتَرِيَهَا نَقصٌ. فَبَصرُهُ -مَثَلًا- لَا يَضعُفُ، وكذَلكَ سَمعُهُ وقُوَّتُهُ.

وَالفَرقُ بينَهُمَا: أنَّ الأوَّلَ: نَنفِي عَنهُ صِفَةَ العَيبِ مُطلَقًا، وَالثَّانِي: نَنفِي عَنهُ عَيبَ صِفَةِ الكَمَالِ، وَهُوَ نَقصُهَا.

ثَالِثًا: كُلُّ مُمَاثَلَةٍ لِلمَخلُوقِينَ: فَمُمَاثَلَةُ المَخلُوقِينَ مَنفِيَّةٌ، ويَجِبُ نَفيُهَا حَتَّىٰ وَإنْ كَانَت كَمَالًا فِي المَخلُوقِ، فَإنَّنَا نَنفِيهَا عَن اللهِ ﷻ.

وَالصِّفَاتُ المَنفِيةُ: هِيَ التِي نَفَاهَا اللهُ ﷻ عَن نَفسِهِ فِي كِتَابِهِ، أو عَلَىٰ لِسَانِ رَسولِهِ ﷺ، وَكُلُّهَا صِفَاتُ نَقصٍ فِي حَقِّهِ -جَلَّ وَعَلَا- كَالمَوتِ وَالجَهلِ والنَّومِ والنِّسيَانِ وَالعَجزِ وَالتَّعَبِ، وَهَذِهِ الصِّفَاتُ يَجِبُ نَفيُهَا عَن اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-.

عَلَىٰ أَنَّهُ لَابُدَّ أَنْ يُعتَبرَ أمرٌ مُهِمٌّ: وهُوَ أَنَّهُ لَيسَ الوَاجِبُ مُجرَّدَ نَفيِهَا فَقَطْ؛ بَل الوَاجِبُ اعتِقَادُ ضِدِّهَا.

فَالنَّفيُ المَحضُ عَدَمٌ مَحضٌ لَا يَترَتَّبُ عَلَيهِ شَيءٌ مِن كَمَالٍ.

*** الفِرَقُ التِي تُخَالِفُ طَرِيقَةَ الرُّسلِ تُخالِفُهَا مِن وجُوهٍ:**

أوَّلًا: أَنَّهُم لَا يَصِفُونَ الحَقَّ سُبحَانَهُ إِلَّا بِالصِّفَاتِ السَّلبِيَّةِ؛ وَالمَقصُودُ بِهَا: المَنفِيَّةُ عَن اللهِ نَفيًا لَا يتَضَمَّنُ إثبَاتَ كَمَالِ الضِّدِّ؛ بَل هُوَ نَفيٌ مَحضٌ.

ثَانِيًا: أَنَّهُم يُفصِّلونَ فِي النَّفي ولَا يُجمِلونَ، وطَرِيقَةُ الرُّسلِ: الإجمَالُ فِي النَّفي، وَلَا يَأتِي التَّفصِيلُ إلَّا لأسبَابٍ.

ثالِثًا: أَنَّهُم لَا يثْبِتُونَ إلَّا وجُودًا مُطلَقًا، وَالوجُودُ المُطلَقُ هُوَ الوجُودُ العَامُّ الكُلِّيُّ الذِي يَصدُقُ عَلَىٰ كَثِيرينَ فِي الذِّهنِ.

وَنُؤمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَا مِثلَ لَهُ لِكمَالِ صِفَاتِهِ: لَا لِعَدَمِ صِفَاتِهِ لَيسَ لَهُ مَثِيلٌ؛ لأَنَّهُ مَا مِن مَوجُودٍ إلَّا وَلَهُ صِفَةٌ، وَلَكنَّ المُرَادَ لَا مِثْلَ لَهُ لكَمَالِ صِفَاتِهِ.

وَالجمعُ بَينَ النَّفي وَالإثبَاتِ فِي بَابِ الصِّفَاتِ هُوَ حَقِيقَةُ التَّوحِيدِ فِيهِ؛ لأنَّ التَّوحِيدَ مَصدَرُ (وَحَّدَ، يُوحِّدُ)، وَلَا يُمكِنُ تَحقِيقُ صِدقِ حَقِيقَتِهِ إلَّا بِنَفيٍ وإثبَاتٍ، لأنَّ الاقتِصَارَ عَلَىٰ النَّفي المَحضِ تَعطِيلٌ مَحضٌ، وَالاقتِصَارَ عَلَىٰ الإثبَاتِ المَحضِ لَا يَمنَعُ المُشَارَكَةَ.

وَالصِّفَاتُ الثُّبوتِيَّةُ التِي وَصَفَ اللهُ بِهَا نَفسَهُ كُلُّهَا صِفَاتُ كَمَالٍ، وَالغَالِبُ

فِيهَا التَّفصِيلُ؛ لأَنَّهُ أبلَغُ فِي تَعظِيمِ المَوصُوفِ.

وَأَمَّا الصِّفَاتُ المَنفِيَّةُ التِي نَفَاهَا اللهُ عَن نَفسِهِ فَكلُّهَا صِفَاتُ نَقصٍ، وَلَا تَلِيقُ بِهِ تَعَالَىٰ، وَالغَالِبُ فِيهَا الإجمَالُ؛ لأنَّ ذَلِكَ أكمَلُ فِي التَّنزِيهِ.

وَلِهَذَا كَانَتِ الصِّفَاتُ الثُّبوتِيَّةُ التِي أثبَتَهَا اللهُ لِنَفسِهِ، أكثَرَ مِنَ الصِّفَاتِ المَنفِيةِ التِي نَفَاهَا اللهُ عَن نَفسِهِ.

وَنُؤمِنُ بِأَنَّهُ لَا تَأخُذهُ سِنَةٌ وَلَا نَومٌ، السِّنَةُ: النُّعَاسُ وَهُوَ مُقدِّمَةُ النَّومِ؛ مِن الفُتورِ وانطِبَاقِ العَينَينِ وَغِيَابِ الحَواسِّ عَن إدرَاكِهَا، وَيكُونُ فِي الرَّأسِ مِن غَيرِ نَومٍ، وَالنَّومُ مَعروفٌ وَهَذَا كُلُّهُ بِالنِّسْبَةِ لِلْإِنْسَانِ. «لَا تَأخُذُهُ» أي: لَا تَغلِبُهُ، بَينَمَا البَشرُ الأصِحَّاءُ يَغلِبُهُمُ النَّوْمُ وَالنُّعاسُ بِالرَّغمِ مِنهُم.

وَالنَّومُ بِالنِّسبَةِ لِلإنسَانِ صِفَةُ كَمَالٍ، لأنَّهُ إذَا نَامَ يَستَرِيحُ، وإذَا لَم يَنَم يُعَدُّ ذَلِكَ عَيبًا ونَقصًا فِيهِ، أمَّا بِالنِّسبَةِ للهِ فَهُوَ صِفَةُ نَقصٍ لَا يُوصَفُ بِهِ.

لِكَمَالِ حَيَاتِهِ وقَيومِيتِّهِ؛ لأنَّ الحيَاةَ النَّاقِصَةَ تحتَاجُ إلَىٰ نَومٍ، وَالقِيَامُ النَّاقِصُ يَنَامُ فِيهِ القَائِمُ عَلَىٰ الشَّيءِ، وَاللهُ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ، بِتَمَامِ القَيُّومِيَّةِ؛ فَلَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ.

وَنُؤمِنُ بِأَنَّهُ لَا يَظلِمُ أحَدًا لِكمَالِ عَدلِهِ: فَنَفيُ الظُّلمِ عَن اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- مِن الصِّفَاتِ السَّلبيةِ «المَنفِيةِ» فَالظُّلمُ مَنفِيٌّ عَن اللهِ -جَلَّ وَعَلَا- كَالسِّنَةِ وَالنَّومِ، وَالدَّليلُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٩]، وَالظُّلمُ هُوَ النَّقصُ وَالعُدوَانُ فَهُوَ: إمَّا نَقصُ وَاجِبٍ، وَإمَّا عُدوَانٌ وَتَجَاوزُ حَدٍّ.

فَأصلُ الظُّلمِ فِي اللغةِ: النَّقصُ، فَاللهُ ﷻ لَا يَظلِمُ؛ يَعنِي: لَا يُمكِنُ أنْ يُحمِّلَ أحَدًا إثمَ مَا لَم يَعمَلهُ «وَهَذَا عُدوَانٌ»، وَلَا يُمكِنُ أنْ يُنقِصَ ثوابَ أحدٍ لِعَملٍ عَمِلَهُ «فَهَذَا نَقصٌ».

فَلا يُمكِنُ أنْ يَأتِيَ مِنهُ -جَلَّ وَعَلَا- شَيءٌ مِن ذَلكَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢]، أي: لَا يَخَافُ ظُلمًا بِزِيَادَةِ سَيِّئَاتِهِ، وَلَا هَضمًا بِنَقصِ حَسَنَاتِه.

وَقَد يُنفَىٰ الظُّلمُ عَن الشَّيءِ لأَنَّهُ غَيرُ قَابِلٍ لِلظُّلمِ أصلًا؛ كأنْ تَقولَ: الجِدارُ لَا يَظلِمُ، فَكَونُ الله لَا يَظلِمُ أحَدًا، إنَّمَا ذَلِكَ لِكَمَالِ عَدلِهِ، لَا لِعَجزِهِ عَن الظُّلمِ؛ لأَنَّهُ قَادِرٌ، وَلَا لِكَونِهِ لَا يَقبَلُ الاتِّصَافَ بِالظُّلمِ؛ لأَنَّهُ يَستَطِيعُ أنْ يَتَّصفَ بِذَلِكَ، وَحَاشَاهُ مِن هَذَا ﷻ.

وَلِهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ القُدسِي: «يَا عِبَادِي إنِّي حَرَّمتُ الظُّلمَ عَلَىٰ نَفسِي»[1]، وَلَو كَانَ غَيرَ قَادِرٍ عَلَىٰ ذَلِكَ لَمَا تَمدَّحَ بِهَذَا، وَلَمَا أثنَىٰ بِهِ عَلَىٰ نفسِهِ.

*** فَاللهُ تَعَالَىٰ لَا يُوصَفُ بِالنَّفيِ المَحضِ لِمَا يَلِي:**

أوَّلًا: لأنَّ النَّفيَ المَحضَ عَدَمٌ مَحضٌ، وَالعَدَمُ لَيسَ بِشَيءٍ فَضلًا عَنْ أنْ يَكُونَ كَمَالًا.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

ثَانِيًا: لأنَّ نَفي الشَّيءِ عَن الشَّيءِ قَد يَكُون لِعَدَمِ قَابِليَّتِهِ لَهُ، لَا لِكَمَالِهِ الذِي أوجَبَ أنْ يَنتَفِيَ عَنهُ ذَلِكَ الشَّيءُ.

ثَالِثًا: لأنَّ النَّفيَ قَد يَكُون لِلعَجزِ عَن المَنفِيِّ، فَيكُونُ النَّفيُ حِينئذٍ نَقصًا.

فَيَجِبُ عَلَينَا نَحوَ صِفَاتِ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- المَنفِيَّةِ التِي نفَاهَا اللهُ تَعَالَىٰ عَن نَفسِهِ فِي كِتَابِهِ، أو عَلَىٰ لِسَانِ رَسولِهِ ﷺ، أنْ نُؤمِنَ بانتِفَائِهَا لَا لِمُجرَّدِ الانتِفَاءِ، وَلَكِن لِثُبُوتِ كَمَالِ ضِدِّهَا؛ وَحِينئذٍ تَكُونُ هَذِهِ الصِّفَةُ صِفَةَ كَمَالٍ.

وَنُؤمِنُ بِأنَّهُ لَيسَ بِغَافِلٍ عَن أعمَالِ عِبَادِهِ، وَالدَّليلُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة:٧٤]، لَا يَغفُلُ، **لِكَمَالِ رِقَابَتِهِ وإحَاطَتِهِ، لَا يَغفُلُ عَن شَيءٍ، كُلُّ شَيءٍ يَعلَمُهُ -جَلَّ وَعَلَا- فِي وَقتِهِ وَفِي حِينِهِ.**

وَاللهُ تَعَالَىٰ لَهُ العِلمُ، وَهِيَ صِفَةُ كَمَالٍ لَهُ، وَعِلمُ النَّاسِ مَسبوقٌ بِالجَهلِ مَلحُوقٌ بِالنِّسيَانِ، وَيَعتَوِرُهُ فِيمَا بَينَ هَذَا وَهَذَا مَا يَعتَرِيهِ مِن الآفَاتِ، وَأمَّا عِلمُ اللهِ تَعَالَىٰ فَهُوَ عِلمٌ كَامِلٌ شَامِلٌ مُحِيطٌ، لَيسَ مَسبُوقًا بِجَهلٍ وَلَا مَلحُوقًا بِنسيَانٍ، حَاشَاهُ، فَهُوَ يَعلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُون وَمَا لَم يَكُن لَو كَانَ كَيفَ كَانَ يَكُونُ.

وَنُؤمِنُ بِأنَّهُ لَا يُعجِزُهُ شَيءٌ فِي السَّموَاتِ وَلَا فِي الأرضِ؛ لِكَمَالِ عِلمِهِ وَقُدرَتِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر:٤٤].

فَلِعلمِهِ لَا يُعجِزُهُ، وَلِقدرَتِهِ لَا يُعجِزُهُ، لأنَّ العَاجِزَ عَن تَحصِيلِ الشَّيءِ يَكُونُ عَجْزُهُ إمَّا لِجَهلِهِ بِأسبَابِ حُصولِهِ، وإمَّا لِعجزِهِ عَن إيجَادِهِ.

لَا يَلحَقُهُ تَعبٌ وَلَا إعيَاءٌ؛ يَعنِي: فِيمَا يَفعَلُ مَهمَا عَظُمَ، ودَلِيلُ ذَلِكَ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]، الجُملَةُ مُؤَكَّدَةٌ بِاللَّامِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ القَسَمِ، وَالقَسَمُ المَتبُوعُ عَلَيهِ بِاللَّامِ، ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أي: مَا مَسَّنَا مِن تَعبٍ وَلَا مِن إعيَاءٍ؛ لِكمَالِ قُدرَتِهِ وَتَمَامِ قُوتِهِ -جَلَّ وَعَلَا-، وَهَذِهِ مِنَ الصِّفَاتِ المَنفِيةِ.

* * *

حَقِيقَةُ التوحِيدِ فِي الأسمَاءِ وَالصفَاتِ

وَنُؤمِنُ بِثبوتِ كُلِّ مَا أثبَتَهُ اللهُ لِنَفسِهِ، أو أثبَتَهُ لَهُ رَسولُهُ ﷺ مِنَ الأسمَاءِ وَالصِّفَاتِ: فَكُلُّ مَا أثبَتَهُ اللهُ لِنَفسِهِ وَجَبَ عَلَينَا الإيمَانُ بِهِ، وَالتَّصدِيقُ بِهِ، وَاعتِقَادُهُ، وأنَّهُ حَقٌّ، وَكَذَلِكَ مَا أثبَتَهُ لَهُ رَسولُهُ ﷺ نُؤمِنُ بِهِ عَلَىٰ الوَجهِ الذِي أرَادَ اللهُ تَعَالَىٰ وَرَسولُهُ ﷺ، لَا نُبَدِّلُ وَلَا نُحرِّفُ، وَلَا نُغيِّرُ، لَكِن نَتبرَّأُ مِن مَحذُورَينِ عَظِيمَينِ:

١- **التَّمثِيلُ:** بِأنْ يَقولَ بِقَلبِهِ أو بِلسَانِهِ: صِفَاتُ اللهِ تَعَالَىٰ كَصِفَاتِ المَخلُوقِينَ.

نَحنُ نَتَبرَّأ مِن هَذَا؛ تَصدِيقًا بِقولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وامتِثَالًا لِقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤]، واجتِنَابًا لِقِيَاسِ الخَالِقِ بِالمَخلُوقِينَ.

وَلِهَذَا نَقولُ: التَّمثِيلُ تَكذيبٌ لِلخبَرِ فِي قَولِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وَعِصيَانٌ لِلأمرِ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾، وَمَجَانَبَةٌ لِلعَقلِ فِي قِيَاسِ الخَالِقِ عَلَىٰ المَخلُوقِ، فَالتَّمثِيلُ مُمتَنِعٌ شَرعًا وَعَقلًا.

وَالتَّمثِيلُ: هُوَ إثبَاتُ مَثِيلٍ لِلشَّيءِ، وَهُوَ يَقتَضِي المُسَاوَاةَ فِي جَمِيعِ الصِّفَاتِ.

وَالتَّشبِيهُ: هُوَ إثبَاتُ مُشَابِهٍ لِلشَّيءِ، وَهُوَ يَقتَضِي المُسَاوَاةَ فِي أكثَرِ الصِّفَاتِ.

(٢) **التَّكْيِيفُ**: بَأنْ يَقولَ الإنسَانُ بِقلبِهِ أو بِلسَانِهِ: كَيفِيَّةُ صِفَاتِ اللهِ كَذَا وَكَذَا، وَالدَّلِيلُ قَولُهُ: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣]، فَمَنْ كَيَّفَ أيَّ صِفَةٍ مِن صِفَاتِ اللهِ، فَقَد قَالَ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ مَا لَم يَعلَمْ؛ لأنَّ اللهَ أخبَرَ عَنِ الصِّفَةِ وَلَم يُخبِر عَن كَيفِيَّتِهَا.

* **الفَرقُ بَينَ التَّمثِيلِ وَالتَّكيِيفِ:**

التَّمثِيلُ: أنْ يَذكُرَ الصِّفَةَ أو أنْ يَذكُرَ كَيفِيَّةَ الصِّفَةِ، مُقَيَّدَةً بِمُمَاثِلٍ.

أمَّا التَّكيِيفُ: فَأنْ يَذكُرَ كَيفِيةً لَا تُقَيَّدُ بِمُمَاثِلٍ، بَل يُكَيِّفُ كَيفِيَّةً تَصَوَّرَهَا فِي عَقلِهِ.

وَعَلَىٰ هَذَا: فَكُلُّ مُمَثِّلٍ مُكَيِّفٌ، وَلَيسَ كُلُّ مُكَيِّفٍ مُمَثِّلًا؛ لأنَّ المُكَيِّفَ قَد يَذكُرُ كَيفِيَّةً لَيسَ لَهَا نَظِيرٌ؛ أمَّا المُمَثِّلُ فَيذكُرُ كَيفَيَّةً لَهَا نَظِيرٌ.

* **وَالتَّشبِيهُ عَلَىٰ نَوعَينِ:**

أحدُهُمَا: تَشبِيهُ المَخلُوقِ بِالخَالِقِ: وَمَعنَاهُ إثبَاتُ شَيءٍ لِلمَخلُوقِ مِمَّا يَختَصُّ بِهِ الخَالِقُ مِنَ الأفعَالِ وَالحُقوقِ وَالصِّفَاتِ.

وَالثَّانِي: تَشبِيهُ الخَالِقِ بِالمَخلُوقِ: وَمَعنَاهُ: إثبَاتُ خَصَائِصَ للهِ تَعَالَىٰ فِي ذَاتِهِ أو صِفَاتِهِ، مِثلمَا يُثبَتُ لِلمَخلُوقِ مِن ذَلكَ.

أيُّهُمَا أعظَمُ: التَّمثِيلُ أو التَّكييفُ؟

التَّمثِيلُ أعظَمُ؛ لأنَّهُ تَكذِيبٌ للخَبَرِ وَعِصيَانٌ لِلأمرِ.

وَنُؤمِنُ بِانتِفَاءِ كُلِّ مَا نَفَاهُ اللهُ عَن نَفسِهِ أو نَفَاهُ عَنهُ رَسولُهُ ﷺ، وَأنَّ النَّفيَ يَتَضمَّنُ إثبَاتًا لِكمَالِ ضِدِّهِ: مَا نَفَاهُ عَن نَفسِهِ نُؤمِنُ بِأنَّهُ مُنتَفٍ عَن اللهِ؛ لأنَّ اللهَ أخبرَنَا أنَّهُ مُنتَفٍ عَنهُ، فَيجِبُ عَلَينَا الإيمَانُ بِذَلكَ.

لَكِن نَزِيدُ عَلَىٰ هَذَا إثبَاتَ كَمَالِ الضِّدِّ؛ لأنَّنَا نُؤمِنُ بِأنَّهُ لَا يُوجَدُ نَفيٌ مَحضٌ فِي صِفَاتِ اللهِ، إذْ إنَّ النَّفيَ المَحضَ عَدَمٌ مَحضٌ، والعَدَمُ المَحضُ لَيسَ بِشَيءٍ فَضلًا عَن أَنْ يَكُون كَمَالًا، وَاللهُ ﷻ إنَّمَا نَفَىٰ مَا نَفَىٰ مِن صِفَاتِ النَّقْصِ لِيُبَيِّنَ كَمَالَهُ، لَيسَ لأنَّهُ يَنفِي ذَلِكَ فَقَط.

وَنَسكُتُ عَمَّا سَكَتَ اللهُ عَنهُ وَرَسولُهُ ﷺ: وَهَذا هُوَ العَقلُ، وَحِفظُ الشَّرعِ، وَهُوَ الأدَبُ مَعَ اللهِ.

مَا أثبَتَهُ تَعَالَىٰ أثبَتنَاهُ، وَمَا نَفَاهُ نَفينَاهُ، وَمَا سَكَتَ عَنهُ سَكتنَا عَنهُ.

وَعَلَىٰ هَذَا: إذَا قَالَ قَائِلٌ: مَا تَقولُ فِي الجِسمِ؟ مَا تَقولُ فِي الجِهَةِ؟ مَا تَقولُ فِي الحَيِّزِ؟ مَا تَقولُ فِي الحَدِّ؟

الجَوابُ: نَقولُ لَهُم: إنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَم يَصِفْ نَفسَهُ بِأنَّهُ جِسمٌ، وَلَا بِأنَّهُ

غيرُ جِسمٍ، إذَن يَكُون موقِفُنَا عَقلًا وَنَظرًا: السُّكوتُ.

وَيَنطَبِقُ هَذَا أيضًا عَلَىٰ الجِهَةِ: فَنَقولُ: مَاذَا تُريدُ بِالجِهَةِ؟

فَإنْ قَالَ: إنَّ الجِهَةَ شَيءٌ مَخلُوقٌ مُحيطٌ باللهِ، فَنَقُولُ: تَعَالَىٰ اللهُ عَن ذَلِكَ عُلوًّا كَبِيرًا، وإنْ أَرَادَ بِالجِهَةِ مَا فَوقَ العَالَمِ فَهَذَا حَقٌّ ثَابِتٌ للهِ ﷻ .

إذَن؛ فَالقَاعِدَةُ: أنَّ اللَّفظَ لَا نَنفِيهِ وَلَا نُثبِتُهُ لِعَدَمِ ورُودِ السَّمعِ بِهِ إثبَاتًا وَلَا نَفيًا، وَأمَّا المَعنَىٰ فَيُنظرُ: مَا المُرَادُ؟ فَإنْ كَانَ المُرَادُ أنَّ المَخلُوقَاتِ تُحيطُ بِهِ وَتَحوزُهُ فَهَذَا مَعنًىٰ بَاطِلٌ مَنفِيٌّ عَن اللهِ ﷻ ، وإنْ كَانَ المُرادُ أنَّ اللهَ مُبَاينٌ لِلمَخلُوقَاتِ، لَيسَ حَالًّا فِيهَا ولَا هِيَ حَالَّةٌ فِيهِ، فَهُوَ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بَائِنٌ مِن خَلقِهِ مُستَوٍ عَلَىٰ عَرشِهِ بِذَاتِهِ، لَيسَ بِدَاخِلٍ فِي شَيءٍ مِن خَلقِهِ، وَلَا شَيءٌ مِن خَلقِهِ بِدَاخِلٍ فِيهِ، إنْ كَانَ هَذَا هُوَ المُرَادُ فَهَذَا حَقٌّ ثَابتٌ للهِ ﷻ .

وَنَرَىٰ أنَّ السَّيرَ عَلَىٰ هَذَا الطَّرِيقِ فَرضٌ لَابُدَّ مِنهُ: هَذَا حُكمُ السَّيرِ عَلَىٰ مَنهَجِ السَّلَفِ نَرَىٰ أنَّهُ «فَرضٌ لَابُدَّ مِنهُ»؛ لَابُدَّ أنْ يَسِيرَ الإنسَانُ عَلَىٰ هَذِهِ القَاعِدَةِ وَهِيَ:

(أ) إثبَاتُ مَا أثبَتَهُ اللهُ لِنَفسِهِ.

(ب) نَفيُ مَا نَفَاهُ اللهُ عَن نَفسِهِ مَعَ اعتِقَادِ ثُبوتِ كَمَالِ ضِدِّهِ.

(جـ) السَّكوتُ عَمَّا سَكَتَ اللهُ عَنهُ؛ وَذَلكَ:

لأنَّ مَا أثبَتَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لِنَفسِهِ، أو نَفَاهُ عَنهَا، فَهُوَ خَبرٌ أخبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ

عَن نَفسِهِ، وَهُوَ سُبحَانَهُ أعلَمُ بِنفسِهِ، وَأصدَقُ قِيلًا، وَأحسَنُ حَدِيثًا، وَالعِبَادُ لَا يُحيطُونَ بِهِ عِلمًا، وإذَا كَانَ كَذَلِكَ وَجَبَ تَفويضُ الأمرِ إلَىٰ اللهِ، وَتَصدِيقُ خَبَرِهِ بِمَا أخبَرَ.

ومَا أثبَتَهُ لَهُ رَسُولُهُ أو نَفَاهُ عَنهُ، فَهُوَ خَبرٌ أخبَرَ بِهِ عَنهُ، وهُوَ أعلَمُ النَّاسِ بِربِّهِ، وَأفصَحُ الخَلقِ، وأصدَقُهُم، وأفصَحُهُم، وَهَذَا الأمرُ لَا جِدَالَ فِيهِ، فَفِي كَلَامِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَكَلَامِ رَسولِهِ ﷺ كَمَالُ العِلمِ والصِّدقِ وَالبَيَانِ، فَلا عُذرَ فِي رَدِّهِ أو التَّرَدُّدِ فِي قَبولِهِ، وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ مُهِمَّةٌ، نَسأَلُ اللهَ أنْ يَجعَلَنَا وإيَّاكُم مِن أهلِ السُّنةِ المُتَّبِعِينَ لِلآثَارِ وَالأخبَارِ الصَّحِيحَةِ.



مَذهَبُ أهْلِ السنةِ فِي إثبَاتِ الأسمَاءِ وَالصفَاتِ

أَسْمَاءُ اللهِ -تبَارَكَ وَتعَالَىٰ- وَصِفَاتُهُ توقِيفِيَّةٌ، بِمعنَىٰ أنَّنَا نَتوقَّفُ فِي ذَلِكَ عِندَ حُدودِ الوَارِدِ فِي الكِتَابِ وَالسُّنةِ الثَّابتَةِ، فَلا تُثبَتُ الأسمَاءُ وَالصِّفَاتُ بِغَيرِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ، كَالقِياسِ وَالاستِحسَانِ العَقلِيِّ، وَأمَّا الإجمَاعُ فَلا يُمكِنُ أنْ يَكُون الإجمَاعُ مَبنيًّا إلَّا عَلَىٰ الكِتَابِ والسُّنةِ، وَحِينئذٍ يكُون مَرجِعُهُ إلَىٰ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ لأنَّهَا لَيسَت حُكمًا، وإنَّمَا هِيَ خَبرٌ مَبنيٌّ عَلَىٰ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وعَلَىٰ هذَا، فَمَا وَرَدَ إثبَاتُهُ للهِ مِن ذَلِكَ فِي الكتَابِ وَالسُّنةِ وَجَبَ إثبَاتُهُ، ومَا وَرَدَ نَفيهُ فِي الكِتَابِ وَالسُّنةِ وَجَبَ نَفيهُ مَعَ إثبَاتِ كَمَالِ ضِدِّهِ، وَمَا لَم يَرِد إثبَاتُهُ وَلَا نَفيُهُ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ «كَالجِهَةِ وَالحَيِّزِ»؛ فَقَد وَجَبَ التَّوَقفُ فِي لَفظِهِ فَلا يُثبَتُ ولَا يُنفَىٰ؛ لِعَدَمِ ورُودِ الإثبَاتِ وَالنَّفي فِي الكِتَابِ وَالسُّنةِ، لَكِن لَايُدَّ مِنَ الاستِفصَالِ، فَنقولُ فِي اللفظِ: إنَّهُ لَم يَرِد، وأمَّا المَعنَىٰ فَنَقُولُ لِلْقَائِلِ: مَاذَا تُرِيدُ؟ إنْ أَرَادَ بِالمَعنَىٰ مَا يَليقُ بِاللهِ تَعَالَىٰ قَبِلنَاهُ، وَإنْ أَرَادَ بِالمَعنَىٰ مَا لَا يَليقُ بِاللهِ تَعَالَىٰ رَدَدنَاهُ.

وَكُلُّ مَا ذَكرنَاهُ مِن صِفَاتِ اللهِ تَفصِيلًا أو إجمَالًا، إثبَاتًا أو نَفيًا، فَإنَّنَا فِي ذَلِكَ عَلَىٰ كِتَابِ رَبِّنَا، وَسُنَّةِ نَبِيِّنَا مُعتَمِدُونَ، وَعَلَىٰ مَا سَارَ عَلَيهِ سَلَفُ الأمَّةِ، وَأئِمَّةُ

الهُدَىٰ مِن بَعدِهِم سَائِرونَ.

مِثالُ التَّفصِيلِ: قَولُهُ تَعالَىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر:٢٢]، إلَىٰ آخِرِ مَا ذَكَرَ اللهُ، كُلُّهَا اشتَمَلَتْ عَلَىٰ أسمَاءٍ تَفصِيلِيةٍ، مُفَصَّلَةٌ فِيهَا الصِّفَاتُ.

وَمَا ذُكِرَ إجمَالًا مِثلُ قَولِهِ تَعالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨]، هُنَا أجمَلَ، لَم يَعُدَّ اسْمًا واسْمًا واسْمًا، وكذَلكَ فِي الصفَاتِ؛ مِنهَا مَا يُذكَرُ إجمَالًا، مِثلُ قَولِهِ تَعالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]، أَي: الوَصفُ الأكمَلُ، ومِنهَا مَا يُذكَرُ تَفصِيلًا.

فكُلُّ ذَلِكَ الذِي ذَكرنَاهُ، فَإنَّنَا فِيهِ: **عَلَىٰ كِتَابِ رَبِّنَا وَعَلَىٰ سُنَّةِ نَبِيِّنا ﷺ مُعتَمِدُونَ**؛ لأَنَّهمَا أَصلُ الأَدلَّةِ؛ فَلا دَليلَ أَقوَىٰ مِن كتَابِ اللهِ وسُنَّةِ نَبِيِّنَا ﷺ، وكُلُّ دَليلٍ سِوَاهُمَا إنِ انبَنَىٰ عَليهِمَا فَهُوَ حقٌّ وهُوَ مِنهُمَا، وإن خَالفَهُمَا فَهُوَ بَاطِلٌ، وَعَلَىٰ هَذَا يَتَبيَّنُ لنَا بُطلَانُ مَذهَبِ الأشَاعِرَةِ والمُعتَزِلَةِ والجَهمِيَّةِ؛ لأَنَّهُ مَبنِيٌّ عَلَىٰ العَقلِ الذِي ادَّعَوا أَنَّهُ عَقلٌ وهُوَ فِي الحَقِيقَةِ ضَلَالٌ وَلَيسَ بِعَقلٍ.

وَعَلَىٰ مَا سَارَ عَلَيهِ سَلفُ الأمَّةِ: سَلَفُ الأمَّةِ هُمُ القُرونُ المُفضَّلةُ، الذِينَ قَالَ فِيهِم رَسولُ اللهِ ﷺ: «**خَيرُ النَّاسِ قَرنِي ثُمَّ الذِينَ يَلونَهُم ثُمَّ الذِينَ يَلونَهُم**»(١)؛ هَؤلَاءِ هُم سَلفُ الأمَّةِ، **وَأئِمَّةُ الهُدَىٰ مِن بَعدِهِم سَائِرونَ**، وَالنَّصُّ عَلَىٰ: «أئِمَّةِ الهُدَىٰ»؛ لأنَّ الأئِمَّةَ مِن بَعدِ السَّلفِ الصَّالحِ صَارُوا أئِمَّةَ

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

هُدًىٰ وأئِمَّةَ ضَلَالٍ، ونَحنُ نَتَّبعُ أئِمَّةَ الهُدَىٰ مِن بَعدِهِم، أمَّا أئِمَّةُ الضَّلالِ فَمَا أكثَرَهُمْ فِي هَذِهِ الأمَّةِ الإسلَامِيةِ، وَنَحنُ بَريئُونَ مِنهُم؛ لَكِنَّنَا أتبَاعٌ لأئِمَّةِ الهُدَىٰ، ولَسنَا أتبَاعًا لَهُم عَلَىٰ الخَطَأِ والصَّوَابِ، بَلْ مَا عَلِمنَا أنَّهُم أخطَئُوا فِيهِ سَألنَا اللهَ لَهُم العَفوَ، وخَالَفْنَاهُم فِي خَطَئِهِم إلَىٰ الصَّوَابِ.

وَنَرَىٰ وجُوبَ إجرَاءِ نُصوصِ الكِتَابِ وَالسُّنةِ فِي ذَلِكَ عَلَىٰ ظَاهِرِهَا: فَالوَاجِبُ فِي نُصُوصِ القُرآنِ وَفِي نُصُوصِ السُّنةِ، إجرَاؤهَا عَلَىٰ ظَاهِرِهَا دُونَ تَحرِيفٍ، لَاسِيَّمَا نُصوصُ الصِّفَاتِ، حَيثُ لَا مَجَالَ لِلرَّأيِ فِيهَا وَلَا مَدخَلَ لِلعَقلِ فِيهَا.

الظَّاهِرُ فِي الاصطِلاحِ: هُوَ مَا دَلَّ بِنفسِهِ عَلَىٰ مَعنًىٰ رَاجِحٍ، مَعَ احتِمَالِ غَيرِهِ.

حُكمُ العَمَلِ بِالظَّاهِرِ: العَمَلُ بِهِ وَاجِبٌ إلَّا بِدَلِيلٍ يَصرِفُهُ عَن ظَاهِرِهِ؛ لأنَّهَا طَرِيقَةُ السَّلَفِ، وَلأنَّهُ أحوَطُ وَأبرَأُ لِلذِّمَّةِ، وَأقوَىٰ فِي التَّعبُّدِ وَالانقِيَادِ.

ويُرَاعَىٰ فِي مَعرِفَةِ الظَّاهِرِ أمُورٌ: دَلَالَةُ اللَّفظِ، وَحَالَةُ السِّيَاقِ، وَحَالَةُ المُتكَلِّمِ، وَسَائِرُ القَرَائِنِ المُحتَفَّةِ بِالخِطَابِ.

وَحَملهَا عَلَىٰ حَقِيقَتِهَا اللَّائِقَةِ باللهِ ﷻ: وَعَلَىٰ هَذَا فَإذَا دَلَّ الكِتَابُ وَالسُّنةُ عَلَىٰ مَعنًىٰ نَفهَمُهُ بِمُقتَضَىٰ اللغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَجَبَ عَلَينَا أنْ نَتَّبِعَهُ.

حَملُهَا عَلَىٰ حَقيقَتِهَا، وَهَذَا مِن تَمَامِ إجرَائِهَا عَلَىٰ ظَاهِرِهَا، أنْ يَحمِلَهَا عَلَىٰ حَقِيقَتِهَا، اللَّائِقَةِ بِاللهِ؛ يَعنِي: لَا عَلَىٰ ظَاهِرِهَا المُمَاثِلِ لِلمَخلُوقِ.

ظَاهِرُ نُصوصِ الصِّفَاتِ: هُوَ مَا يَتَبادَرُ مِن تِلكَ النُّصوصِ إلَىٰ الذِّهنِ السَّلِيمِ مِن المَعَانِي.

* **وَانقسَمَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ إلَىٰ ثَلاثَةِ أقسَامٍ:**

١- **أهلُ السُّنةِ وَالجَمَاعَةِ**: جَعلُوا الظَّاهِرَ المُتَبادَرَ مِن تِلكَ النُّصوصِ مَعنًىٰ حَقًّا يَليقُ بِاللهِ ﷻ، وَأبقَوا دَلَالَةَ تِلكَ النُّصوصِ عَلَىٰ ذَلِكَ.

٢- **المُشَبِّهَةُ**: الذِينَ جَعَلُوا الظَّاهِرَ المُتَبادَرَ مِن نُصوصِ الصِّفَاتِ مَعنًىٰ بَاطِلًا لَا يَليقُ بِاللهِ تَعَالَىٰ، «وَهُوَ التَّشبِيهُ»، وأبقَوا دَلَالَتِهَا عَلَىٰ ذَلِكَ.

٣- **المُعَطِّلَةُ**: قَد جَعَلُوا المَعنَىٰ المُتَبادَرَ مِن نُصوصِ الصِّفَاتِ مَعنًىٰ بَاطِلًا لَا يَلِيقُ بِاللهِ ﷻ، «وَهُوَ التَّشبِيهُ»؛ وَمِن أجلِ ذَلِكَ أنكَرُوا مَا دَلَّت عَلَيهِ النُّصوصُ مِنَ المَعنَىٰ اللَّائِقِ بِاللهِ تَعَالَىٰ.

وَنَتَبرَّأُ مِن طَرِيقِ المُحَرِّفِينَ لَهَا الذِينَ صَرَفُوهَا إلَىٰ غَيرِ مَا أرَادَ اللهُ بِهَا وَرَسولُهُ: نَتَبرَّأُ مِن هَذَا بِقلُوبِنَا وَألسِنَتِنَا وَسُلوكِنَا.

مِثالُ ذَلِكَ: قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قُلنَا: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يَعنِي: عَلَا عَلَيهِ؛ لَكِن لَيسَ كَعلُوِّ الإنسَانِ عَلَىٰ السَّرِيرِ؛ لأنَّ هَذَا لَا يَلِيقُ بِاللهِ، وَلَكِن عَلَا عَلَيهِ عُلوًّا يَليقُ بِجَلَالِهِ ﷻ؛

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ يَعنِي: استولَىٰ عَلَيهِ، فَإِنَّنَا نَتبرَّأ مِن طَرِيقِهِم ونَرَىٰ أَنَّهُم ضُلَّالٌ؛ لأَنَّهُم صَرَفُوا ذَلِكَ إِلَىٰ غَيرِ مَا أَرَادَ اللهُ بِهِ وَرَسولُهُ.

فَإِذَا قَالَ: مَا دَلِيلكُم عَلَىٰ أَنَّ اللهَ أَرَادَ بِقَولِهِ: ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: عَلَا عَلَيهِ؛ أَلَا يَجوزُ أَنْ يَكُون مُرَادُ اللهِ تَعَالَىٰ استولَىٰ عَلَيهِ؟

الجَوَابُ: لَا يَجوزُ؛ لأَنَّهُ لَو جَازَ ذَلِكَ لكَانَ اللهُ تَعَالَىٰ لَم يَجعَلِ القُرآنَ تِبيَانًا وَلَم يَجعَلهُ فُرقَانًا؛ إِذْ إِنَّ اللهَ أَنزَلَ القُرآنَ بِلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، وَاللِّسَانُ العَرَبِيُّ المُبِينُ يَقتَضِي أَنَّ مَعنَىٰ ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: عَلَا عَلَيهِ لَا غَيرَ، فَالذِينَ قَالُوا: استولَىٰ عَلَيهِ؛ صَرَفُوهُ إِلَىٰ غَيرِ مَا أَرَادَ اللهُ، ونَشهَدُ أَنَّ اللهَ لَم يُرِدْ بِقَولِهِ: ﴿اسْتَوَىٰ﴾ استولَىٰ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَذِهِ الشَّهَادَةُ عَظِيمَةٌ كَيفَ نَجزِمُ بِهَا؟

قُلتُ: أَجزِمُ بِهَا بِأَمرِ اللهِ ﷻ؛ أَنْ نَتَّبِعَ القُرآنَ عَلَىٰ مَا نَزَلَ بِاللغَةِ العَرَبِيةِ وَهُوَ نَزَلَ بِاللغَةِ العَرَبِيَّةِ عَلَىٰ أَنَّ ﴿اسْتَوَىٰ﴾ بِمعنَىٰ: عَلَا.

وَالتَّحرِيفُ: هُوَ صَرفُ اللَّفظِ عَن ظَاهِرِهِ بِلَا دَلِيلٍ، وَيُرَادُ بِهِ التَّغييرُ أو الإِمَالَة لِكَلَامِ اللهِ -جَلَّ وَعَلَا-، وَهُوَ تَحرِيفٌ لِلَّفظِ، أَوْ لِلمَعنَىٰ، أَمَّا اللَّفظُ فَهُوَ بِالتَّغييرِ بِالزِّيَادَةِ أو بِالنَّقصِ لِيَتَوَافَقَ مَعَ هَوىٰ المُحرِّفِ أو مَذهَبِهِ، وأَمَّا المَعنَىٰ فَهُوَ صَرفُ اللَّفظِ عَن مَعنَاهُ الصَّحِيحِ، وَهَذَا هُوَ الأَكثَرُ وقُوعًا كَتَحرِيفِ المُتكَلِّمِينَ.

مَن ادَّعَىٰ صَرفَ نَصٍّ عَن ظَاهِرِهِ إلَىٰ مَجَازِهِ لَم يَتِمَّ لَهُ ذَلِكَ إلَّا بَعدَ أربَعَةِ مَقَامَاتٍ:

١- بَيانُ امتِنَاعِ إرَادَةِ الحَقِيقَةِ.

٢- بَيَانُ صَلاحِيةِ اللَّفظِ لِذَلِكَ المَعنَىٰ الذِي عَيَّنَهُ.

٣- بَيانُ تَعيينِ ذَلِكَ المُجمَلِ إنْ كَانَ لَهُ عِدَّةُ مَجازَاتٍ.

٤- الجَوَازُ عَنِ الدَّلِيلِ المُوجِبِ لإرَادَةِ الحَقِيقَةِ.

*** وَمَن ادَّعَىٰ صَرفَ اللَّفظِ عَن ظَاهِرِهِ وَلَم يُعيِّن لَهُ مُجمَلًا لَزِمَهُ أمرَانِ:**

١- بَيانُ الدَّلِيلِ الدَّالِّ عَلَىٰ امتِنَاعِ إرَادَةِ الظَّاهِرِ.

٢- جَوابُهُ عَلَىٰ المُعَارِضِ.

وَمُدَّعِي صَرفَ النَّصِّ عَن ظَاهِرِهِ وَحَقِيقَتِهِ إلَىٰ مَجَازِهِ، تَضمَّنُ دَعوَاهُ الإخبَارَ عَن مُرادِ المُتكلِّمِ وَمُرادِ الوَاضِعِ، أمَّا المُتكلِّمُ: فَكونُهُ أرَادَ بِذَلِكَ: المَعنَىٰ الذِي عَيَّنَهُ الصَّارِفُ، وَأمَّا الوَاضِعُ: فَكونُهُ وَضَعَ اللَّفظَ المَذكُورَ دَالًّا عَلَىٰ المَعنَىٰ.

وَالخُلاصَةُ: أنَّهُ لَم يُخاطِبنَا اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- إلَّا بِمَا نَفهَمُ، وَلَم يَقُل لَنَا الألغَازَ فِي كِتَابِهِ ولَا عَلَىٰ لِسَانِ رَسولِهِ ﷺ؛ فَيثبِتُ لِنَفسِهِ شَيئًا ثُمَّ يَقولُ مَن أثبَتَهُ كَانَ كَافِرًا، حَاشَاهُ ﷻ.

الذِينَ يقولُونَ: لَابُدَّ مِن صَرفِ النَّصِّ عَن ظَاهِرِهِ هُم يُلزِمونَ رَسولَ اللهِ ﷺ بلَوازِمَ بَاطِلَةٍ، بَل يَنتَقِصُونَهُ ﷺ وَيَنتَقِصُونَ الصَّحَابَةَ ﷺ؛ لأنَّهُم يَقُولُونَ: إنَّ النَّبيَّ ﷺ لَم يَفهَم مَا خَاطَبَهُ اللهُ بِهِ، وَلَمْ يَفهَمْهُ أصْحَابُهُ، وَأمَّا هُم فَفَهِمُوهُ!!

وَنتَبَرَّأُ مِن طَرِيقِ المُعطِّلِينَ لَهَا الذِينَ عَطَّلوهَا عَن مَدلُولِهَا الذِي أرَادَهُ اللهُ وَرسُولُهُ: هَؤلَاءِ عَطَّلُوا النَّصَّ عَن مُرَادِ اللهِ وَلَكِن لَم يُثبِتُوا لَهُ مَعنًىٰ، وَهَذَا طَرِيقُ مَن يُسمَّونَ بِالمُفوضَةِ، أهلِ التَّجهِيلِ الذِينَ إذَا قِيلَ لَهُم: مَا مَعنَىٰ قَولِه: ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ قَالُوا: لَا نُثبِتُ لَهُ مَعنًىٰ وَاللهُ أعلَمُ! فَهَؤلَاءِ عَطَّلوا النُّصوصَ عَمَّا أرَادَ اللهُ بِهَا، فَقَد أرَادَ اللهُ أنْ يُثبِتَ استِوَاءَهُ عَلَىٰ العَرشِ وَهَؤلَاءِ قَالُوا: مَا نَعلَمُ، ويَقولُونَ نَقرَأُ القُرآنَ، وَلَكِن لَا نُفسِّرهُ.

التَّفويضُ: هُوَ إمرَارُ النُّصُوصِ عَلَىٰ ظَاهِرِهَا مِن غَيرِ اعتِقَادِ مَعنًىٰ لَهَا.

وَنَتَبَرَّأُ مِن طَرِيقِ الغَالِينَ فِيهَا الذِينَ حَمَلوهَا عَلَىٰ التَّمثِيلِ، أو تَكَلَّفُوا لِمَدلُولِهَا التَّكيِيفَ: هَؤلَاءِ الذِينَ غَلَوا فِي الإثبَاتِ أثبَتُوا للهِ مَا أثبَتَهُ لِنَفسِهِ، ولَكِنَّهُم غَلَوا فِي الإثبَاتِ فَقَالُوا: نُثبِتُ أنَّ اللهَ استَوَىٰ عَلَىٰ العَرشِ حَقِيقَةً، وَأنَّ مَعنَىٰ الاستِوَاءِ كَمَا يَستَوِي أحدُنَا عَلَىٰ الكُرسِيِّ، وقَالوا: للهِ يَدٌ، وَلَكِن كَأيدِينَا.

فَنحنُ نَتبَرَّأُ مِنَ هَذَا الطَرِيقِ لأنَّ فِيهَا غُلوًّا، فَصِرنَا نَتبرَّأُ مِن ثَلاثِ طُرقٍ:

الأوَّلُ: طَرِيقُ المُحرِّفِينَ، الذِينَ أثبَتُوا لَهَا مَعنًىٰ لَا يُرِيدُهُ اللهُ تَعَالَىٰ وَلَا رَسولُهُ ﷺ.

الثَّانِي: طَرِيقُ المُعطِّلَةِ الذِينَ عَطَّلوهَا عَن المَعنَىٰ المُرَادِ، لَكِن لَم يَذكُروا مَعنًىٰ آخَرَ، وهَؤلَاءِ هُم المُفوِّضَةُ.

الثَّالِثُ: طَرِيقُ الغَالِينَ فِي الإثبَاتِ، الذِينَ أثبَتُوهَا مَعَ التَّمثِيلِ.

فَإنْ قَالَ قَائِلٌ: لِمَاذَا لَا نَسلُكُ الطَّرِيقَ الوَسَطَ مِن الطُّرقِ الثَّلاثَةِ وَهِيَ السُّكوتُ؟

نَقولُ: هَذَا حَرَامٌ؛ لأنَّ السُّكوتَ يَعنِي التَّعطِيلَ، وَهُوَ شَرُّ أقوَالِ أهلِ البِدَعِ وَالإلحَادِ -كَمَا قَالَ شَيخُ الإسلَامِ-.

وَنَعلَمُ عِلمَ اليَقِينِ أنَّ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ، أو سُنَّةِ نَبيهِ ﷺ، فَهُوَ حَقٌّ لَا يُنَاقِضُ بَعضُهُ بَعضًا؛ لِقولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، وَلأنَّ التَّنَاقُضَ فِي الأخبَارِ يَستَلزِمُ تَكذِيبَ بَعضِهَا بَعضًا، وَهَذَا مُحالٌ فِي خَبَرِ اللهِ تَعَالَىٰ وَرَسولِهِ ﷺ، وَمَن ادَّعَىٰ أنَّ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ أو سُنَّةِ رَسولِهِ ﷺ أَو بينَهُما تنَاقُضًا؛ فَذَلِكَ لِسوءِ قَصدِهِ وَزَيغِ قَلبِهِ، فَليَتُبْ إلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَليَنزِعْ عَن غَيِّهِ.

وَمَن تَوَهَّمَ التَّنَاقُضَ فِي كِتَابِ اللهِ أو سُنَّةِ رَسولِهِ ﷺ، أو بَينَهُمَا، فَذَلِكَ إمَّا لِقِلَّةِ عِلمِهِ أو قُصورِ ذِهنِهِ أو تَقصِيرِهِ فِي التَّدَبُّرِ، فَلْيَبْحَثْ عَن العِلمِ، وَليَجتَهِد فِي التَّدَبُّرِ حتَّىٰ يَتَبيَّنَ لَهُ الحَقُّ، فَإنْ لَم يَتَبَيَّن لَهُ فَليَكِلِ الأمرَ إلَىٰ عَالِمِهِ، وليَكُفَّ عَن تَوهُّمِهِ، وَليَقُل كَمَا يَقُولُ الرَّاسِخُونَ فِي العِلمِ: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ

عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧]، وَليَعلَمْ أنَّ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ لَا تَنَاقُض فِيهِمَا ولَا بَينَهُمَا وَلَا اختِلَافَ .

وَنَعلَمُ عِلمَ اليَقِينِ -العِلمُ عِلمَانِ: عِلمٌ نَظَرِيٌّ يَحتَمِلُ التَّشكِيكَ، وَعِلمٌ يَقِينِيٌّ لَا يَحتَمِلِ التَّشكِيكَ، وَالمُرَادُ هُنَا: عِلمُ اليَقِينِ الذِي لَا يَحتَمِلُ التَّشكِيكَ-: **أنَّ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ، أو سُنَّةِ نَبيِّهِ ﷺ فَهُوَ حَقٌّ**، لَا شَكَّ، وَمِن أصُولِ الدِّينِ أنْ نَشهَدَ بِأنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ حَقٌّ، وَالسَّاعَةَ حَقٌّ.

وَكَذَلِكَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسولُ ﷺ، **فَهُوَ حَقٌّ لَا يُنَاقِضُ بَعضُهُ بَعضًا**: لَا يُمكِنُ أنْ يَكُونَ القُرآنُ وَالسُّنَّةُ يَدُلَّانِ عَلَىٰ شَيئَينِ النِّسبَةُ بَينَهُمَا التَّنَاقُض، هَذَا لَا يُمكِنُ إطلَاقًا.

وَالدَّليلُ: قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، الاستِفهَامُ هُنَا لِلتَّوبِيخِ وَالإنكَارِ؛ يَعنِي: لِمَاذَا لَا يَتَدَبَّرونَ القُرآنَ؟ لَو تَدبَّروا القُرآنَ مَا وَجدوا فِيهِ اختِلَافًا وَلَا تَنَاقُضًا.

وَلأنَّ التَّنَاقُضَ فِي الأخبَارِ يَستَلزِمُ تَكذِيبَ بَعضِهَا بَعضًا: لَو أخبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ بِخَبَرٍ، ثُمَّ أخبَرَ بِمَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ الخَبَرَ، لَزِمَ مِن ذَلِكَ أنْ يَكُون أحَدُهُمَا كَذِبًا؛ **وَهَذَا مُحَالٌ فِي خَبَرِ اللهِ تَعَالَىٰ وَرَسُولِهِ ﷺ**، وَهَذَا يُنَزَّهُ عَنهُ كَلَامُ اللهِ وَكَلَامُ رَسُولِهِ ﷺ.

وَمَنِ ادَّعَىٰ أنْ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ أو سُنَّةِ رَسولِهِ ﷺ أو بَينَهُمَا: «فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ» يَعنِي: بعضَهُ مَعَ بَعضٍ، وَ«فِي سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ» يَعنِي: بَعضَهَا

مَعَ بَعضٍ، «بَينَهُمَا» يَعنِي: بَينَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

هَل يُمكِنُ أنْ يَكُون هُنَاكَ تَنَاقُضٌ بَينَ مَا جَاءَت بِهِ الشَّرِيعَةُ وَبَينَ الأمرِ المَحسُوسِ؟

الجَوابُ: لَا يُمكِنُ أبَدًا أنْ يَكُونَ القُرآنُ أو السُّنةُ يَدلَّانِ عَلَىٰ شَيءٍ مُخَالِفٍ لِلمَحسُوسِ إطلَاقًا، فَلَا تَنَاقُضَ بَينَ المَعلُومِ حِسًّا، وَالمَعلُومِ شَرعًا.

هَل يُمكِنُ أنْ يَتَنَاقَضَ المَعلُومُ شَرعًا مَعَ المَعلُومِ عَقلًا؟

الجَوَابُ: لَابُدَّ أنْ نُقَيِّدَ؛ لأنَّ مِنَ النَّاسِ مَن يَرَىٰ المَوهُومَ مَعقُولًا.

*** وَهُنَا خَمسُ قَوَاعِدَ مُهِمَّةٌ جِدًّا، وَهِيَ:**

١- القُرآنُ لَا يُنَاقِضُ بَعضُهُ بَعضًا.

٢- السُّنَّةُ لَا يُنَاقِضُ بَعضُهَا بَعضًا، وَالمُرَادُ بِالسُّنةِ؛ أي: التِي ثَبَتَتْ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ.

٣- القُرآنُ وَالسُّنَّةُ لَا تَناقُضَ بَينَهُمَا.

٤- الأدِلَّةُ السَّمعِيةُ لَا تُعَارِضُ الأدِلَّةَ الحِسِّيَّةَ.

٥- الأدِلَّةُ الشَّرعِيةُ لَا تُنَاقِضُ الأدِلَّةَ العَقلِيةَ الصَّرِيحَةَ.

فَلَا تَنَاقُضَ بَينَ مَا صَحَّ بِهِ النَّقلُ، وَمَا كَانَ فِيهِ العَقلُ صَرِيحًا.

فَمَنِ ادَّعَىٰ أَنَّ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ أَوْ سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ تَنَاقُضًا فَذَلِكَ

لِسوءِ قَصدِهِ وَزَيغِ قَلبِهِ، فَلْيَتُبْ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَلْيَنزِعْ عَنْ غَيِّهِ: أَيُّ إِنسَانٍ يَقولُ: القُرآنُ مُتَنَاقِضٌ؛ فَإِنَّهُ سَيِّئُ القَصدِ زَائِغُ القَلبِ، وَأَيُّ إِنسَانٍ يَقُولُ: إِنَّ فِي السُّنَّةِ الثَّابِتَةِ عَن الرَّسولِ ﷺ تناقُضًا؛ فَهُوَ سَيِّئُ القَصدِ زَائِغُ القَلبِ؛ لأَنَّهُ مَا أَرَادَ بِذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَصرِفَ النَّاسَ عَن كِتَابِ اللهِ وَسُنةِ رسولِهِ، وإِلَّا فَمَن قَلبُهُ صَافٍ لَا يُمكِنُ أَنْ يَدَّعِيَ أَنَّ فِي القُرآنِ تَنَاقُضًا، أو أَنَّ فِي السُّنةِ تَناقُضًا، أو أَنَّ بَينَهُمَا تَنَاقُضًا.

وَمَن تَوَهَّمَ التَّنَاقُضَ فِي كِتَابِ اللهِ، أو فِي سُنةِ رَسولِهِ ﷺ، أو بَينَهُمَا فَذَلِكَ إِمَّا لِقِلَّةِ عِلمِهِ: يَعنِي: أَنَّ عِلمَهُ قَلِيلٌ، وَمَن كَانَ عِلمُهُ قَليلًا فَنادِ عَلَيهِ بِالجَهلِ، **أو قُصورِ فَهمِهِ**: يَعنِي: أَنَّ عِلْمَهُ وَاسِعٌ، لَكِنَّهُ قَاصِرُ الفَهمِ، والنَّاسُ يَختَلِفونَ فِي فَهمِ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسولِهِ ﷺ اختِلافًا عَظِيمًا.

أو تَقصِيرِهِ فِي التَّدبرِ: قَد يَكُونُ الإِنسَانُ عِندَهُ عِلمٌ وَاسِعٌ، وَعِندَهُ فَهمٌ ثَاقِبٌ، لَكنَّهُ لَايَتَدبَّرُ ولَا يَتَأَمَّلُ، وإِذَا جَلسَ يَنظرُ فِي القُرآنِ أوالسُّنةِ لِيَتَدَبَّرَ ضَاقَ صَدرُهُ ثُمَّ أَغلَقَ الكِتَابَ، وهَذَا يُوجَدُ فِي كَثِيرٍ مِن طَلَبَةِ العِلمِ اليَومَ، تَجِدهُ لَيسَ عِندَهُ تَحَمُّلٌ لِلمُرَاجَعةِ وَالتَّدبُّرِ، يُرِيدُ عِلمًا يَكُونُ مُبَرَّدًا، دُونَ أَنْ يَتولَّىٰ طَبخَهُ وَإِنْضَاجَهُ.

فَليَبحَث عَنِ العِلمِ، وَليَجتَهِدْ فِي التَّدبُّرِ، حتَّىٰ يَتبَينَ لَهُ الحَقُّ: فَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ وَاجتَهَدَ وَتَدبَّرَ لَكِن لَم يَتبينْ لَهُ الأمرُ، فَمَاذَا يَصنَعُ؟

فَإِنْ لَم يَتَبَيَّنْ لَهُ فَليَكِلِ الأَمرَ إِلَىٰ عَالِمِهِ، وليَكُفَّ عَن تَوهُّمِهِ، وَليَقُلْ

كَمَا يَقُولُ الرَّاسِخُونَ فِي العِلمِ: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧]، وَليَعلَمْ أنَّ الكِتَابَ والسُّنةَ لَا تَناقُضَ فِيهِمَا ولَا بَينَهُمَا وَلَا اختِلَافَ: إذَا وَصَلَ إلَىٰ هَذَا الحَدِّ يَقِفُ، وَمِن ذَلِكَ مَا يَتَعلَّقُ بِصفَاتِ اللهِ ﷻ؛ فإنَّ هَذَا مُعتَرَكٌ ضَنكٌ، وبَابٌ ضَيِّقٌ، وكَثِير مِن الطَّلبَةِ اليَومَ يُرِيدُونَ أنْ يُوسِّعوا هَذَا البَابَ، وأنَّىٰ لَهُم ذَلِكَ، اللهُمَّ إلَّا بِكسرِهِ، والكَسرُ مَعنَاه الهَدمُ وَالدَّمَارُ، فَبعضُهُم يَتَعمقُ فِي البَحثِ عَن صِفَاتِ اللهِ ﷻ وَيُثبِت مَا لَيسَ بِلازِمٍ.

وَهَكَذَا يَجِبُ عَلَينَا يَا إِخوَاننَا فِي هَذِهِ المَسألَةِ الضَّيقَةِ: ألَّا نُحَاوِلَ التَّعمقَ فِي البَحثِ عَن صِفَاتِ اللهِ ﷻ؛ مَا جَاءَنَا قَبِلنَاهُ وَكَفَىٰ بذَلِكَ فَخرًا، وَمَا لَم يَجِئْ إلَينَا سَكتنَا عَنهُ، وَهَذَا هُوَ الأدَبُ مَعَ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَاللهُ المُوفِّقُ.

* * *

الإيمَانُ بِالْمَلائِكَةِ

الإيمَانُ بِالمَلائِكَةِ هُوَ الرُّكنُ الثَّانِي مِن أركَانِ الإيمَانِ حَسبَ تَرتِيبِ النَّبيِّ ﷺ حِينَ قَالَ لِجبرِيلَ: «**الإيمَانُ أنْ تُؤمِنَ باللهِ وَمَلائِكتِهِ ...**»(١).

المَلَكُ أصلُهُ (ألَك)، وَالمَألَكَةُ وَالمَألَكُ: الرِّسَالَةُ، وَمَنهُ اشتُقَّ (المَلائِكُ) لأَنَّهُم رُسلُ اللهِ.

وَالمَلائِكَةُ عَالمٌ غَيبيٌّ خُلِقُوا لِلطَّاعَةِ وَالعِبَادَةِ، لَيسُوا آلِهَةً ولا أربَابًا وَلَيسَ لَهُم مِن خَصَائِصِ الألُوهِيةِ وَالرُّبوبِيةِ شَيءٌ، وَهُم عِبَادٌ مُكرَمُونَ مَربُوبُونَ، لَا يَملكُونَ لأنفُسِهِم ضَرًّا وَلَا نَفعًا، مَفطُورونَ عَلَىٰ العِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ وَالتَّسبِيحِ لَا يَسْأمُونَ وَلَا يَفترُونَ وَلَا يَمَلُّونَ أبَدًا، خَلقَهُم اللهُ مِن نُورٍ، كَمَا خَلقَ الجَانَّ مِن نَارٍ، وَكَمَا خَلَقَ الإنسَانَ مِن طِينٍ.

* **الإيمَانُ بِالمَلائِكَةِ يَتَضمنُ أرْبَعةَ أمُورٍ:**

١- الإيمَانُ بِوجُودِهِم.

٢- الإيمَانُ بِمَن عَلِمنَا اسمَهُ مِنهُم، وَمَن لَم نَعلَم اسمَهُ نُؤمِنُ بِهِ إجمَالًا.

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٧).

٣- الإيمَانُ بِمَا عَلِمنَا مِن صِفَاتِهِم.

٤- الإيمَانُ بِمَا عَلِمنَا مِن أعمَالِهِم التِي يَقومُونَ بِهَا بِأمرِهِ تَعَالَىٰ.

وَنُؤمِنُ بِمَلائِكَةِ اللهِ تَعَالَىٰ وأَنَّهُم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٧]، وَالمُكرِمُ لَهُم هُوَ اللهُ ﷻ، وَقَد يُكرِمُهُم غيرُ اللهِ تَعَالَىٰ، كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات:٢٤]، فَالمَلَائِكَةُ هُنَا أكرَمَهُم إبرَاهِيمُ؛ لأَنَّهُم جَاءوهُ بِصورَةِ البَشَرِ.

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾، يَعنِي: أَنَّهُم لَا يَتَقَدَّمونَ بَينَ يَدَيهِ فَيقُولُونَ مَا لَا يَقولُ. وَلَا بِالفِعلِ أيضًا؛ قَالَ: ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾. ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: يَعمَلونَ عَلَىٰ حَسبِ مَا أمرَهُم بِهِ، وَيَعمَلونَ عَمَلًا بِسَبَبِ أمرِهِ، فَيُبادِرون بِالعَمَلِ.

خَلقَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ مِن نُورٍ كَمَا صَحَّ ذَلِكَ عَن النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُم خُلِقُوا مِن نُورٍ[1].

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيفَ يُخلَقُونَ مِن نُورٍ وَهُم أجسَامٌ؟

الجَوَابُ عَلَىٰ ذَلِكَ مِن وَجهَينِ:

١- أنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ قَالُوا: إنَّ النُّورَ جِسمٌ.

---

(١) أخرجه مسلم (٦٩٩٦).

٢- أنْ نَقولَ: إنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَىٰ أنْ يَخلُقَ مِمَّا لَيسَ بجِسمٍ جِسمًا، كَمَا أنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ أنْ يُحَوِّلَ مَا لَيسَ جِسمًا، جِسمًا.

فَعَلَىٰ المُسلِمِ إذَا أخبَرَ اللهُ وَرسولُهُ بِشَيءٍ، أنْ يُؤمِنَ بِدونِ تَشكِيكٍ ولَا تَشَكُّكٍ، وَبِدونِ كَيفَ، وَبِدونِ لِمَ، بَلْ يَجِبُ عَلَيهِ عِندَ الأمرِ أنْ يَقُولَ: سَمِعنَا وَأطَعنَا، وَعِندَ الخبرِ يَقُولُ: سَمِعنَا وَصَدَّقنَا.

فَلَا يَسألُ عَن «كَيفَ» ؛ لأنَّ قُدرَةَ اللهِ تَعَالَىٰ فَوقَ العَقلِ، وَلَا «لِمَ» ؛ لأنَّ حِكمَةَ اللهِ فَوقَ الإدرَاكِ.

وَمِن عِبَادَاتِ المَلائِكَةِ: التَّسبِيحُ، وَالخَوفُ، والاصطِفَافُ، ويَحجُّونَ كَمَا يَحجُّ المُؤمِنُونَ فِي الأرضِ، وَعَددُ المَلائِكَةِ لَا يَعلَمُهُ إلَّا اللهُ الذِي خَلَقَهُم ؛ فَقَامُوا بِعبَادَتِهِ وَانقَادُوا لِطَاعَتِهِ ، قَامُوا بِأجسَامِهِم بِالعِبَادَةِ، وَانقَادُوا فَلَم يَكُن مِنهُم استِكبَارٌ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩]، فَهُم لَا يَستكبِرونَ فَيَترُكُونَ، ولَا يَستَحسِرونَ فَيُنقِصُونَ ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠]، فَتَسبِيحُهُم مُستَمِرٌّ فِي كُلِّ آنٍ وَلحظَةٍ، وَلَو كَانَ التَّسبِيحُ فِي بَعضِ الآنَاءِ لَقَالَ: فِي اللَّيلِ وَالنَّهَارِ، إذَن هُم يُلهَمُونَ التَّسبِيحَ كَمَا نُلهَمُ النَّفَسَ.

أنفَاسُنَا نَحنُ دَائِمَةٌ بِدونَ تَكلُّفٍ، هُم كَذَلِكَ ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾.

حَجَبَهُم اللهُ عَنَّا فَلَا نَرَاهُم، فَالمَلائِكَةُ أجسَامٌ نُورَانِيةٌ لَطِيفَةٌ، وَلِذَلِكَ فَالعِبَادُ لَا يَرونَهُم، خَاصَّةً وَأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَم يُعطِ أبصَارَنَا القُدرَةَ عَلَىٰ هَذِهِ الرُّؤيَةِ، وَالحِكمَةُ مِن ذَلِكَ مِن وَجهَينِ:

١ - أنْ يَكُونَ إيمَانُنَا بِالغَيبِ، والإيمَانُ هُوَ الذِي يُمدَحُ عَلَيهِ الإنسَانُ.

٢ - ألَّا نَنزَعِجَ؛ فَلَو كُنَّا نَرَىٰ المَلَائِكَةَ مَعنَا وَعَن اليَمينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيد، وَيَحضُرونَ الدُّروسَ وَيَجلِسونَ عَلَىٰ أبوَابِ المَسَاجِدِ يَومَ الجُمُعةِ، يَكتُبونَ الأوَّلَ فَالأوَّلَ، وَمَا أشبَهَ ذَلِكَ، رُبَّمَا كَانَ مِن هَذَا قَلَقٌ وَانزِعَاجٌ لاسِيَّمَا عِندَ صِغَارِ العُقولِ، لِهَذَا كَانَ مِن الحِكمَةِ أنْ حَجَبَهُم اللهُ عَنَّا.

وَرُبَّمَا كَشَفَهُم لِبَعضِ عِبادِهِ؛ فَقَد رَأىٰ النَّبيُّ ﷺ جِبرِيلَ عَلَىٰ صُورَتِهِ، لَهُ سِتُّمِئَةِ جَناحٍ قَد سَدَّ الأفُقَ[1]؛ سِتُّمِئَةِ جَنَاحٍ لِمَلَكٍ وَاحِدٍ، قَد سَدَّ الأفُقَ كُلَّهُ، حَتَّىٰ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ فِي غَارِ حِرَاءٍ، لَمَّا رَأىٰ جِبْرِيلَ انحَجَبَتِ السَّمَاءُ عَنهُ ﷺ بِمَا شَاهَدَهُ مِنْهُ.

وَتَمثَّلَ جِبرِيلُ لِمَريَمَ بَشَرًا سَويًّا؛ أي: تَامًّا، تَامَّ البَشَرِيةِ كَأنَّهُ إنسَانٌ تَامٌّ، فَخَاطَبَتْهُ وخَاطَبَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم:١٧-١٩]، «لِأَهَبَ» لأُعطِيَكِ بِدونِ مُمَازَجَةٍ وبِدونِ مُخَالَطَةٍ، وَهُنَا صَارَ خِطَابٌ بَينَ جِبرِيلَ ومَريَمَ، وشَاهَدَتهُ وَكَأنَّهُ بَشَرٌ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣٢، ٣٢٣٥)، ومسلم (١٧٤، ١٧٧).

وَأَتَىٰ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَعِندَهُ الصَّحَابَةُ بِصورَةِ رَجلٍ لَا يُعرَفُ، ولَا يُرَىٰ عَلَيهِ أَثَرُ السَّفرِ، شَدِيدِ بَياضِ الثِّيَابِ، شَديدِ سَوادِ الشَّعَرِ، فَجَلسَ إِلَىٰ النَّبيِّ ﷺ فَأَسنَدَ رُكبَتَيهِ إِلَىٰ رُكبَتَي النَّبيِّ ﷺ، وَوَضَعَ كَفَّيهِ عَلَىٰ فَخِذَيهِ، وَخَاطَبَ النَّبيَّ ﷺ، وَأَخبَرَ النَّبيُّ ﷺ أَصحَابَهُ بِأَنَّهُ جِبريلُ[1].

النُّصوصُ الوَارِدَةُ فِي عِظَمِ خَلقِ المَلَائِكَةِ:

وَرَدَتْ نُصوصٌ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، تُبَيِّنُ عِظَمَ خَلقِ المَلَائِكَةِ، كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

وَفِي السُّنةِ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ رَأىٰ جِبرِيلَ مَرَّتَينِ عَلَىٰ صُورَتِهِ المَلَائِكِيَّةِ التِي خَلقَهُ اللهُ عليهَا، لَهُ سِتُّمِئَةِ جَنَاحٍ، قَد سَدَّ الأُفقَ[2]، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [التكوير:٢٣]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ [النجم:١٣-١٥]، حِينَمَا عُرِجَ بِهِ ﷺ إِلَىٰ السَّمَواتِ العُلَا.

وعَنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَن مَلَكٍ مِن مَلَائِكَةِ اللهِ مِن حَمَلَةِ العَرشِ، إِنَّ مَا بَينَ شَحمَةِ أُذنِهِ إِلَىٰ عَاتِقِهِ، مَسِيرَةَ سَبعِمِئَةِ عَامٍ»[3].

(١) تقدم تخريجه (ص١٧).

(٢) تقدم تخريجه (ص١٥٧).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٢٧)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥١).

وَقَالَ النَّبيُّ ﷺ أيضًا: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَن مَلَكٍ مِن حَمَلَةِ العَرشِ، رِجلَاهُ فِي الأَرضِ السُّفلَىٰ، وَعَلَىٰ قَرنِهِ العَرشُ، وَبَينَ شَحمَةِ أُذنَيهِ وَعَاتِقِهِ، خَفقَانُ الطَّيرِ سَبعَمِئَةِ عَامٍ، يَقولُ ذَلِكَ المَلَكُ: سُبحَانَكَ حَيثُ كُنتَ»[1].

وَذَكَرَ النَّبيُّ ﷺ أَنَّهُ قَد أُذِنَ لَهُ أَنْ يُحدِّثَ عَن مَلَكٍ عَلَىٰ هَيئَةِ دِيكٍ، رِجلَاهُ فِي الأَرضِ السَّابِعَةِ، وَعُنقُهُ مَثنِيَّةٌ تَحتَ العَرشِ يَقولُ: «سُبحَانَكَ مَا أَعظَمَ شَأنَكَ. فَيقولُ اللهُ -جَلَّ وَعَلَا-: لَا يَعلَمُ ذَلِكَ مَن حَلَفَ بِي كَاذِبًا»[2].

وَمَعنَىٰ الإِيمَانِ بِالملَائِكَةِ: الإِقرَارُ الجَازِمُ بِوجُودِهِم، وَأَنَّهُم مِن خَلقِ اللهِ، مُسخَّرونَ، وَعِبَادٌ مُكرَمُونَ لَا يَسبِقُونَهُ بِالقَولِ، وَهُم بِأَمرِهِ يَعمَلونَ، لَا يَعصُونَ اللهَ مَا أَمرَهُم وَيَفعَلونَ مَا يُؤمَرونَ، لَا يَستَكبِرونَ عَن عِبَادَتِهِ، وَلَا يَستَحسِرونَ، يُسبِّحُونَ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفترونَ؛ لَا يَسأَمُونَ وَلَا يَضعُفونَ.

وَنُؤمِنُ أَنَّ لِلمَلائِكَةِ أَعمَالًا كُلِّفوا بِهَا، فَمِنهُم: جِبرِيلُ المُوكَّلُ بِالوَحيِ يَنزِلُ بِهِ مِن عِندَ اللهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِن أَنبِيَائِهِ وَرسُلِهِ، وَبِنَاءً عَلَىٰ ذَلِكَ فَإِنَّ جِبرِيلَ أَفضَلُ الرُّسلِ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ خَصَّهُ بِالوَحيِ الذِي هُوَ إِبلَاغُ الشَّرَائِعِ إِلَىٰ الخَلقِ، وَشَرفُ العَمَلِ يَدُلُّ عَلَىٰ شَرَفِ العَامِلِ، وَهُوَ عَدوُّ اليَهودِ يَكرَهُونَهُ

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦/ ٣١٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٨٥٣).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٣٠)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٧/ ٢٢٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧١٤).

وَيُبغِضُونَهُ وَلَا يُحبُّونَهُ؛ إذْ كَانَ يَنزِلُ بِالعذَابِ مِن عِندَ اللهِ -جَلَّ وَعَلَا-.

وَمِنهُم: مِيكَائِيلُ المُوكَّلُ بِالمَطَرِ وَالنَّبَاتِ، مَلكٌ وَاحِدٌ مُوَكَّلٌ بِالمَطَرِ فِي أيِّ مَكَانٍ مِن الأرضِ، وَبِالنَّبَاتِ فِي أيِّ مَكَانٍ مِنَ الأرضِ، وَهُوَ مَلكٌ وَاحِدٌ لَكِنَّ قُدرَةَ المَلَائِكَةِ لَا تُنسَبُ إلَيهَا قُدرَةُ النَّاسِ، بَل وَالجِنِّ، المَلَكُ أقوَىٰ مِنَ الجِنِّ وأقدَرُ.

وَمِنهُم: إسرَافِيلُ المُوكَّلُ بِالنَّفخِ فِي الصُّورِ حِينَ الصَّعقِ وَالنُّشورِ.

قَالَ العُلمَاءُ فِي وَصفِ الصُّورِ: إنَّهُ قَرنٌ عَظِيمٌ وَاسِعٌ سَعَتُهُ مَا بَينَ السَّمَاءِ وَالأرضِ، فَتَتَصورُ أنَّ النَّافِخَ مَلَكٌ، وَالمَلَكُ قَوِيٌّ، وَالمَنفُوخُ فِيهِ قَرنٌ وَاسِعٌ سَعةَ السَّمَاءِ وَالأرضِ، كَيفَ يَكُونُ صَوتُهُ؟! يَكُونُ شَدِيدًا عَظِيمًا؛ وَلِهَذَا يَفزَعُ النَّاسُ وَيُصعَقونَ؛ أي: يَمُوتُونَ مِن شِدَّةِ مَا سَمِعوا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، وَ: «حِينَ الصَّعقِ» هَذِهِ وَاحِدَةٌ، «وَالنُّشورِ» هَذِهِ ثَانِيةٌ، وَلِهَذَا كَانَ الرَّاجِحُ أنَّ النَّفخَ فِي الصُّورِ اثنَتَانِ: نَفخَةُ الصَّعقِ ونَفخَةُ البَعثِ.

وَمِنهُم: مَلكُ المَوتِ، المُوَكَّلُ بِقبضِ الأروَاحِ عِندَ المَوتِ، وَيَدلُّ لِهَذَا قَولُ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة:١١]، وَقَدْ وَرَدَ فِي بَعضِ الإسرَائِيلِيَّاتِ أنَّ اسمَهُ: عَزرَائِيلُ وَلَيسَ كَذَلِكَ، وَلِهَذَا لَا يَحِلُّ لَنَا أنْ نُسَمِّيَهُ: «عَزرَائِيلَ» لِعَدَمِ ثُبوتِ ذَلِكَ عَن اللهِ تَعَالَىٰ أو رَسولِهِ ﷺ، بَل نَقولُ كَمَا قَالَ رَبُّنَا ﷻ: ﴿مَلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾.

وَمَلَكُ المَوتِ لَهُ أعوَانٌ مِن المَلَائِكَةِ يَستَخرِجُونَ رُوحَ العَبدِ مِن جِسمِهِ حتَّىٰ تبلُغَ الحُلقُومَ فيتَنَاولُهَا مَلكُ المَوتِ.

وَالمَلائكَةُ يَمُوتُونَ كَمَا يَمُوتُ الإنسُ والجِنُّ، وَقَد جَاءَ ذَلِكَ صَرِيحًا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]. وَالمَلَائِكَةُ تَشمَلُهُم الآيَةُ لأنَّهُم فِي السَّمَاءِ.

ثُمَّ يَقبِضُ اللهُ أروَاحَ البَاقِينَ حَتَّىٰ يَكُونَ آخِرُ مَن يَموتُ مَلكَ المَوتِ، ويَنفَرِدُ الحَيُّ القَيُّومُ، الذِي كَانَ أَوَّلًا وَهُوَ البَاقِي آخِرًا وَيَقُولُ: لِمَن المُلكُ اليَومَ -ثَلَاثَ مَرَّاتٍ-، ثُمَّ يُجِيبُ نَفسَهُ بِنَفسِهِ، فَيَقُولُ: للهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ.

وَمِمَّا يَدُلُّ أيضًا عَلَىٰ أَنَّهُم يَموتُونَ قَولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨].

وَهَل يَموتُ مِنهُم أحَدٌ قَبلَ نَفخَةِ الصُّورِ؟

هَذَا مِمَّا لَا نَعلَمُهُ، وَلَا نَستَطِيعُ الخَوضَ فِيهِ لِعَدَمِ وجُودِ نُصوصٍ مُثبِتَةٍ أو نَافِيةٍ.

وَمِنهُم: مَلَكُ الجِبَالِ المُوكَّلُ بِهَا: وَالجِبَالُ لَهَا مَلَكٌ كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ حِينَ رَجَعَ النَّبيُّ ﷺ مِن عِندِ أهلِ الطَّائِفِ بَعدَ أنْ دَعَاهُم وَلَم يُفِقْ إلَّا فِي قَرنِ الثَّعَالِبِ، لأنَّ أهلَ الطَائِفِ أسَاءُوا مُعَامَلَتَهُ؛ فَقَد اصطَفُّوا

صَفَّينِ وَجَعَلُوا يَهتِفُونَ بِالسُّخرِيةِ بِهِ، وَجَعَلُوا سُفهَاءَهُم يَرمُونَهُ بِالحِجَارَةِ حَتَّىٰ أدمَوا عَقِبَيهِ ﷺ، فَعَلُوا بِهِ أكثَرَ مِمَّا فَعَلَ أهلُ مَكَّةَ بِهِ عِندَ الهِجرَةِ، فَأتَاهُ جبرِيلُ وهُوَ بِقَرنِ الثَّعَالِبِ وَسَلَّمَ عَلَيهِ وَقَالَ: هَذَا مَلَكُ الجِبَالِ؛ يَعنِي: مُرهُ بِمَا تَشَاء، فَإنْ شِئتَ أنْ يُطبِقَ عَلَيهِمُ الأخشَبَينِ -وَهُما جَبَلَانِ بِمَكَّةَ- فَعَلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ -مَعَ هَذِهِ الشِّدَّةِ العَظِيمَةِ-: «**بَل أستَأنِي بِهِم لَعلَّ اللهَ أنْ يُخرِجَ مِن أصلَابِهِم مَن يَعبُدُ اللهَ**»(١).

بِأبِي هُوَ وَأمِّي ﷺ، يَدعُو إلَىٰ رَبِّه لَا إلَىٰ نَفسِهِ، وَهَذَا يَدلُّ عَلَىٰ أنَّهُ ﷺ أبَعدُ النَّاسِ عَن الانتِقَامِ لِنَفسِهِ.

فَقَولُ الرَّسولِ ﷺ لِمَلَكِ الجِبَالِ: «**أستَأنِي بِهِم لَعلَّ اللهَ أنْ يُخرِجَ مِن أصلَابِهِم مَن يَعبُدُ اللهَ**» هَذَا التَّوقُّعُ والرَّجَاءُ تَحقَّقَ، فَخَرَجَ مِن أصلَابِهِم مَن جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَعَلَا بِهِ دِينُ اللهِ ﷻ.

وَمِنَ المَلَائِكَةِ: مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ، لِقولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧]، فَنُؤمِنُ بِهَذَا المَلَكِ وبِأنَّ اسمَهُ: «مَالِكٌ» وَأنَّهُ خَازِنُ النَّارِ؛ لأنَّ ذَلِكَ وَرَدَ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ.

وَمِنهُم مَلائِكَةٌ مُوكَّلونَ بِالأجِنَّةِ فِي الأرحَامِ، دَلِيلُ ذَلِكَ حَدِيثُ عَبدِ اللهِ بنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: حَدَّثَنَا رَسولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ المَصدُوقُ فَقَالَ: «**إنَّ أحَدَكُم يُجمَعُ خَلقُهُ فِي بَطنِ أمِّهِ أربَعِينَ يَومًا نُطفَةً ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثلَ ذَلِكَ،**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

ثُمَّ يَكُونُ مُضغَةً مِثلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُبعَثُ -أو: يُرسَلُ- إلَيهِ المَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ ويُؤمَرُ بِأربَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتبِ رِزقِهِ، وَأجلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقيٌّ أو سَعِيدٌ»[1].

وَآخَرونَ مُوكَّلُونَ بِحِفظِ بَنِي آدم قَالَ تَعالَىٰ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١] أي: يَحفَظُونَهُ بِأمرِ اللهِ.

وَآخَرونَ مُوكَّلونَ بِكتَابَةِ أعمَالِهِم لِكُلِّ شَخصٍ مَلَكَانِ. قَالَ تَعالَىٰ: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق:١٧-١٨]، هَذَانِ مَلَكانِ مُوكَّلانِ بِحِفظِ الأعمَالِ، أحَدُهُمَا عَنِ اليَّمِينِ وَالثَّانِي عَنِ الشِّمَالِ، ﴿رَقِيبٌ﴾أي: مُراقِبٌ حَافِظٌ، ﴿عَتِيدٞ﴾ أَي: حَاضِرٌ لَا يَغِيبُ.

وَآخَرونَ مُوَكَّلُونَ بِسؤالِ المَيتِ بَعدَ الانتِهَاءِ مِن تَسلِيمِهِ إلَىٰ مَثوَاهُ، وَمِنَ الخَطَأ أنْ تَقولَ: (إلَىٰ مَثوَاهُ الأخِيرِ)؛ فَهَذَا مُوجِبُهُ إنكَارُ البَعثِ؛ فَمثوَاهُ الأخِيرُ إمَّا فِي الجَنَّةِ وإمَّا فِي النَّارِ، فَإذَا سُلِّمَ إلَىٰ مَثواهُ حَضَرَ المَلَكَانِ.

يَأتِيهِ المَلَكَانِ يَسألَانِهِ عَن رَبِّهِ وَدِينِهِ ونَبيِهِ: ثَلاثَ مَسائِلَ. فـ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ﴾، وهُوَ قَولُ الحَقِّ، ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فَلَا يَقولُونَ بِالحَقِّ، وَلِهَذَا فَالمُؤمِنُ -أسألُ اللهَ أنْ يَجعَلَنِي وإيَّاكُم مِنْ أهْلِ الثَّبَاتِ- يَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَلَا إشكَالَ عِندَهُ، وَلَا يَتلَعثَمُ، ويَقُولُ: دِينيَ الإسلَامُ، ونَبِيِّي مُحمَّدٌ، فَيُجِيبُ جَوَابًا مُطَابِقًا تَمَامًا لِلحَقِّ.

أمَّا غَيرُ المُؤمِنِ وَهُوَ الظَّالِمُ يَقُولُ: هَاه هَاه لَا أدرِي، وَكَلِمَةُ (هَاه هَاه)

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

تَدلُّ عَلَىٰ أنَّ الرَّجُلَ يُريدُ أنْ يَتذَكَّرَ، وَلَكِنَّهُ يَعجِزُ، وَهَذَا مِمَّا يَزِيدُهُ حَسرَةً، وَلِهَذَا أمرَ النَّبيُّ بَعدَ الفَرَاغِ مِن دَفنِ المَيتِ أنْ نَقِفَ عَلَيهِ، وَأنْ نَستَغفرَ لَهُ، فَكانَ إذَا قُبِرَ المَيتُ وَقَفَ عَلَيهِ وَقَالَ: «**استَغفِروا لِأخِيكُم واسألُوا لَهُ التَّثبِيتَ، فَإنَّهُ الآنَ يُسألُ**»[1]، يَعنِي: يَقُولُ: اللهُمَّ اغفِر لَهُ، اللهُمَّ ثَبِّتْهُ.

وَمِنهُم: **المَلائِكَةُ المُوكَّلونَ بِأهلِ الجَنَّةِ**، مَلائِكةٌ مُوكَّلونَ بِتَهنِئَةِ أهلِ الجَنَّةِ وإدخَالِ السُّرورِ عَلَيهِم، وَسَيكونُ عِندَ الإنسَانِ سُرورٌ عَظِيمٌ أنْ تَتلَقَّاهُ مَلائِكةُ الرَّحمَنِ ﷻ: ﴿يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾، يَدلُّ عَلَىٰ أنَّ فِي الجَنةِ أبوَابًا كَثِيرَةً ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾، يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ الدَّاخِلَ يَقولُ عِندَ دُخولِهِ: سَلامٌ عَلَيكُم، كَمَا جَاءَتْ بِهِ السُّنةُ؛ عِندَما تَستَأذِنَ عَلَىٰ إنسَانٍ تَقولُ: السَّلَامُ عَلَيكُم ﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾، عَلَىٰ الأمُورِ الثَّلاثَةِ المَعروفَةِ عِندَ العُلمَاءِ وَهِيَ:

١- الصَّبرُ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ، وَفِيهِ مُعَانَاةٌ لِعَمَلِ النَّفسِ عَلَيهَا، وَمُعَانَاةٌ لإتعَابِ الجَسَدِ بِهَا.

٢- الصَّبرُ عَن مَعصِيةِ اللهِ، وَفِيهِ مُعَانَاةٌ لِكَفِّ النَّفسِ عَنهَا.

٣- الصَّبرُ عَلَىٰ أقدَارِ اللهِ، وَلَيسَ فِيهِ مُعاناةٌ إلَّا أنَّ الإنسَانَ يُفكِّرُ وَيَقُولُ: الأمرُ وَقَعَ صبرتُ أمْ لَم أصْبِرْ.

وَقَد أخبَرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ البَيتَ المَعمورَ فِي السَّماءِ يَدخُلُهُ -وَفِي رِوَايَةٍ:

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٢١)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٥١١).

يُصلِّي فِيهِ- كُلَّ يَوم سَبعونَ ألفَ مَلكٍ ثُمَّ لَا يَعودُونَ إلَيهِ آخِرَ مَا عَلَيهِم[1]، كُلَّ يومٍ، وَمَا أكثَرَ الأيَامَ ومَا أضعَفنَا أنْ نُحصِيهَا، كُلَّ يومٍ يَدخلُ هَذَا البَيتَ المَعمورَ سَبعونَ ألفَ مَلَكٍ، وَلَا يَعودُونَ إلَيهِ، وَلَا نَدرِي كَم عَددُهَا، ولَكنَّهَا كَثِيرَةٌ، وهَذَا يَدلُّ عَلَىٰ كَثرَةِ المَلَائِكَةِ، وَأنَّهُم عَالَمٌ بِكُلِّ مَا يَكُونُ مِن العَالَمِ، بَل قَالَ الرَّسولُ ﷺ: «**أطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أنْ تَئِطَّ؛ مَا مِن مَوضِعِ أربَعِ أصَابعَ إلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ للهِ أو رَاكِعٌ أو سَاجِدٌ**»[2]، والأطِيطُ: هُوَ صَرِيرُ الرَّحلِ المُحَمَّلِ، وَانظُر إلَىٰ السَّمَاءِ مَا مِن مَوضعِ أربَعِ أصَابعَ إلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ للهِ أو رَاكِعٌ أو سَاجِدٌ، بَينَمَا الأرضُ مَا شَاءَ اللهُ، فِيهَا أميَالٌ وَأميَالٌ مَا فِيهَا رَاكِعٌ وَلَا سَاجِدٌ مِثلَ السَّمَاءِ، لَكِنَّ السَّمَاءَ مَعمُورَةٌ بِالعُبَّادِ الذِينَ يَعبدونَ اللهَ ﷻ.

وَالبَيتُ المَعمورُ كَعبَةُ أهلِ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، وَهُوَ بِحيَالِ الكَعبَةِ، لَو وَقَعَ لَوقَعَ عَلَيهَا[3].

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٤٩).

(٣) قال الألباني: وهذه الزيادة: «حيالَ الكعبة»، ثابتة بمجموع طرقها. [«السلسلة الصحيحة» (١/ ٢٣٦)].

الإيمَانُ بِأن اللهَ أنزَلَ عَلَى رُسلهِ كُتُبًا لِتَكُونَ حُجَّةً عَلَى العَالَمِينَ

الكُتُبُ جَمعُ كِتَابٍ وَهُوَ بِمعنَىٰ مَكتوب، وَالمُرَادُ بِهِ: الكُتُبُ التِي أنزَلَهَا اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ رُسُلِهِ؛ رَحمَةً لِلخَلقِ، وَهِدَايَةً لَهُم؛ لِيَصِلُوا بِهَا إلَىٰ سَعَادَتِهِم فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ.

وَالإيمَانُ بِالكُتُبِ يَتَضَمَّنُ أربَعَةَ أمُورٍ:

١ - الإيمَانُ بِأنَّ نُزولَهَا مِن عِندِ اللهِ حَقًّا.

٢- الإيمَانُ بِمَا عَلِمنَا اسمَهُ مِنهَا بِاسمِهِ، كَالقُرآنِ وَالتَّورَاةِ وَالإنجِيلِ وَالزَّبورِ، وَأمَّا مَا لَم نَعلَم اسمَهُ فَنُؤمِنُ بِهِ إجمَالًا.

٣- تَصدِيقُ مَا صَحَّ مِن أخبَارِهَا، كَأخبَارِ القُرآنِ، وَأخبَارِ مَا لَم يُبَدَّل أو يُحرَّف مِن الكُتبِ السَّابِقَةِ.

٤- العِلمُ بِأحكَامِ مَا لَم يُنسَخْ مِنهَا، وَالرِّضَا وَالتَّسليمُ بِهِ سَواءٌ فَهِمنَا حِكمَتَهُ أمْ لَم نَفهَمهَا.

* **وَقَدْ انقَسَمَ النَّاسُ حِيَالَ الكُتبِ المُنَزَّلَةِ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أقسَامٍ:**

١- قِسمٌ كذَّبَ بِهَا كُلِّهَا، وَهُم أعدَاءُ الرُّسلِ مِن الكُفَّارِ وَالمُشرِكِينَ وَالفَلَاسِفَةِ.

٢- وَقِسمٌ آمَنَ بِهَا كُلِّهَا، وَهُم المُؤمِنُونَ الذِينَ آمَنُوا بِجَمِيعِ الرُّسلِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم.

٣- وَقِسمٌ آمَنَ بِبَعضِ الكُتبِ وَكفَرَ بِبَعضِهَا، وَهُمُ اليَهودُ وَالنَّصَارَىٰ وَمَن سَارَ عَلَىٰ نَهجِهِم.

وَالإِيمَانُ بِالكُتبِ السَّابِقَةِ إِيمَانٌ مُجمَلٌ؛ يَكُونُ بِالإِقرَارِ بِذَلِكَ بِالقَلبِ وَاللسَانِ.

أَمَّا الإِيمَانُ بِالقُرآنِ فَإِنَّهُ إِيمَانٌ مُفصَّلٌ يَكُونُ بِالإِقرَارِ بِالقَلبِ وَاللسَانِ، وَبِاتِّبَاعِ مَا جَاءَ فِيهِ، وَتَحكِيمِهِ فِي كُلِّ كَبِيرَةٍ وَصَغِيرَةٍ، وَبِالإِيمَانِ بِأَنَّهُ كَلَامُ اللهِ مُنَزَّلٌ غَيرُ مَخلُوقٍ مِنهُ بَدَأَ وَإِلَيهِ يَعودُ.

وَجَمِيعُ الكُتبِ السَّابِقَةِ مَنسُوخَةٌ بِالقُرآنِ العَظِيمِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨]، أي: حَاكِمًا عَلَيهِ، وَعَلَىٰ هَذَا فَلَا يَجوزُ العَمَلُ بِأَيِّ حُكمٍ مِن أحكَامِ الكُتبِ السَّابِقَةِ، إِلَّا مَا صَحَّ مِنهَا، وَأقرَّهُ القُرآنُ.

وَنُؤمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أنزَلَ عَلَىٰ رُسلِهِ كُتبًا حُجَّةً عَلَىٰ العَالَمِينَ ومَحجَّةً

لِلعَامِلِينَ، الكِتابُ حُجَّةٌ وَمَحجَّةٌ، حُجةٌ؛ يَعنِي: بَينَةً تَقومُ عَلَىٰ العِبَادِ وَلَا عُذرَ لَهُم بَعدَ ذَلِكَ، مَحَجَّةٌ؛ يَعنِي: طَرِيقًا يَسلُكُهُ العَامِلُونَ.

يُعلِّمونَهُم بِهَا الحِكمَةَ وَيُزَكُّونَهُم، وَمِن أحكَمِ الحِكَمِ أنْ تَعبُدَ اللهَ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لأَنَّكَ إنْ عَبدتَ اللهَ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَقَد وضَعتَ العِبَادَةَ مَوضِعَهَا، وَالحِكمَةُ يُقَالُ فِيهَا: هِيَ وَضعُ الأشيَاءِ فِي مَوَاضِعِهَا.

وَيُزكُّونَهُم؛ أي: يَشهَدونَ لَهُم بِالعَدَالَةِ وَالصِّدقِ، أو يُعلِّمُونَهُم العَدَالَةَ وَالصِّدقَ.

وَنُؤمِنُ بِأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أنزَلَ مَعَ كُلِّ رَسولٍ كِتَابًا؛ لِقَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ [البقرة:٢١٣]، وَعَلَىٰ هَذَا يَكُونُ كُلُّ رَسولٍ مَعهُ كِتَابٌ، أمَّا كُلُّ نَبيٍّ فَلَا يَلزَمُ أنْ يَكُونَ مَعَهُ كِتَابٌ؛ لَكِن مَعَ كُلِّ رَسولٍ كِتَابٌ.

وَنَعلَمُ مِن هَذِهِ الكُتبِ: التَّورَاةَ، التِي أنزَلَهَا اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ مُوسَىٰ ﷺ، وَهِيَ أعظَمُ كُتبِ بَنِي إسرَائِيلَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة:٤٤]. فِيهَا القِصَاصُ: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ

وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة:٤٥]. وَفِيهَا صِفَةُ النَّبيِّ ﷺ، هَذَا مَكتوبٌ فِي التَّورَاةِ وَالإنجِيلِ: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف:١٥٧]، وَالعَجبُ أنَّ بَنِي إسرَائِيلَ لِخُبثِهِم وَمَكرِهِم وكُفرِهِم جَحَدُوا ذَلِكَ مَعَ أَنَّهُ مَوجُودٌ فِي التَّورَاةِ وَالإنجِيلِ، بَل قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾. وَخَصَّ الأبنَاءَ؛ لأنَّ الابنَ فِي قَلبِ أَبِيهِ أغلَىٰ مِنَ البنتِ فَهُوَ يَعتَنِي بِهِ أكثَرَ، فَهُم يَعرِفُونَ الرَّسولَ ﷺ كَمَا يَعرِفُونَ أبنَاءَهُم؛ لَكِنَّهُم -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- لَمَّا جَاءَهُمُ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ.

الإنجِيلُ: الذِي أنزَلَهُ اللهُ عَلَىٰ عِيسَىٰ، وَهَذَا الكِتَابُ مُتَمِّمٌ لِلتَّورَاةِ؛ لأنَّ الأَصلَ فِي كُتبِ بَنِي إسرَائيلَ هِيَ التَّورَاةُ.

وَهُوَ مُصَدِّقٌ لِلتَّورَاةِ وَمُتَمِّمٌ لَهَا، وَاستُدِلَّ لِذَلِكَ بِقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة:٤٦].، أي: أعطَينَاهُ إيَّاهُ.

﴿مُصَدِّقًا﴾ يَعنِي: وَحَالَ كَونِهِ مُصدِّقًا لِمَا بَينَ يَدَيهِ مِن التَّورَاةِ.

* **وَالتَّصدِيقُ لِمَا بَينَ يَدَيهِ لَهُ مَعنَيَانِ:**

الأوَّلُ: أَنَّهُ مُصَدِّقٌ لِمَا سَبَقَهُ؛ أَيْ: هُوَ حَاكِمٌ بِصدقِهِ؛ بَأَنْ يَكُونَ مَا سَبَقَهُ قَد أخبَرَ بِهِ، وَقَالَ: سَينزِلُ كِتَابٌ عَلَىٰ عِيسَىٰ مَثلًا، فَيكُونُ نُزولُ هَذَا الكِتَابِ عَلَىٰ عِيسَىٰ تَصدِيقًا لِلخَبَرِ الذِي فِي الكِتَابِ الأوَّلِ.

الثَّانِي: أَنَّهُ يَشهَدُ بِتَصدِيقِهِ؛ أي: أَنَّهُ أنزَلَهُ شَهَادَةً بِتَصدِيقِ مَا سَبَق، وَهَذَا

سَواءٌ تَعرَّضَ لَهُ الكِتَابُ الأوَّلُ أمْ لَم يَتعرَّضْ؛ فَإِنَّهُ يَشهَدُ بِأَنَّ السَّابِقَ حَقٌّ وَصِدقٌ، وَالإنجِيل حَقٌّ، يَعنِي: نزَلَ تَصدِيقًا لَه؛ لأنَّ التَّورَاةَ قَالَت: سَينزِلُ قُرآنٌ عَلَىٰ مُحمَّدٍ ﷺ، وَالإنجِيلُ قَالَ: سَينزِلُ قُرآنٌ عَلَىٰ مُحمَّدٍ ﷺ، بَل ظَاهِرُ قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦]، أنَّ هَذَا الإخبَارَ كَانَ فِي جَمِيعِ الكُتبِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٤٦]، ﴿وَهُدًى﴾ دَلَالَةٌ، ﴿وَمَوْعِظَةً﴾، تَوفِيقٌ؛ وَالهُدَىٰ هُنَا يَكُونُ مَعنَاهُ: الدَّلَالَةَ؛ لأنَّ المَوعِظَةَ هِيَ الامتِثَالُ، وَقَولُهُ: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأَنَّهُم هُمُ المُنتَفِعُونَ بِهِ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ فِي وَصفِ عِيسَىٰ: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ إذَنْ فَهُوَ مُكمِّلٌ؛ وَلِهَذَا أَحَلَّ اللهُ بِالإنجِيلِ بَعضَ مَا كَانَ مُحرَّمًا عَلَىٰ بَنِي إسرَائِيلَ.

الزَّبُورُ: الذِي آتَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ دَاودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالزَّبُورُ بِمعنَىٰ: الكِتَاب؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

صُحفُ إبرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ -عَلَيهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: وَصُحفُ مُوسَىٰ قِيلَ: إنَّهَا التَّورَاةُ، وَقِيلَ: غَيرُهَا؛ وَاللهُ أعلَمُ؛ وَلَكِن نَقولُ كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى:١٩] قَالَ تَعَالَىٰ ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم:٣٦-٣٧]، لِمَاذَا قَدَّمَ صُحفَ مُوسَىٰ وَهِيَ

مُتَأَخِّرةٌ عَن صُحفِ إبرَاهِيمَ، وفِي سُورَةِ الأعلَىٰ قَدَّمَ صُحفَ إبرَاهِيمَ؟

الجَوَابُ: فِي سُورَةِ «الأعلَىٰ» قَدَّمَ صُحفَ إبرَاهِيمَ؛ لأَنَّهُ مُنَاسِبٌ لِرءوسِ الآيَاتِ وَهُنَا قَدَّمَ صُحفَ مُوسَىٰ وَأَخَّرَ صُحفَ إبرَاهِيمَ؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ وَصَفَ إبرَاهِيمَ بِأَنَّهُ الذِي وَفَّىٰ.

القُرآنُ العَظِيمُ: الذِي أنزَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ نَبيهِ مُحمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيينَ ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥]. فَكَانَ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨]، فَنَسَخَ اللهُ بِهِ جَمِيعَ الكُتُبِ السَّابِقَةِ، وَتَكَفَّلَ بِحفظِهِ عَن عَبثِ العَابِثِينَ وَزَيغِ المُحرِّفِينَ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، لأَنَّهُ سَيبقَىٰ حُجَّةً عَلَىٰ النَّاسِ أجمَعِينَ إلَىٰ يَوم القِيَامَةِ.

هَذَا الكِتَابُ العَظِيمُ هُوَ أشرَفُ الكُتُبِ وَأهَمُّ الكُتُبِ وَأنفَعُهَا وَأقوَمُهَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥] لِلنَّاسِ كُلِّهِم، وَلَكِن هُنَا نَقُولُ: إنَّ اللهَ تَارَةً يَقُولُ: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ وَتَارَةً يَقُولُ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فَمَا الجَمعُ؟

أمَّا الأولَىٰ: فَهِيَ هِدَايَةُ الدَّلاَلَةِ وَالإرشَادِ، وَتَكونُ هُدًىٰ لِلنَّاسِ كُلِّهِم.

وَأمَّا الثَّانِيةُ: فَهِيَ هِدَايَةُ التَّوفِيقِ، وَهَذِهِ يَجعَلُهَا اللهُ لِخوَاصِّ أولِيَائِهِ مِنَ المُتَّقِينَ، وَهِيَ لَا تَكُونُ إلَّا للهِ وَحدَهُ فَهِيَ مَنفِيَّةٌ حَتَّىٰ عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ

﴿وَبَيِّنَٰتٍ﴾ أي: عَلَامَاتٍ بَينَاتٍ وَاضِحَاتٍ ﴿مِّنَ ٱلْهُدَىٰ﴾ الهُدَىٰ؛ يَعنِي: العِلمَ النَّافِعَ، ﴿وَٱلْفُرْقَانِ﴾ مَا يُفرِّقُ بَينَ الحَقِّ والبَاطِلِ، وَبَينَ الصِّدقِ وَالكَذِبِ وَبينَ الجَوْرِ وَالعَدلِ، وَبَينَ أولِيَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ وَأعدَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ.

فَكَانَ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾، ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المُرَادُ الجِنسُ؛ يَعنِي: مِنَ الكُتبِ، فَكلُّ مَا بَينَ يَدَيهِ مِنَ الكُتُبِ فَإنَّهُ يَكُونُ مُصَدِّقًا لَهُ، ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ وَهَذِهِ فِيهَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أنَّ القُرآنَ نَاسِخٌ لِمَا قَبلَهُ، وَأنَّ كُلَّ مَا خَالَفَ القُرآنَ فِي الكُتبِ السَّابِقَةِ فَالقُرآنُ حَاكِمٌ بِبُطلَانِهِ، وَمعنَىٰ الهَيمَنةِ: السَّيطَرَةُ وَالسُّلطَةُ التَّامَّةُ، وَهَذَا يَقتَضِي أنَّ جَمِيعَ مَا فِي الكُتبِ السَّابِقَةِ مَنسوخٌ بِهَذَا القُرآنِ الكَرِيمِ.

وَقَد أجمَعَ العُلَمَاءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- أنَّ شَرِيعَةَ مَن قَبلَنَا إذَا وَرَدَ شَرعُنَا بِخِلَافِهَا فَهِيَ مَنسُوخَةٌ، وَاختَلَفُوا فِيمَا إذَا لَم يَرِد شَرعُنَا بِخلَافِهَا؛ فَقِيلَ: إنَّهَا شَرعٌ لَنَا، وَقِيلَ: لَا.

وَتَكفَّلَ بِحفظِهِ عَن عَبثِ العَابِثينَ وَزَيغِ المُحرِّفِينَ، بَينَمَا الكُتبُ السَّابِقَةُ لَم يَتكَفَّلِ اللهُ تَعَالَىٰ بِحِفظِهَا؛ وَلِهَذَا وَقَعَ فِيهَا التَّحرِيفُ وَالكِتمَانُ ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام:٩١]. لَكِنَّ هَذَا القُرآنَ مَحفُوظٌ، لأنَّهُ لَا يُوجَدُ كِتَابٌ أعظَمُ تَوَاتُرًا مِنهُ، وَلَا كِتَابٌ يَقرَؤهُ الصَّغِيرُ وَالكَبِيرُ مِنَ الأمَّةِ سِوَاهُ، وَلِهَذَا نَجِدُ العَاصِيَ لَو أنَّ أكبَرَ عَالِمٍ زَادَ فِي القُرآنِ لَرَدَّ عَلَيهِ العَاصِي وَهُوَ عَاصٍ، وَهَذَا

مِن نِعمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ وَحِفظِهِ لِلقُرآنِ الكَرِيمِ.

وَبِهَذَا تَعرِفُ ضَلَالَ الرَّافِضَةِ الذِينَ زَعَمُوا أنَّ فِي القُرآنِ مَا لَيسَ مِنهُ وأنَّه حُذِفَ مِنْهُ مَا هُوَ مِنهُ، فَكَذَبُوا عَلَىٰ اللهِ وَكَذَبوا عَلَىٰ الأمَّةِ الإسلَامِيةِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩] هَذِهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِن العَظَمَةِ؛ فِيهَا تَوكِيدٌ بـ«إنَّ»، وضَمِيرُ الفَصلِ «نَحنُ» إشَارَةٌ إلَىٰ التَّوكِيدِ أنَّهُ نَزَلَ مِن عِندَ اللهِ لَا مِن عِندِ غيرِه، ثُمَّ جَاءَتْ بِصِيغَةِ العَظَمَةِ إشَارَةً إلَىٰ عَظَمَةِ مُنزِّلِهِ تَعَالَىٰ، ثُمَّ أكَّدَ حِفظَهُ بِقولِهِ: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ وَاللَّامُ لِلتَّوكِيدِ أيضًا، وَقُدِّمَ المَفعُولُ بِهِ إشَارَةً إلَىٰ العِنَايَةِ بِحِفظِهِ وَإلَّا فَإنَّ اللهَ يَحفَظُ القُرآنَ وَغيرَهُ.

لأنَّهُ سَيَبقَىٰ حُجَّةً عَلَىٰ النَّاسِ أجمَعِينَ إلَىٰ يَومِ القِيَامَةِ؛ يَعنِي: إلَىٰ قُربِ يَومِ القِيَامَةِ؛ لأنَّهُ قَد جَاءَ فِي الآثَارِ أنَّ القُرآنَ يُنزَعُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ مِنَ الصُّدورِ والمَصَاحِفِ، حَتَّىٰ يُصبِحَ النَّاسُ لَيسَ فِي مَصَاحِفِهِم حَرفٌ مِنَ القُرآنِ، وَهَذَا -وَاللهُ أعلَمُ- إذَا أعرَضَ النَّاسُ عَن كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ وَلَم يَعمَلوا بِهِ وَلَم يَرفَعُوا بِهِ رَأسًا؛ فَحِينئذٍ سَيَبقَىٰ فِي مُجتَمعٍ لَيسُوا أهلًا لَهُ وَقَد أهَانُوهُ؛ فَيَرفَعُهُ اللهُ تَعَالَىٰ حِمَايَةً لِكتَابِهِ مِنَ الإهَانَةِ.

*** خُلَاصَةُ اعتِقَادِ أهلِ السُّنَّةِ فِي صِفَةِ الكَلَامِ للهِ -جَلَّ وَعَلَا-:**

أنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَتكَلَّمُ وَأنَّ كَلَامَهُ قَديمُ النَّوعِ حَادِثُ الآحَادِ، وَأنَّهُ تَعَالَىٰ يَتكَلَّمُ بِصَوتٍ يُسمَعُ، وَكَلَامُهُ تَعَالَىٰ حُروفٌ سَمِعَهَا مُوسَىٰ عليه السلام وَيَسمَعُهَا

مِنهُ جِبرِيلُ عليه السلام، وَالمَلَائِكَةُ، وَيَسمَعُ مِنهُ تَعَالَىٰ النَّاسُ يومَ القِيَامَةِ، وَكَلَامُهُ تَعَالَىٰ لَيسَ كَكَلَامِ غَيرِهِ، بَل كَلَامُهُ يَسمَعُهُ الخَلَائِقُ يَومَ القِيَامَةِ، يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسمَعُهُ مَنْ قَرُبَ.

*** اعتِقَادُ أهلِ السُّنَّةِ فِي كِتَابِ اللهِ -جَلَّ وَعَلَا-:**

أَنَّ القُرآنَ كَلَامُ اللهِ تَعَالَىٰ مُنَزَّلٌ غَيرُ مَخلُوقٍ، مِنهُ بَدَأ وَإِلَيهِ يَعودُ.

أَمَّا الكُتبُ السَّابِقَةُ فَإِنَّهَا مُؤقَّتَةٌ بِأَمَدٍ يَنتَهِي بِنزُولِ مَا يَنسخُهَا، وَيُبَيِّنُ مَا حَصَلَ فِيهَا مِن تَحرِيفٍ وَتغيِيرٍ، الكُتُبُ السَّابِقَةُ مُؤقَّتَةٌ بِوَقتٍ وَهُوَ دَوَامُ الرِّسَالَةِ بِالنِّسبَةِ لِلرَّسولِ الذِي نَزَلَ عَلَيهِ الكِتَابُ؛ لِقَولِ النَّبِيِّ ﷺ: «**وَكَانَ النَّبِيُّ يُبعَثُ إِلَىٰ قَومِهِ خَاصَّةً وَبُعِثتُ إِلَىٰ النَّاسِ عَامَّةً**»(١).

وَلِهَذَا لَم تَكُن مَعصُومَةً مِنهُ؛ أي: مِنَ التَّحرِيفِ وَالتَّغيِيرِ؛ **فَقَد وَقَعَ فِيهَا التَّحرِيفُ وَالزِّيَادَةُ وَالنُّقصَانُ**، أَيْ: فِي الكُتبِ السَّابِقَةِ؛ لأَنَّهَا لَيسَت نَازِلَةً لِلدَّوَامِ، بَل هِيَ مُؤَقَّتَةٌ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء:٤٦]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة:٧٩].

هَل فِي هَذِهِ الأُمَّةِ مِن عَمِلَ هَذَا العَمَلَ؟

نَعَم، فِي هَذِهِ الأمَّةِ مَن يُحرِّفُ نُصوصَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إرضَاءً لِلرُّؤسَاءِ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

وَالسَّلَاطِينِ، وَهَؤُلَاءِ يُسمَّونَ عُلمَاءَ الدَّولَةِ؛ لأنَّ العُلمَاءَ -فِيمَا نَرىٰ- ثَلاثَةُ أقسَامٍ:

١- عَالِمُ دَولَةٍ: وهُوَ الذِي يَنظُرُ مَا تَشتَهِيهِ الدَّولَةُ، فَيلوِي أعنَاقَ النُّصوصِ إلَىٰ مَا تُرِيدُ.

٢- وَعَالِمُ أمَّةٍ: وَهُوَ الذِي يَنظُرُ إلَىٰ مَا يَصلُحُ لِلنَّاسِ وَيَروقُ لَهُم، فَيُحرِّفُ النُّصوصَ مِن أجلِ أنْ يُوافِقَ أهوَاءَ النَّاسِ.

٣- وَعَالِمُ مِلَّةٍ: وَهُوَ الذِي يَقومُ بِالمِلَّةِ وَيَنتَصِرُ لَهَا، وَهَذَا هُوَ العَالِمُ الرَّبَّانِي.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾، تَوعَّدَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الفِعلِ وَعَلَىٰ نَتَائِجِ الفِعلِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام:٩١]، هَذَا أيضًا فِيهِ كَتمُ عُلمَائِهِم لِمَا نَزَلَتْ بِهِ التَّورَاةُ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ التَّورَاةَ لَيسَت مَحفُوظَةً.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾

[آل عمران:٧٨].

وَاللَّيُّ نوعَانِ:

١ - لَيٌّ مَعنَويٌّ: وهُوَ التَّحرِيفُ المَعنَويُّ.

٢ - وَلَيٌّ لَفظيٌّ: وَهُوَ التَّحرِيفُ اللَّفظيُّ.

وجَعَل بَعضُ العُلمَاءِ مِنَ اللَّيِّ اللَّفظيِّ أنْ تَتلُوَ النُّصوصَ غَيرَ القُرآنِيَّةِ بِتِلَاوَةِ النُّصوصِ القُرآنِيةِ، فَيوهِمُ ذَلِكَ السَّامِعَ أَنَّهُ قُرآنٌ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧٨]، يَعنِي: أنَّ اللهَ أنزَلَ هَذَا، وَاللهُ لَم يُنَزِّلْهُ، وَهُم يَعلَمُونَ أنَّهُم كَاذِبُونَ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٧٩]، لَا يُمكِنُ هَذَا، وَهَذِهِ الآيَةُ رَدٌّ عَلَىٰ النَّصَارَىٰ الذِينَ قَالُوا: إنَّ عِيسَىٰ ابنُ اللهِ أو إنَّ اللهَ تَعَالَىٰ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ، وزَعَمُوا أنَّ المَسِيحَ أتَاهُم بِذَلِكَ.

إذَا جَاءَ فِي القُرآنِ ﴿مَا كَانَ﴾ فَهُوَ نَفيٌ إمَّا لانتِفَائِهِ شَرعًا، وَإمَّا لانتِفَائِهِ كَونًا، المُهِمُّ أنَّ ﴿مَا كَانَ﴾ وَ«مَا يَنبغِي» وَمَا أشبَهَ ذَلِكَ مِنَ التَّعبِيرَاتِ القُرآنِيَّةِ تَدلُّ عَلَىٰ أنَّ الشَّيءَ مُمتَنِعٌ غَايَةَ الامتِنَاعِ، فَيَمتَنِعُ غَايَةَ الامتِنَاعِ أنْ يُؤتِيَ اللهُ تَعَالَىٰ بَشرًا الكِتَابَ وَالحُكمَ وَالنُّبوةَ؛ ثُمَّ يَقولَ لِلنَّاسِ كُونُوا لِي عِبَادًا مِن دُونِ اللهِ تَعَالَىٰ، لَا يُمكِنُ أبَدًا، بَل إنَّ الذِي آتَاهُ اللهُ الكِتَابَ والحُكمَ وَالنُّبوةَ أبعَدُ النَّاسِ عَن قَولِ ذَلِكَ وَأَشَدُّ النَّاسِ قَولًا فِي النَّهي عَنِ الغُلوِّ.

يُؤخذُ مِن هَذِهِ الآيَاتِ الكَرِيمَةِ: أنَّ مَن وَرِثَ الأنبِيَاءَ لَا يُمكِنُ أنْ يَقولُوا: كُونُوا عِبَادًا لَنَا مِن دُونِ اللهِ تَعَالَىٰ. وَالعُلَمَاءُ هُم وَرَثَةُ الأنبِيَاءِ فَلَا يُمكِنُ لِلعَالِمِ أنْ يُلزِمَ النَّاسَ بِقَولِهِ؛ لأنَّهُ لَو ألزَمَ النَّاسَ بِقولِهِ فَكأنَّمَا قَالَ: كُونُوا عِبَادًا لِي مِن دُونِ اللهِ تَعَالَىٰ.

❊ ❊ ❊

الإيمانُ بأن اللهَ بَعثَ الرسلَ مُبَشِرِينَ وَمُنذِرِينَ

وَالرُّسلُ جَمعُ رَسولٍ بِمعنَىٰ مُرسَلٍ؛ أي: مَبعوثٍ بِإبلَاغِ شَيءٍ، وَالمرَادُ هُنَا: مَن أوحِيَ إلَيهِ مِنَ البَشَرِ بِشَرعٍ وَأُمِرَ بتَبلِيغِه.

وَأوَّلُ الرُّسلِ نُوحٌ وآخِرُهُم مُحمَّدٌ ﷺ، وَلَم تَخلُ أمَّةٌ مِن رَسولٍ يَبعَثُهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِشَرِيعَةٍ مُستَقِلَّةٍ إلَىٰ قَومِهِ، أو نَبيٍّ يُوحَىٰ إلَيهِ بِشَرِيعَةِ مَن قَبلَهُ لِيُجَدِّدَهَا.

وَتَلحَقُ الرُّسلَ خَصَائِصُ البَشَرِيَّةِ مِن المَرضِ وَالمَوتِ وَالحَاجَةِ إلَىٰ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَغَيرِ ذَلِكَ.

* **وَالإيمَانُ بِالرُّسلِ يَتَضَمَّنُ أربَعَةَ أمُورٍ:**

١- الإيمَانُ بِأنَّ رِسَالَتَهُم حَقٌّ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، فَمَن كَفَرَ بِرِسَالَةِ وَاحِدٍ مِنهُم فَقَد كَفَرَ بِالجَمِيعِ.

٢- الإيمَانُ بِمَن عَلِمنَا اسمَهُ مِنهُم بِاسمِهِ، وَأمَّا مَن لَم نَعلَم اسمَهُ مِنهُم فَنُؤمِنُ بِهِ إجمَالًا.

٣- تَصدِيقُ مَا صَحَّ عَنهُم مِن أخبَارِهِم.

٤- العَمَلُ بِشَرِيعَةِ مَن أُرسِلَ إِلَينَا مِنهُم؛ وهُوَ خَاتَمُهُم مُحمَّدٌ ﷺ المُرسلُ إِلَىٰ الثَّقَلَينِ الإنسِ وَالجِنِّ.

الرُّسلُ الذِينَ ذَكرَ اللهُ أسمَاءَهُم فِي القُرآنِ العَظِيمِ يَجِبُ الإيمَانُ بِأعيَانِهِم، وَهُم خَمسَةٌ وَعِشرونَ مِنهُم ثَمَانِيَةَ عَشرَ ذَكرَهُم اللهُ تَعَالَىٰ فِي قَولِهِ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٨٣-٨٦]، وَالبَاقُونَ سَبعَةٌ ذُكِرُوا فِي آيَاتٍ مُتفرِّقَةٍ.

وَمَن لَم يُسَمِّ اللهُ فِي القُرآنِ مِنَ الرُّسلِ وَجَبَ الإيمَانُ بِهِ إجمَالًا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾.

* **الفَرقُ بَينَ الرَّسولِ وَالنَّبيِّ:**

١- **الفَرقُ بَينَهُمَا عَلَىٰ المَشهُورِ:** أنَّ الرَّسولَ إنسَانٌ ذَكرٌ أُوحِيَ إلَيهِ بَشَرعٍ وَأُمِرَ بِتَبلِيغِهِ، وَالنَّبيُّ إنسَانٌ ذَكرٌ أُوحِيَ إلَيهِ بِشَرعٍ وَلَم يُؤمَر بِتَبلِيغِهِ.

٢- **القَولُ الصَّحِيحُ:** هُوَ مَا اختَارَهُ شَيخُ الإسلَامِ أنَّ كُلًّا مَنَ النَّبيِّ وَالرَّسُولِ يُوحَىٰ إلَيهِ، لَكِنَّ النَّبيَّ قَد يُبعَثُ فِي قَومٍ مُؤمِنِينَ بِشَرَائِعَ سَابِقَةٍ كَأنبِيَاءِ بَنِي إسرَائِيلَ يَأمرُونَ بِشَرِيعَةِ التَّورَاةِ، وَقَد يُوحَىٰ إلَىٰ أحدِهِم وَحيٌ

خَاصٌّ فِي قَضِيةٍ مُعَينَةٍ، وَأمَّا الرُّسلُ فإنَّهُم يُبعَثونَ فِي قَومٍ كُفَّارٍ يَدعُونَهُم إلَىٰ تَوحِيدِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ، فَهُم يُرسَلُونَ إلَىٰ المُخَالِفِينَ فَيكذِّبُهُم بَعضُهُم، وَالرَّسولُ أفضَلُ مِنَ النَّبيِّ.

وَالرُّسلُ يَتَفَاضلُونَ قَالَ تَعالَىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وَأفضَلُ الرُّسلِ أُولُو العَزمِ وَهُم خَمسَةٌ: «نُوحٌ، وإبرَاهِيمُ، ومُوسَىٰ، وعِيسَىٰ، ومُحمَّدٌ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِم وَسَلَّم-»، وأفضَلُ أولِي العَزمِ الخَلِيلَانِ «إبرَاهِيمُ، ومَحمَّدٌ»، وَأفضَلُ الخَلِيلَينِ «مُحمَّدٌ»ﷺ.

النَّبوةُ تَفَضُّلٌ وَاختِيَارٌ مِنَ اللهِ -جَلَّ وَعَلَا- كَمَا قَالَ تَعالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج:٧٥]، فَلَيسَت النُّبوةُ كَسبًا يَنَالُهُ العَبدُ بِالجِدِّ والاجتِهَادِ وَتَكلُّفِ أنوَاعِ العِبَادَاتِ وَاقتِحَامِ أشَقِّ الطَّاعَاتِ، بَل النَّبوةُ مَحضُ امتِنَانٍ وتَفضُّلٍ مِنَ اللهِ -جَلَّ وَعَلَا-.

وَأنبِيَاءُ اللهِ تَعَالَىٰ دِينُهُم وَاحِدٌ وَإنْ تَنوعَت شَرَائِعُهُم، فَدِينُهُم هُوَ دِينُ الإسلَامِ الذِي لَا يَقبلُ اللهُ غَيرَهُ؛ وهُوَ الاستِسلَامُ للهِ بِالتَّوحِيدِ، وَالانقِيادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالخُلوصُ مِنَ الشِّركِ وأهلِهِ.

قَالَ نُوحٌ عليه السلام: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، وقَالَ تَعَالَىٰ عَنْ إبرَاهِيمَ عليه السلام: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ [البقرة:١٣١]، وَقَالَ سُبحَانَهُ عَن مُوسَىٰ عليه السلام: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس:٨٤]، وَقَالَ عَن المَسِيحِ عليه السلام: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا

وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة:١١]، وقال تَعَالَىٰ فِيمَنْ تَقدَّمَ مِنَ الأنبِيَاءِ وَعَنِ التَّورَاةِ: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ [المائدة:٤٤].

فَهَذَا هُوَ الإسلَامُ العَامُّ، وَأَمَّا الإسلَامُ الخَاصُّ الذِي جَاءَ بِهِ النَّبيُّ ﷺ فَهُوَ مَا يَتَعلَّقُ أيضًا بِشَرِيعَتِهِ ﷺ.

وَاللهُ تَعَالَىٰ يُشَرِّعُ لِكُلِّ أمَّةٍ مَا يُنَاسِبُ حَالَهَا وَوَقتَهَا، وَيكُونُ كَفِيلًا بِإصلَاحِهَا، مُتَضمِّنًا لِمَصَالِحِهَا، ثُمَّ يَنسَخُ اللهُ مَا يَشَاءُ مِن تِلكَ الشَّرائعِ بِانتِهَاءِ أجَلِهَا، إلَىٰ أنْ بَعَثَ اللهُ نَبِيَّهُ مُحمَّدًا ﷺ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ إلَىٰ جَمِيعِ النَّاسِ عَلَىٰ وَجهِ الأرضِ وَعَلَىٰ امتِدَادِ الزَّمَانِ إلَىٰ يَومِ القِيَامَةِ، وَشَرَعَ لَهُ شَرِيعَةً شَامِلَةً صَالِحَةً مُصلِحَةً لِكُلِّ زَمانٍ وَمَكَانٍ، لَا تُبَدَّلُ وَلَا تُنسَخُ، فَلَا يَسَعُ جَمِيعَ أهلِ الأرضِ إلَّا اتبَاعُهُ وَالإيمَانُ بِهِ ﷺ.

وَنُؤمِنُ بِأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ بَعَثَ إلَىٰ خَلقِهِ رُسُلًا، نُؤمِنُ بِذَلِكَ: أنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَم يَترُكِ الخَلقَ سُدًى، بَل أرسَلَ إلَيهِم ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾، ﴿مُّبَشِّرِينَ ﴾ بِالثَّوابِ لِمَن أطَاعَ، ﴿ وَمُنذِرِينَ ﴾ بِالعِقَابِ لِمَن عَصَىٰ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾.

هَذِهِ الآيَةُ فِيهَا رَدٌّ عَلَىٰ الجَبرِيَّةِ الذِينَ يَقُولُونَ: إنَّ الإنسَانَ مُجبَرٌ عَلَىٰ عَمَلِهِ؛ لأنَّهُ لَو كَانَ الإنسَانُ مُجبَرًا عَلَىٰ عَمَلِهِ؛ لَكَانَ لَهُم حُجَّةٌ سَواءٌ بُعِث إلَيهِم الرُّسلُ أمْ لَم يُبعَثُوا، لَكِنَّ بَعثَ الرُّسلِ يَقطَعُ الحُجَّةَ.

وَفِيهِ أيضًا رَدٌّ عَلَىٰ مَن قَالُوا: إنَّهُ لَا عُذرَ بِالجَهلِ؛ لأنَّ مَفهُومَ الآيَةِ: لَولَا

الرُّسلُ لَكَانَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ حُجَّةٌ؛ لأَنَّهُم كَانُوا جَاهِلِينَ، فَالصَّوابُ الذي لَا شَكَّ فِيهِ، وَالذِي تَدُلُّ عَلَيهِ الأدِلَّةُ أَنَّ الإنسَانَ مَعذُورٌ بِالجَهلِ، ثُمَّ إنْ كَانَ يَنتَسِبُ إلَىٰ الإسلَامِ فِيمَا يَفعَلُهُ فَهُوَ مُسلِمٌ وإنْ فَعلَ مَا يُكفِّرُ إذَا لَم تَقُم عَلَيهِ الحُجَّةُ.

وَإنْ كَانَ لَا يَنتَسِبُ لِلإسلَامِ فَهُوَ كَافِرٌ، لَكنَّهُ إذَا كَانَتِ الحُجَّةُ لَم تَبلُغْهُ، فَإنَّ القَولَ الرَّاجِحَ أَنَّهُ يُمتَحَنُ يومَ القِيامَةِ بِمَا شَاءَ اللهُ ﷻ، ثُمَّ إمَّا إلَىٰ الجَنَّةِ، وَإمَّا إلَىٰ النَّارِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]، يَعنِي: مَا مِن أمَّةٍ إلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ وجَاءَهَا رَسولٌ.

* * *

الإيمانُ بأن أولَ الرسلِ نُوحٌ عليه السلام وآخِرهُم مُحمدٌ عليه السلام

وَنُؤمِنُ بِأَنَّ أَوَّلَهُم نُوحٌ، وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣]، لَو كَانَ أَحَدٌ قَبلَ نُوحٍ عليه السلام لَذَكَرَهُ، وَهَذَا وَحيُ الرِّسَالَةِ، أَمَّا وَحيُ النُّبوةِ فَقَد كَانَ قَبلَ نُوحٍ فِي آدَمَ، لَكِنَّ وَحيَ الرِّسَالَةِ الذِي أَكَّدَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي قَولِهِ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ﴾، هَذَا كَانَ أَوَّلَهُ نُوحٌ عليه السلام، وَمِنَ الأدِلَّةِ قَولُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد:٢٦]، فَذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ أرسَلَ نُوحًا وَإبرَاهِيمَ وَأَنَّ النُّبوَّةَ وَالكِتَابَ كَانَت فِي ذُرِّيَّتِهِمَا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا رَسُولَ قَبلَ نُوحٍ، وَبِهَذَا نَعرِفُ أَنَّ مَن قَالَ مِنَ المُؤرِّخِينَ: إنَّ إدرِيسَ كَانَ قَبلَ نُوحٍ فَهَذَا قَولٌ بَاطِلٌ؛ لأَنَّهُ يَستَلزِمُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ رَسولٌ قَبلَ نُوحٍ، وَهُوَ مُخَالِفٌ لِلقُرآنِ.

وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ عَلَىٰ أَنَّ نُوحًا أَوَّلُ الرُّسلِ؛ أَنَّهُ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ المُتَّفقِ عَلَيهِ أَنَّهُم يَأتُونَ إلَىٰ نُوحٍ، وَيُذَكِّرونَهُ بِنِعمَةِ اللهِ، وَمِنهَا أَنَّهُ أَوَّلُ رَسولٍ أرسَلَهُ اللهُ إلَىٰ أهلِ الأرضِ، وَهَذَا صَرِيحٌ بِأَنَّ أَوَّلَ الرُّسلِ نُوحٌ.

أمَّا آخِرُهُم فَهُوَ مُحمَّدٌ ﷺ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَولُهُ تَعالَىٰ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب:٤٠]، الآيَةُ هُنَا جَمعَتْ بَينَ الرِّسَالَةِ وَالنُّبوَّةِ، لأنَّهُ لَا يَكُونُ بَعدَهُ نَبيٌّ ولَا رَسولٌ، فَمَن ادَّعَىٰ النُّبوَّةَ دُونَ الرِّسَالَةِ فَهُوَ كَاذِبٌ، وَكَافِرٌ أيضًا لِتكذِيبِهِ القُرآنَ وَالسُّنَّةَ.

اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ أرْسَلَ المُرسَلِينَ، وَأنزَلَ مَعَهُمُ البيِّنَاتِ وَالآيَاتِ، وَالحُجَجَ البَاهِرَاتِ، وَهِيَ مَا يُقَالُ لَهَا: المُعجِزَاتُ، وَهِيَ دَلَائِلُ النُّبوَّةِ.

المُعجِزَةُ: أمرٌ خَارِقٌ لِلعَادَةِ مُتَحدًّىٰ بِهِ، يَقُومُ مَقَامَ لَو أنَّ اللهَ تَعالَىٰ خَاطَبَ خَلقَهُ لَقَالَ لَهُم: صَدقَ عَبدِي فيمَا يُبلِّغُ عنِّي، وَهِيَ أمرٌ خَارِقٌ لِلعَادَةِ يَأتِي عَلَىٰ يَدِ مُدَّعِي النُّبوَّةِ لإثبَاتِ صِدقِهِ فِيمَا ادَّعَاهُ.

دَلَائِلُ النُّبوةِ: هِيَ الأدِلَّةُ التِي تُعرَفُ بِهَا نُبوَّةُ النَّبيِّ الصَّادِقِ، وَيُعرَفُ بِهَا كَذِبُ المُدَّعِي لِلنُّبوَّةِ مِنَ المُتَنبِّئِينَ الكَذَبَةِ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ وَمِنهَا المُعجِزَةُ.

وَمُعجِزَاتُ الرُّسلِ كَثِيرَةٌ فَمِنهَا: النَّاقَةُ التِي أُوتِيهَا صَالِحٌ ، وَمِنهَا قَلبُ العَصَا حَيَّةً وَهِيَ آيَةُ مُوسَىٰ ، وَإبرَاءُ الأكمَهِ وَالأبرَصِ، وإحيَاءُ المَوتَىٰ آيَةً لِعِيسَىٰ ، وَمِنهَا مُعجِزَاتُ نَبيِّنَا مُحمَّدٍ ﷺ وَهِي كَثِيرَةٌ أعظَمُهَا القُرآنُ العَظِيمُ، وَهِيَ المُعجِزَةُ الخَالِدَةُ التِي تَحدَّىٰ اللهُ بِهَا الجِنَّ وَالإنسَ، وَمِنهَا الإسرَاءُ وَالمِعرَاجُ، وَانشِقَاقُ القَمَرِ، وَتَسبِيحُ الحَصَىٰ فِي كَفِّهِ ﷺ، وَحَنِينُ الجِذعِ إلَيهِ، وَإخبَارُهُ عَن حَوَادِثِ المُستَقبَلِ وَالمَاضِي.

وَدَلَائِلُ النُّبوَّةِ لَيسَت مَحصُورَةً فِي المُعجِزَاتِ، بَل هِيَ كَثِيرَةٌ وَمُتَنوِّعَةٌ.

الفَرقُ بَينَ دَلَائِلِ النُّبوَّةِ وَغَيرِهَا مِنَ الخَوارِقِ وَالمُختَرَعَاتِ:

إنَّ هُنَاكَ فَوَارِقَ بَينَ دَلَائِلِ النُّبوَّةِ، وَمَخْرَقَةِ السَّحَرَةِ والكُهَّانِ وَالمُختَرَعَاتِ الحَدِيثَةِ:

مِنهَا: أنَّ أخبَارَ الأنبِيَاءِ لَا يَقعُ فِيهَا تَخلُّفٌ وَلَا غَلطٌ، بِخِلَافِ أخبَارِ الكَهَنَةِ وَالمُنَجِّمِينَ فَالغَالِبُ عَلَيهَا الكَذِبُ، وَإنْ صَدَقُوا أحيَانًا فِي بَعضِ الأشيَاءِ بِسَبَبِ مَا يَحصُلُ عَلَيهِ الكُهَّانُ مِنَ استِرَاقِ شَياطِينِهِم لِلسَّمعِ.

وَمِنهَا: أنَّ السِّحرَ وَالكَهَانَةَ وَالاختِرَاعَ أمُورٌ مُعتَادَةٌ مَعرُوفَةٌ يِنَالُهَا الإنسَانُ بِكَسبِهِ وَتَعلُّمِهِ، فَهِيَ لَا تَخرُجُ عَن كَونِهَا مَقدُورَةً لِلجِنِّ وَالإنسِ، وَيُمكِنُ مُعَارَضَتُهَا بِمثلِهَا، بِخِلَافِ آيَاتِ الأنبِيَاءِ فَإنَّهَا لَا تُعَارَضُ.

وَمِنهَا: أنَّ الأنبِيَاءَ مُؤمِنُونَ مُسلِمُونَ يَعبدُونَ اللهَ وَحدَهُ بِمَا أمَرَ، وَيُصَدِّقُونَ بِمَا جَاءَ بِهِ الأنبِيَاءُ، وَأمَّا السَّحرَةُ وَالكُهَّانُ وَالمُتَنبِّئونَ الكَذَبَةُ فَلَا يَكونُونَ إلَّا مُشرِكِينَ مُكَذِّبِينَ وَلَو بِبَعضِ مَا أنزَلَ اللهُ.

الفِطرُ والعُقولُ تُوَافِقُ مَا جَاءَ بِهِ الأنبِيَاءُ -عَلَيهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وَأمَّا السَّحَرَةُ وَالكُهَّانُ وَالدَّجَّالُونَ وَالكَذَّابونَ؛ فَإنَّهُم يُخَالِفُونَ الأدِلَّةَ السَّمعِيةَ وَالعَقلِيَّةَ وَالفِطرِيَّةَ.

وَمِنهَا: أنَّ مُعجِزَاتِ الأنبِيَاءِ لَا تَحصُلُ بِأفعَالِهِم هُم إنَّمَا يُوجِدُهَا اللهُ آيَةً

وَعَلَامَةً لَهُم وَيُجرِيهَا عَلَىٰ أيدِيهِم، وَأمَّا خَوارِقُ السَّحَرَةِ وَالكُهَّانِ، وَالمُختَرَعَاتُ، فَإنَّهَا تَحصُلُ بِأفعَالِ الخَلقِ وَهِيَ مَقدُورٌ عَلَيهَا، مَن عَرَفَ أسرَارَهَا وَتَعلَّمَ عُلُومَهَا أتَىٰ بِمثلِهَا، ورُبَّمَا فَاقَ.



الإيمانُ بأن أفضَلَ الأنبيَاءِ هُوَ مُحمدٌ ثم إبراهيمُ ثم مُوسَى ثم نُوحٌ وَعِيسَى بنُ مَريَمَ عَلَيهِمُ الصلاةُ وَالسلامُ

إنَّ أفضَلَ الرُّسُلِ مُحمَّدٌ ﷺ، وَهُوَ كَذَلِكَ أفضَلُ الأنبيَاءِ؛ لأنَّهُ خَاتَمُهُم، وَلأنَّهُ أكثَرُهُم أتبَاعًا، وَلأنَّ الكِتَابَ الذِي أُنزِلَ إلَيهِ أعظَمُ الكُتبِ، وَلأسبَابٍ كَثِيرَةٍ، وَمِمَّا يَدلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ: أنَّهُ لَمَّا أُسرِيَ بِهِ إلَىٰ بَيتِ المَقدِسِ، كَانَ الإمَامُ مُحمَّدًا ﷺ؛ وَهَذَا يَدلُّ عَلَىٰ أنَّهُ أفضَلُهُم، إذْ يَؤمُّ القَومَ أتقَاهُم للهِ تَعَالَىٰ وَأكرَمُهُم عِندَ اللهِ، وَفِي يَوم القِيَامَةِ يَأتِي النَّاسُ أكَابِرَ الأنبيَاءِ لِطَلَبِ الشَّفَاعَةِ حَتَّىٰ تَنتَهِيَ إلَىٰ النَّبيِّ ﷺ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّهُ ﷺ أفضَلُ الرُّسلِ.

ثُمَّ إبرَاهِيمُ، فَإنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيفَ ذَلِكَ وَقَد قَالَ اللهُ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [النحل:١٢٣]، وَمِن المَعلُومِ أنَّ التَّابعَ أقَلُّ دَرَجَةً مِنَ المَتبُوعِ؟

الإجَابَةُ: لَا تَفَاضُلَ؛ لأنَّ المِلَّتَينِ وَاحِدَةٌ؛ وَهِيَ التَّوحِيدُ، لَكِن ذُكِرَ إبرَاهِيمُ لأنَّ اليَهودَ يَقولُونَ: نَحنُ أولَىٰ بِإبرَاهِيمَ، وَالنَّصَارَىٰ يَقولُونَ: نَحنُ أولَىٰ بِإبرَاهِيمَ، وَالعَرَبُ يَقولُونَ: نَحنُ أتبَاعُ إبرَاهِيمَ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾، وَعَلَىٰ هَذَا فَمَن خَالَفَ هَديَ الرَّسُولِ فَقَد

خَالَفَ هَديَ إبرَاهِيمَ، فَيكُونُ فِي ذَلِكَ إقَامَةُ الحُجَّةِ عَلَىٰ مَن قَالَ: إنَّهُ أولَىٰ بإبرَاهِيمَ مِن مُحمَّدٍ ﷺ.

وَبِهَذَا قَالَ اللهُ ﷻ مُصَرِّحًا بِذَلِكَ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨]، وَالذِينَ اتَّبَعوهُ فِي زَمَنِ رِسَالَتِهِ، أمَّا بَعدَ بَعثَةِ الرَّسولِ ﷺ فَأولَىٰ النَّاسِ بِإبرَاهِيمَ مُحمَّدٌ ﷺ.

ثُمَّ مُوسَىٰ ثُمَّ نُوحٌ وعِيسَىٰ بنُ مَريَمَ وَقَدْ ذُكِرَ مُحَمَّدٌ وَإبرَاهِيمُ وَمُوسَىٰ بـ: ثُمَّ الدَّالَّةِ عَلَىٰ التَّرتِيبِ وَذُكِرَ الرَّابعُ وَالخَامِسُ بِالوَاوِ؛ لأنَّهُ لَم يَكُن هُنَاكَ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَىٰ أنَّ عِيسَىٰ أفضَلُ مِن نُوحٍ، أو أَنَّ نُوحًا أفضَلُ مِن عِيسَىٰ.

وَمَن قَدَّمَ نُوحًا، فَلأنَّهُ لَبِثَ فِي قَومِهِ ألفَ سَنَةٍ إلَّا خَمسِينَ عَامًا يَدعُوهُم إلَىٰ اللهِ ﷻ، وَتَوعَّدُوهُ، وَآذَوهُ إيذَاءً عَظِيمًا، وَكَانُوا يَسخَرونَ مِنهُ كُلَّمَا مَرُّوا بِهِ وَهُوَ يَصنَعُ السَّفِينَةَ، وَاللهُ أعلَمُ.

* * *

بَيَانُ أن شَرِيعَةَ مُحمدٍ ﷺ جَامِعَةٌ لِجَمِيعِ الفَضَائِلِ التِي اشْتَمَلَتْ عَلَيهَا الرسَالاتُ السابقَةُ

فَنَعتَقِدُ أنَّ شَرِيعَةَ مُحمَّدٍ ﷺ حَاوِيَةٌ لِفَضَائِلِ شَرَائِعِ هَؤلَاءِ الرُّسلِ المَخصُوصِينَ بِالفَضلِ؛ حَاوِيَةٌ؛ يَعنِي: جَامِعَةً، فَشَرِيعَةُ النَّبيِّ ﷺ جَامِعَةٌ لِجَمِيعِ الفَضَائِلِ التِي اشتَمَلتْ عَلَيهَا الرِّسَالَاتُ السَّابِقَةُ، دَلِيلُ ذَلِكَ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورى:١٣]، وَهَؤلَاءِالأربَعَةُ مَعَ نَبيِّنَا؛ هُم أولُو العَزمِ، وَالقَاعِدَةُ الأصيلِةُ فِي هَذَا قَولُهُ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ هَذَا فِيمَا بَينَ العَبدِ وَبَينَ رَبِّهِ وَهِيَ إصلَاحُ الفَردِ.

﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ يَعنِي: لَا تَكُونُوا فِرقًا، كُلُّ فِرقَةٍ تُضَلِّلُ الأخرَىٰ وتُبدِّعُها وَتُنكِرُ عَلَيهَا، وَلِهَذَا نَرَىٰ أنَّ التَّحزُّبَ وقُوعٌ فِيمَا نَهَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَنهُ مِنَ التَّفرُّقِ، وَأنَّهُ لَا يَجوزُ لِلأمَّةِ الإسلَامِيةِ أنْ تَتخِذَ أحزَابًا، وَأنَّ هَذِهِ الأحزَابَ الدِّينِيَّةَ تَعنِي حَرْبَ الإسلَامِ ، لأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦].

وَنُؤمِنُ بِأنَّ جَمِيعَ الرُّسلِ بَشرٌ؛ يَعنِي: لَيسُوا مَلَائِكَةً «**مَخلُوقِينَ**» يَعنِي: لَيسُوا أربَابًا.

وَلَولَا رَحمَةُ اللهِ لَمَا أرسَلَ إلَينَا رُسلًا، لَمَّا قَالُوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٨]، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام:٩]، فَعَادَتِ المُشكِلَةُ؛ لأنَّهُ لَا يُمكِنُ أنْ يُرسَلَ مَلَكٌ إلَىٰ بَشرٍ؛ لَو كَانَ الذِينَ فِي الأرضِ مَلائِكَةً لَكَانَ الأمرُ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٥]، لَكِنَّ الذِينَ يَمشُونَ فِي الأرضِ مُطَمَئِنِّينَ هُمُ البَشرُ، فَالحِكمَةُ وَالرَّحمَةُ تَقتَضِي ألَّا يُرسِلَ إلَيهِم إلَّا بَشرًا.

إذَنْ؛ فَالأنبِيَاءُ بَشرٌ لَا مَلَائِكَةٌ، وَلَا يَلِيقُ بِالحِكمَةِ وَالرَّحمَةِ الإلَهِيةِ أنْ يَنزِلَ عَلَىٰ هَؤلَاءِ البَشرِ أحَدٌ مِنَ المَلَائِكَةِ.

«مَخلُوقِينَ» يَعنِي: لَيسُوا خَالِقِينَ، بَل هُم مَربُوبُونَ لَهُم رَبٌّ.

«**لَيسَ لَهُم مِن خَصَائِصِ الرُّبُوبِيةِ شَيءٌ**» خَصَائِصُ الرُّبُوبِيةِ التِي لِرَبِّ العَالَمِينَ، لَا يَملِكُهَا الأنبِيَاءُ ولَا غَيرُ الأنبِيَاءِ؛ إنَّمَا هِيَ للهِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ عَن نُوحٍ وَهُوَ أوَّلُهُم: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [هود:٣١]، ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ يَعنِي: قَومَهُ، ﴿عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أي: خَزَائِنُ رِزقِهِ وَرَحمَتِهِ، مَا هِيَ عِندِي، بَل هِيَ عِندَ اللهِ وَحدَهُ هُوَ الذِي يَرزُقُ.

﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ وإِنَّمَا عِلمُ الغَيبِ عِندَ اللهِ تَعَالَىٰ، ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ لَم يَقُل: وَلَستُ بِمَلَكٍ، لأنَّ هَذَا مَعلُومٌ، كُلُّهُم يَعرِفُونَ أنَّ نُوحًا بَشَرٌ لَيسَ مَلَكًا لَكِن يَقُولُ: ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾ يَعنِي: لَا أَدَّعِي أَنِّي مَلَكٌ.

وَأمَرَ اللهُ تَعَالَىٰ مُحمَّدًا وَهُوَ آخرُهُم أنْ يَقولَ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٥٠]، هَذِهِ الجُملَةُ هِيَ التِي قَالَهَا نُوحٌ ﷺ، الكَلَامُ نَفسُهُ أَمَرَهُ اللهُ أنْ يَقولَهُ، وَالرَّسولُ ﷺ أعبَدُ النَّاسِ للهِ وَأطوَعُهُم لَهُ، فَلَابُدَّ أَنَّهُ قَالَ هَذَا.

إِذَن؛ اتَّفَقَتْ كَلِمَةُ الرُّسلِ -عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أَوَّلِهِم وَآخِرِهِم عَلَىٰ هَذِهِ الجُمَلِ: أَنَّهُم لَا يَعلَمُونَ الغَيبَ، وَلَيسَ عِندَهُم خَزَائِنُ اللهِ، وَلَيسُوا مَلَائِكَةً.

وَأنْ يَقولَ؛ يَعنِي: مُحمَّدًا ﷺ: ﴿لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:١٨٨]، يَعنِي: لَا أملِكُ أنْ أنفَعَ نَفسِي وَلَا أُضُرَّهَا، فَهُوَ ﷺ لَا يملِكُ لِنَفسِهِ نَفعًا وَلَا ضَرًّا، وَلَا يَملِكُ لِغَيرِهِ أيضًا مِن بَابِ أولَىٰ. **وَأنْ يَقولَ:** ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن:٢١]، ﴿ضَرًّا﴾ فِي أبدَانِكُم ﴿وَلَا رَشَدًا﴾ فِي عُقولِكُم وَتَصرُّفِكُم، لَا أملِكُ هَذَا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾، أي: لَن يَمنَعَنِي أَحَدٌ مِنَ اللهِ لَو أَرَادَ بِيَ سُوءًا، ﴿وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾، يَعنِي: لَن أجِدَ مِن دُونِ اللهِ مَلجأً ومَلَاذًا لَو أرَادَنِي بِسوءٍ، فَأنَا لَا أملِكُ أنْ أُدَافِعَ أو أنْ امتَنِعَ بِأحَدٍ.

الرَّسولُ يَقولُ هَذَا لِلأمَّةِ كُلِّهَا.

الإيمَانُ بِأن الأنبِيَاءَ عَبِيدٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ أكرَمَهُمُ اللهُ بِالرسَالَةِ

وَنُؤمِنُ بِأَنَّهُم عَبِيدٌ مِن عِبَادِ اللهِ أكرَمَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالرِّسَالَةِ، وَلَا شَكَّ أنَّ اللهَ مَنَّ عَلَيهِم بِالرِّسَالَةِ أعظَمَ مِنَّةٍ، وَأنَّ الرِّسَالَةَ مِن أكبَرِ النِّعَمِ بَعدَ الهِدَايَةِ لِلإسلَامِ، وَحِينَئِذٍ نَقُولُ: مَن وَرِثَ الأنبِيَاءَ فِي عِلمِهِم ودَعوَتِهِم إلَىٰ اللهِ وَاستَقَامَ حَالُهُ، فَقَد أكرَمَهُ اللهُ، بَلْ كُلُّ مَسألَةٍ يَمُنُّ اللهُ عَلَيكَ بِعلمِهَا فَهِيَ إكرَامٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ لَكَ، لأنَّ اللهَ يَنقُلُكَ مِن حَالِ الجَهلِ بِهَا إلَىٰ حَالِ العِلمِ بِهَا، وَهَذَا إكرَامٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ لِلعَبدِ.

إذَا كَانَ مِن وَرَثَةِ الأنبِيَاءِ فِي العِلمِ وَالعَمَلِ والدَّعوَةِ إلَىٰ اللهِ -جَلَّ وَعَلَا- واستَقَامَ حَالُهُ فَآمَنَ بِاللهِ ثُمَّ استقَامَ، لأنَّ الإنسَانَ إذَا عَلِمَ مَسألَةً فَقَد زَادَ بِهَا عَلَىٰ الجَاهِلِ مَرْتَبَةً.

فَيجِبُ عَلَىٰ طَالِبِ العِلمِ أنْ يَشعُرَ بِأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أكرَمَهُ بِمَا مَنَّ عَلَيهِ مِن طَلَبِ العِلمِ، كَمَا أكرَمَ الرُّسُلَ بِالرِّسَالَةِ، وَلَا شَكَّ أنَّ مِن أعظَمِ المِنَنِ عَلَىٰ العَبدِ، بَل هِيَ أعظَمُ مِنَّةٍ يَمُنُّهَا اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- عَلَيهِ بَعدَ أنْ يَهدِيَهُ إلَىٰ الإسلَامِ العَظِيمِ: أنْ يُعلِّمَهُ مِمَّا عَلَّمَ نَبيهُ ﷺ، وَأنْ يَكُونَ عَامِلًا بِذَلِك، دَاعِيًا

إِلَيهِ، صَابِرًا عَلَىٰ الأَذَىٰ فِيهِ.

وَالأنبيَاءُ -صَلوَاتُ اللهِ وَسلَامُهُ عَلَيهِم-، **أكرَمَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالرِّسَالَةِ وَوَصَفَهُم بِالعُبودِيَّةِ فِي أعلَىٰ مَقَامَاتِهِم، وَفِي سِياقِ الثَّنَاءِ عَليهِم**، وَقَد آتَاهُمُ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- العِصمَةَ، وَعِصمَةُ الأنبِيَاءِ مُقرَّرَةٌ لَهُم؛ لأنَّ الذِي يُبَلِّغُ رِسَالَاتِ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- يَنبَغِي أنْ يَكُونَ عَلَىٰ قَدرِ هَذِهِ المَسئُولِيةِ فَعصَمَ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- أنبِيَاءَهُ وَرُسلَهُ.

عِصمَةُ الأنبِيَاءِ: العِصمَةُ: المَنعَةُ، والعَاصِمُ: المَانِعُ الحَامِي.

وَالاعتِصَامُ: الاستِمسَاكُ بِالشَّيءِ، وَالمُرَادُ بِعِصمَةِ اللهِ لِلأَنبِيَاءِ: حِفظُ اللهِ لأَنبِيَائِهِ مِن الذُّنوبِ وَالمَعَاصِي.

وَعِصمَةُ الأنبِيَاءِ مِنهَا مَا هُوَ مُجمَعٌ عَلَيهِ، وَهُوَ فِيمَا يُخبِرُونَهُ عَن اللهِ فِي تَبلِيغِ رِسَالَتِهِ؛ لأنَّ هَذِهِ العِصمَةَ هِيَ التِي يَحصُلُ بِهَا مَقصودُ الرِّسَالَةِ وَالنُّبوةِ، فَهُم مَعصُومُونَ فِي أمرِ البَلَاغِ، ثُمَّ اختَلَفُوا فِي عِصمَةِ الأنبِيَاءِ مِن المَعَاصِي فَقَالَ بَعضُهُم بِعِصمَتِهِم مِنهَا مُطلَقًا: كَبَائِرِهَا وَصَغَائِرِهَا؛ لأنَّ مَنصِبَ النُّبوَّةِ يَسْمُو عَن مُوَاقَعتِهَا وَمُخَالَفَةِ اللهِ تَعَالَىٰ عَمدًا، وَلأنَّنَا أُمِرنَا بِالتَّأسِّي بِهِم، وَذَلِكَ لَا يَجوزُ مَعَ وُقُوعِ المَعصِيَةِ مِنهُم؛ لأنَّ الأمرَ بِالاقتِدَاءِ بِهِم يَلزَمُ مِنهُ أنْ تَكُونَ أفعَالُهُم كُلُّهَا طَاعَةً.

وَأمَّا جُمهُورُ أهْلِ العِلمِ فَيقُولُونَ بِجوَازِ الصَّغَائِرِ مِنهُم، بِدَلِيلِ مَا وَرَدَ فِي القُرآنِ والأخبَارِ، لَكنَّهُم لَا يُصِرُّونَ عَلَيهَا، فَيتُوبُونَ مِنهَا، وَيرجِعُونَ عَنهَا،

فَيكونُونَ مَعصُومِينَ مِنَ الإصرَارِ علَيهَا، وَيَكونُ الاقتِدَاءُ بِهِم فِي التَّوبَةِ مِنهَا.

فَقَالَ فِي أوَّلِهِم نُوحٌ: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣]، فَوَصَفهُ اللهُ بِالعُبودِيَّةِ فِي مَقَامَاتِ الثَّنَاءِ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ فِي آخرِهِم مُحمَّدٍ ﷺ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، فَوَصَفَ الرَّسُولَ ﷺ بِالعُبودِيَّةِ فِي أعلَىٰ المَقَامَاتِ وهُوَ مَقَامُ الرِّسَالَةِ.

وَقَالَ فِي رُسلٍ آخرِينَ: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص:٤٥]، ﴿أُولِي الْأَيْدِي﴾ أي: القُوَّةِ فِي دِينِ اللهِ، ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ﴾ وإبرَاهِيمُ هُوَ الثَّانِي مِنَ البَشَرِ فِي الفَضِيلَةِ: ﴿وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ هَؤلَاءِ أيضًا مِنَ الرُّسلِ وُصِفُوا بِالعُبودِيَّةِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٧]، ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ أي: ذَا القُوَّةِ. ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠].

وَقَالَ فِي عِيسَىٰ بنِ مَريَمَ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف:٥٩]، إذَن، العُبودِيَّةُ وَصفٌ لِلرُّسلِ -عَلِيهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وَهُوَ مِن مَنَاقِبِهِم وَفَضَائِلِهِم.

وَالعُبودِيةُ وَصفٌ لِلعَبدِ لَا يَنفَكُّ عَنهُ، لَا فِي بِدَايَةِ سُلوكِهِ إلَىٰ اللهِ، وَلَا فِي وَسَطِهِ، ولَا فِي آخِرِهِ؛ فَهذَا وَصفٌ مُلَازِمٌ.

الإيمانُ بأن رِسَالةَ مُحمدٍ ﷺ رِسَالةٌ عَالَمية

وَنُؤمِنُ بِأنَّ اللهَ تَعالَىٰ خَتمَ الرِّسَالاتِ بِرِسَالةِ مُحمَّدٍ ﷺ وَأرسَلَهُ إلَىٰ جَمِيعِ النَّاسِ، لِقَولِ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨]، وَمَعنَىٰ الآيَةِ: قُل يَا مُحمَّدُ لِلنَّاسِ كُلِّهِم: إنِّي رَسولُ اللهِ إلَيكُم جَمِيعًا لَا إلَىٰ بَعضِكُم دُونَ بَعضٍ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الذِي لَا تَنبَغِي أنْ تَكُونَ الأُلُوهِيةُ وَالعِبَادَةُ إلَّا لَهُ -جَلَّ ثَنَاؤُهُ-.

هُوَ القَادِرُ عَلَىٰ إيجَادِ الخَلقِ وَإفنَائِهِ وَبَعثِهِ؛ فَصَدِّقُوا بِاللهِ وَأقِرُّوا بِوَحدَانِيَّتِهِ، وَصَدِّقُوا بِرَسولِهِ مُحمَّدٍ ﷺ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الذِي يُؤمِنُ بِمَا أُنزِلَ إلَيهِ مِن رَبِّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ النَّبِيِّينَ مِن قَبلِهِ، وَاتَّبِعُوا هَذَا الرَّسولَ وَالتَزِمُوا العَمَلَ بِمَا أمَرَكُم بِهِ مِن طَاعَةِ اللهِ رَجَاءَ أنْ تُوفَّقُوا إلَىٰ الطَّرِيقِ المُستَقِيمِ ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

وَالشَّاهِدُ قَولُهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وَالذِينَ قَالُوا: إنَّهُ رَسولٌ إلَىٰ العَرَبِ فَقَط، لَم يُؤمِنُوا بِرَسَالَتِهِ إلَىٰ العَرَبِ؛ لأنَّنَا

نَقولُ لَهُم: إنْ كُنتُم آمَنتُم بِأَنَّهُ رَسولُ اللهِ إلَىٰ العَرَبِ لَزِمَكُم أنْ تُؤمِنُوا بِأَنَّهُ رَسولٌ لِلعَالَمِينَ، لأَنَّهُ قَالَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا﴾. وَقَالَ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ فَلِمَاذَا تُصدِّقُونَهُ فِي شَيءٍ وَتُكذِّبُونَهُ فِي شَيءٍ، وَمَعلُومٌ أنَّ مَن آمَن بِبَعضٍ وَكَفَرَ بِبَعضٍ فَقَد كَفَرَ بِالكُلِّ.

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ أنَّ اللهَ تَعَالَىٰ خَتَمَ بِهِ ﷺ الرِّسَالَاتِ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠]، وَكَونُهُ خَاتَمَ النَّبِيينَ يُفهَمُ مِنهُ عُمومُ الرِّسَالَةِ لَكِنَّهُ يُفهَمُ بِاللَّازِمِ، وَكَونُ الشَّيءِ يُذكَرُ بِالمُطَابَقَةِ أولَىٰ مِن كَونِهِ يُذكَرُ بِاللَّازِمِ. وَلَا شَكَّ أَنَّكَ سَتَقُولُ: مُحمَّدٌ رَسولُ اللهِ إلَىٰ النَّاسِ إِلَىٰ يومِ القِيَامَةِ فَلَزِمَ أنْ يَكُونَ خَاتَمَهُم وَإِلَّا لَكَانَ رَسولًا إِلَىٰ الخَاتَمِ مَثلًا.



الإيمانُ بأن الإسلامَ هُوَ الدينُ الذي ارتَضَاهُ اللهُ لِعبادِه

وَنُؤمِنُ بِأنَّ شَرِيعتَهُ ﷺ هِيَ دِينُ الإسلَامِ الذِي ارتَضَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ لِعِبَادِهِ وَأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَا يَقبَلُ مِن أحَدٍ دِينًا سِواهُ، لِقَولِهِ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، وَهَذِهِ الآيَةُ فِيهَا حَصرٌ لِتَعرِيفِ رُكنَيهَا وَهُمَا الدِّينُ وَالإسلَامُ فَكِلَاهُمَا مَعرِفَةٌ، وإذَا كَانَ رُكنَا الجُملَةِ مَعرِفَةً صَارَتْ دَالَّةً عَلَىٰ الحَصرِ؛ فَالدِّينُ عِندَ اللهِ تَعَالَىٰ هُوَ الإسلَامُ.

وَالإسلَامُ لَهُ مَعنَيانِ: الإسلَامُ بِالمَعنَىٰ العَامِّ: وهُوَ مَا أُرسِلَ بِهِ جَمِيعُ الرُّسلِ وَأُنزِلَ بِهِ جَمِيعُ الكُتُبِ، وَالإسلَامُ بِالمَعنَىٰ الخَاصِّ: وهُوَ مَا جَاءَ بِهِ الرُّسُولُ ﷺ مِن أوَامِرَ وَنَوَاهٍ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي: جَعلتُهُ كَامِلًا، وَلَيسَ المَعنَىٰ: أنَّنِي خَتَمتُهُ، لأنَّهُ قَد نَزَلَتْ آيَاتٌ بَعدَ هَذِهِ الآيَةِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥]، أي: يَطلُبُ غَيرَ الإسلَامِ دِينًا يَدِينُ اللهَ بِهِ، فَلَنْ يُقبَلَ

مِنهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ، وَالذِي يَشهَدُ لِهَذِهِ الآيَةِ مِن الأحَادِيثِ قَولُ الرَّسولِ ﷺ: **«مَن عَمِلَ عَمَلًا لَيسَ عَلَيهِ أمرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»**[1].

* * *

(١) أخرجه البخاري -تعليقًا-، كتاب الاعتصام، باب إذا اجتهد العاملُ أو الحاكم (صحيح البخاري ٢/ ٢٦٧٥)، ومسلم موصولًا (١٧١٨).

بيانُ كُفرِ مَنْ زَعمَ أن لله دِينًا سِوى دِينِ الإسلامِ

وَنَرَىٰ أنَّ مَن زَعَمَ اليَومَ دِينًا قَائِمًا مَقبُولًا عِندَ اللهِ سِوَىٰ دِينِ الإسلَامِ مِن دِينِ اليَهودِيةِ أَوِ النَّصرَانِيةِ أو غَيرِهِمَا فَهُوَ كَافِرٌ. لأنَّهُ مُكَذِّبٌ للهِ، إنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران:٨٥]، إذَنْ، فَهُوَ كَافِرٌ، لِتكذِيبِهِ.

ثُمَّ إنْ كَانَ أصلُهُ مُسلِمًا يُستَتَابُ؛ فَإنْ تَابَ وَإلَّا قُتِلَ مُرتَدًّا، لأنَّهُ مُكَذِّبٌ لِلقُرآنِ. وَإنْ كَانَ أصلُهُ كَافِرًا وَادَّعَىٰ أنَّ دِينَهُ مَقبُولٌ عِندَ اللهِ فَلا يُستَتَابُ وَيُعَامَلُ مُعَامَلَةَ الكُفَّارِ يُدعَىٰ إلَىٰ الإسلَامِ، فَإنْ أبَىٰ أُلزِمَ بِالجِزيَةِ فَإنْ أبَىٰ قُوتِلَ. وَاللهُ المُوفِّقُ.

* * *

بيانُ أن مَن كفرَ بِرسَالَةِ مُحمدٍ ﷺ فَقَدْ كَفرَ بِجَمِيعِ الرسلِ

وَنَرَىٰ أَنَّ مَن كَفَرَ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَىٰ النَّاسِ جَمِيعًا فَقَد كَفَرَ بِجَمِيعِ الرُّسلِ، مَن كَفَرَ بِرِسَالَةِ الرَّسُولِ كَفَرَ بِجَمِيعِ الرُّسلِ، وَمَن كَفَرَ بِعمُومِ رِسَالَتِهِ فَقَد كَفَرَ بِجَمِيعِ الرُّسلِ، لأنَّ مُحمَّدًا ﷺ لَم يَأتِ لِيَقولَ: إنَّهُ رَسولٌ فقَط، بَل قَالَ: إنَّهُ رَسولٌ إلَىٰ النَّاسِ جَمِيعًا؛ فَمَن كَفرَ بِأصلِ الرِّسَالَةِ فَهُوَ كَافِرٌ بِعمُومِ الرِّسَالَةِ، لأنَّهُ مَا آمَنَ بِالرِّسَالَةِ عَلَىٰ مَا جَاءَتْ بِهِ، ثُمَّ مَن كَفَرَ بِهِ فَهُوَ كَافِرٌ بِجمِيعِ الرُّسلِ «**حَتَّىٰ بِرَسولِهِ الذِي يَزعُمُ أنَّهُ مُؤمِنٌ بِهِ مُتَّبِعٌ لَهُ**».

فَالنَّصَارَىٰ مَثلًا إذَا قَالُوا: نَحنُ لَا نُؤمِنُ بِأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ إلَىٰ الخَلقِ، قُلنَا: أنتُمُ الآنَ كُفَّارٌ بِعِيسَىٰ، وَنَقُولُهَا بِمِلءِ أفوَاهِنَا، وَنُرِيدُ أنْ تَصِلَ إلَىٰ أسمَاعِهِم، إنَّهُم كُفَّارٌ بِعيسَىٰ وَإنَّ عِيسَىٰ لَو خَرَجَ لَقَاتَلَهُم، وَالعَجَبُ أنَّ مُحمَّدًا ﷺ بِشَارَةُ عِيسَىٰ وَمَعَ ذَلِكَ يُكَذِّبُونَ بِهِ، عِيسَىٰ يَقُولُ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف:٦].

هَلْ يُبَشِّرُ بِشَيءٍ لَا يَستَفِيدُ مِنهُ البَشَرُ؟ لَا، وكَأَنَّهُ يَقُولُ: آمِنُوا بِهِ فَهُوَ خَيرٌ لَكُم، لأنَّهُ بَشَّرَهُم، وَالبِشَارَةُ هِيَ الإخبَارُ بِمَا يَسُرُّ.

هُم يَقُولُونَ: إنَّ الذِي بَشَّرَنَا بِهِ: أحمَدُ، وَالذِي جَاءَ: مُحَمَّدٌ!!

* وَالجَوَابُ عَلَىٰ ذَلِكَ مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: هَلْ تَمنَعونَ تَعدُّدَ الأسمَاءِ؟ اسمُهُ أحمَدُ وَاسمُهُ مُحمَّدٌ كِلَاهُمَا؛ وَلَا مَانِعَ.

الثَّانِي: أنَّ اللهَ قَالَ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، فَدَلَّ عَلَىٰ أنَّ هُنَاكَ نَبيًّا مُنتَظَرًا، «جَاءَ» فِعلٌ مَاضٍ؛ أي: لَمَّا جَاءَ أحمَدُ بَنِي إسرَائِيلَ بِالبَيِّنَاتِ ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

إذَن؛ مَن كَفَرَ بِمُحمَّدٍ ﷺ فَقَد كَفَرَ بِجَمِيعِ الرُّسلِ، وَنَقُولُ لَهُ: أنتَ كَفَرتَ بِمَنِ اتَّبَعتَ، والدَّلِيلُ قَولُهُ تَعالَىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، مَعَ أنَّ قَومَ نُوحٍ لَم يُكذِّبُوا إلَّا نُوحًا وَلَم يُوجَد رَسولٌ قَبلَهُ، إذَن كَذَّبُوا بِالمُرسَلِينَ الذِينَ بَعدَهُ؛ لأنَّ مَن كَذَّبَ بِرَسولٍ فَقَد كَذَّبَ بِجَمِيعِ الرُّسلِ؛ إذْ إنَّ الوَحيَ وَاحِدٌ.

فَجَعلَهُم مُكذِّبِينَ لِجَمِيعِ الرُّسلِ مَعَ أنَّهُ لَم يَسبِق نُوحًا رَسولٌ، وَقَالَ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، فَيُؤمِنونَ بِاللهِ تَعالَىٰ وَلَا يُؤمِنُونَ بِالرُّسلِ أو يُفرِّقُونَ بَينَ الرُّسلِ أيضًا ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١]، ﴿أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي بَينَ الإيمَانِ وَالكُفرِ، ﴿سَبِيلًا﴾ أي: طَرِيقًا يَتخلَّصونَ بِهِ مِن هَؤلَاءِ وَهَؤلَاءِ، وَذَلِكَ صَادِقٌ تَمَامًا عَلَىٰ المُنَافِقِينَ.

وَالمُنَافِقُونَ يُؤمِنُونَ بِبَعضٍ وَيَكفُرونَ بِبَعضٍ ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ﴾، أي: يَحِقُّ ذَلِكَ حَقًّا، ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

* **هُنَا فَائِدَتَانِ:**

الأولَىٰ: أنَّ مَن كَذَّبَ رَسولًا وَاحِدًا فَقَد كَذَّبَ جَمِيعَ الرُّسلِ.

الثَّانِيَةُ: أنَّ مَن آمَنَ بِبَعضٍ وَكَفَرَ بِبَعضٍ فَقَد كَذَّبَ بِالجَمِيعِ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَىٰ ذَلِكَ أنَّ مَن آمَنَ بِبَعضِ الشَّرِيعَةِ دُونَ بَعضٍ فَهُوَ كَافِرٌ أيضًا.

* * *

بيَان كُفرِ مَن ادعى نُبوةً بَعدَ نُبُوةِ مُحمدٍ ﷺ أوْ صَدقَ مَنِ ادعَاهَا

وَنُؤمِنُ بِأَنَّهُ لَا نَبيَّ بَعدَ مُحمَّدٍ رَسولِ اللهِ ﷺ، مُستَنِدينَ إِلَىٰ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب:٤٠]، وَبِهَذَا نَعرِفُ أنَّ مُسَيْلِمَةَ كَذَّابٌ؛ وَالذِينَ جَاءُوا بَعدَ الرَّسولِ ﷺ يَقولُونَ إِنَّهُم أنبِيَاءُ، كَذَّابُونَ أيضًا، وَمَا أكثَرَ مَا يُوجَدُ فِي بَعضِ البُلدَانِ الإسلَامِيةِ مَن يَخرُجُ وَيَقُولُ: إِنَّهُ نَبيٌّ يُوحَىٰ إِلَيهِ!!

نُؤمِنُ بِأنَّه لَا نَبيَّ بَعدَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَمَن ادَّعَىٰ النُّبُوةَ بَعْدَهُ أو صَدَّقَ مَن ادَّعَاهَا فَهُوَ كَافِرٌ، لأَنَّهُ مُكَذِّبٌ للهِ وَرَسُولِهِ وَإِجْمَاعِ المُسْلِمِينَ.

وَهَذِهِ مِن عَقَائِدِ أهلِ السُّنةِ، وَيُقَالُ لَهَا: عَقِيدَةُ خَتمِ النُّبوةِ بِمحمَّدٍ ﷺ.

فَنؤمِنُ -نَحنُ أهلَ السُّنَّةِ- بِأَنَّهُ لَا نَبيَّ بَعدَ مُحمَّدٍ ﷺ، وَأنَّ اللهَ خَتَمَ بِبَعثَتِهِ النُّبوَّاتِ، وَالإيمَانُ بِخَتمِ النُّبوَّاتِ يَعنِي أيضًا خَتمَ الرِّسَالَاتِ؛ لأنَّ خَتمَ الأعَمِّ يَستَلزِمُ خَتمَ الأخصِّ، فَكلُّ رَسولٍ نَبيٌّ وَلَيسَ كُلُّ نَبيٍّ رَسولًا.

* نُزولُ عِيسَىٰ فِي آخِرِ الزَّمَانِ:

وَأَمَّا نُزولُ عِيسَىٰ فِي آخِرِ الزَّمَانِ فَلا يُنافِي ذَلِكَ؛ لأَنَّ عِيسَىٰ عليه السلام إِذَا نَزَلَ إِنَّمَا يَتَعبَّدُ بِشَرِيعَةِ مُحمَّدٍ ﷺ دُونَ شَرِيعتِهِ المُتَقدِّمَةِ، فَيَكسِرُ الصَّلِيبَ وَيَضعُ الجِزيَةِ وَيَقتُلُ الخِنزِيرَ وَيَقضِي بِشَرعِ مُحمَّدٍ ﷺ.

* * *

إجماعُ أهلِ السنةِ عَلَى أنَّ أحقَّ النَّاسِ بِالخلافةِ أبُو بكرٍ الصدِّيقُ رضي الله عنه

وَنُؤمِنُ بِأنَّ لِلنَّبيِّ ﷺ خُلفاءَ رَاشِدِينَ، فَنحنُ نُؤمِنُ بِالخِلافَةِ الرَّاشِدَةِ، وَهُم أبُو بَكرٍ وَعُمرُ وَعُثمَانُ وَعَليٌّ، نَؤمِنُ بِأنَّ هَؤلَاءِ خُلفَاءُ رَسولِ اللهِ ﷺ، خَلَفُوهُ فِي أمَّتِهِ عِلمًا وَدَعوَةً وَوِلَايةً عَلَىٰ المُؤمِنِينَ؛ يَعنِي: هَؤلَاءِ الخُلَفَاءَ خَلَفُوا النَّبيَّ ﷺ فِي الأمَّةِ «عِلمًا»؛ فَعِندَهُم مِنَ العِلمِ مَا لَيسَ عِندَ غَيرِهِم، «وَدَعوَةً»؛ فَهُم دُعَاةٌ إلَىٰ اللهِ وَإلَىٰ دِينِ اللهِ.

«وَوِلَايَةً عَلَىٰ المُؤمِنِينَ»؛ لَهُمُ الوِلَايَةُ عَلَىٰ المُؤمِنِينَ؛ وَلِهَذَا يُسمَّونَ: أمرَاءَ المُؤمِنِينَ؛ فَيُقَالُ: أمِيرُ المُؤمِنِينَ عُمَرُ، أمِيرُ المُؤمِنِينَ عُثمَانُ، أمِيرُ المُؤمِنِينَ عَلِيٌّ، أمَّا أبُو بَكرٍ فَيَجمَعُ بَينَ أمرَينِ؛ بَينَ كَونِهِ خَلِيفَةَ رَسولِ اللهِ ﷺ، وأمِيرَ المُؤمِنِينَ، وَهَذَا لَم يَجتَمِعْ إلَّا لِأبِي بَكرٍ رضي الله عنه وَلِهَذَا لَا نَقُولُ: إنَّهُ خَلِيفَةٌ وَلَيسَ أمِيرَ المُؤمِنِينَ؛ بَل هُوَ أمِيرُ المُؤمِنِينَ وَخَلِيفَةٌ، وَلَا يُوجَدُ أحَدٌ مِنَ الأمَّةِ يَصدُقُ عَلَيهِ أنَّهُ خَلِيفَةُ رَسولِ اللهِ ﷺ إلَّا أبَا بَكرٍ رضي الله عنه.

عُمرُ خَلِيفَةُ أبِي بَكرٍ، استَخلَفَهُ أبُو بَكرٍ عَلَىٰ المُؤمِنِينَ، وَعُثمَانُ كَذَلِكَ خَلِيفَةُ عُمرَ؛ لَكِنَّ خَلِيفَةَ رَسولِ اللهِ ﷺ هُوَ أبُو بَكرٍ، وَغَيرُهُ أمِيرُ المُؤمِنِينَ.

وَيدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ قَد يُقتَصَرُ عَلَىٰ الوَصفِ الخَاصِّ مَعَ الوَصفِ العَامِّ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَومٍ: «لَيتَ أَنَّا نَرَىٰ إِخوَانَنَا» قَالُوا: يَا رَسولَ اللهِ، أَلسنَا إِخوَانَكَ؟ قَالَ: «أَنتُم أَصحَابِي»(١).

هَلِ المَعنَىٰ: أَنتُم أَصحَابِي وَلَستُم إِخوَانِي؟

لَا، بَلِ الصُّحبَةُ أَخصُّ مِنَ الأُخُوَّةِ، فَأَحيَانًا يَنفِي النَّبيُّ ﷺ وَصفًا لِوجُودِ وَصفٍ أَخَصَّ مِنهُ، فَأَبُو بَكرٍ خَلِيفَةُ الرَّسولِ وَأَمِيرُ المُؤمِنِينَ أَيضًا، لأَنَّ إِمَارَتَهُ عَلَىٰ المُؤمِنِينَ ثَابِتَةٌ بِإِجمَاعِ المُؤمِنِينَ، فَكلُّ المُسلِمِينَ بَايَعوا لَهُ، وَكُلُّ المُؤمِنِينَ يَشهَدونَ بِأَنَّه خَيرُ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعدَ نَبِيِّهَا حَتَّىٰ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ كَانَ يُعلِنُ عَلَىٰ مِنبَرِ الكُوفَةِ، وَهُوَ أَمِيرُ المُؤمِنِينَ يُعلِنُ صَرَاحةً أَنَّ خَيرَ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكرٍ.

وَبِأَنَّ أَفضَلَهُم وأَحقَّهُم بِالخِلَافَةِ أَبُو بَكرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ، نُؤمِنُ بِهَذَا: أَنَّهُ أَفضَلُهُم وَأَنَّهُ أَحقُّهُم بِالخِلَافَةِ، أَمَّا كَونُهُ أَفضَلَهُم: فَلِأَنَّ النَّبيَّ ﷺ سُئِلَ: أَيُّ الرِّجَالِ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ قَالَ: «أَبُو بَكرٍ»(٢). صَرَاحَةً.

وَقالَ عَلَنًا عَلَىٰ المِنبَرِ: «**لَو كُنتُ مُتَّخِذًا مِن أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخذتُ أَبَا بَكرٍ**»(٣) وَالخَلِيلُ هُوَ صَافِي المَحبَّةِ البَالِغُ ذُروَتَهَا؛ وَلِهَذَا امتَنَعَ الرَّسولُ ﷺ

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢).

أنْ يَجعَلَ لَهُ مِن أمَّتِهِ خَليلًا لأنَّ قَلبَهُ امتلأ بِمحَبَّةِ اللهِ ﷻ.

* **نُؤمِنُ كَذَلِكَ بِأنَّهُ أحقُّهُم بِالوِلَايَةِ لِوجُودِ شَواهِدَ:**

أوَّلًا: أنَّ الرَّسولَ ﷺ استَخلَفَهُ عَلَىٰ أمَّتِهِ فِي إمَامَةِ الصَّلَاةِ، والصَّلَاةُ أفضَلُ شعَائِرِ الإسلَامِ، فَكَيفَ لَا يَكُونُ خَلِيفَةً بِأمُورِ دُنيَاهُم؟

ثَانِيًا: أنَّ الرَّسولَ ﷺ استَخْلَفَهُ عَلَىٰ أمَّتِهِ فِي قِيَادَةِ الحَجِيجِ سَنَةَ تِسعٍ مِنَ الهِجرَةِ؛ وَالحُجَّاجُ دَائِرَتُهُم أوسَعُ مِمَّن فِي المَدِينَةِ فَجعَلَهُ أمِيرًا عَلَيهِم.

ثَالِثًا: أنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ: «**لَا يَبقَىٰ فِي المَسجِدِ بَابٌ إلَّا سُدَّ إلَّا بَابَ أبِي بَكرٍ**»[1] حَتَّىٰ يَسهُلَ وصُولُ النَّاسِ إلَيهِ وَوصُولُهُ إلَيهِم وَهُوَ خَلِيفَةٌ.

رَابِعًا: أنَّ الرَّسولَ ﷺ قَالَ: «**يَأبَىٰ اللهُ وَرسُولُهُ وَالمُؤمِنُونَ إلَّا أبَا بَكرٍ**»[2] والأدِلَّةُ عَلَىٰ هَذَا كَثِيرَةٌ.

فَلَا شَكَّ أنَّ أبَا بَكرٍ ﷺ هُوَ أفضَلُ الأمَّةِ وَأحقُّهُم بِخِلَافَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

ثُمَّ عُمَرُ بنُ الخطَّابِ ﷺ، الذِي حَصَلَتْ لَهُ البَيعَةُ بِعَهدِ أبِي بَكرٍ ﷺ؛ يَعنِي: أنَّ أبَا بَكرٍ عَهِدَ إلَىٰ عُمَرَ بِخِلافَةِ المُسلِمِينَ، وإذَا كَانَ هُوَ خَلِيفَةَ المُسلِمِينَ فَتَصرُّفُهُ فِي تَولِيَةِ الخَلِيفَةِ نَافِذٌ لَا شَكَّ، إذْ تَولِيتُهُ لِعُمَرَ تَولِيةٌ صَحِيحَةٌ بِمُقتَضَىٰ

(١) التخريج السابق نفسه.

(٢) أخرجه مسلمٌ من رواية عائشة ﷺ ولفظه: «**وَيَأبَىٰ اللهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إلَّا أبَا بكرٍ**» (٢٣٨٧).

وأخرجه أبو داود (٤٦٦٠)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»، ولفظه: «**يَأبَىٰ اللهُ ذَلِكَ وَالمُسْلِمُونَ ...**».

الشَّرِيعَةِ، أَبُو بَكرٍ لَم يُخلِّفِ ابنَهُ عَبدَ اللهِ أو ابنَهُ عَبدَ الرَّحمَنِ أو أَقَارِبَهُ، بَل خَلَّفَ رَجُلًا عَلَىٰ أُمَّةِ مُحمَّدٍ يَرَىٰ أَنَّهُ خَيرُ الأُمَّةِ، وَيَعنِي ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يُتَّهَمُ ﷺ فِي كَونِهِ استَخلَفَ عُمَرَ ﷺ.

ثُمَّ عُثمَانُ بنُ عَفَّانَ ﷺ، تَولَّىٰ عَن طَرِيقِ الانتِخَابِ، لَكِنَّهُ لَيسَ انتِخَابَ الغَربِيِّينَ المَبنِيَّ عَلَىٰ الدِّينَارِ وَالدِّرهَمِ، بَل انتِخَابَ الحَقِّ وَالعَدلِ وَوَقَعَ مِنْ أَهْلِ الحَلِّ وَالعَقْدِ فِي الأُمَّةِ، فَعُمَرُ ﷺ كَانَ شَدِيدَ الوَرَعِ وَكَأَنَّهُ عِندَ مَوتِهِ لَم يَرَ أَحَدًا بِعَينِهِ أَحَقَّ مِن غَيرِهِ وإِلَّا لَكَانَ لَهُ أُسوَةٌ بِأَبِي بَكرٍ، لَكنَّهُ لَم يَرَ أَحدًا بِعَينِهِ أحقَّ مِن غَيرِهِ، فَكَانَ يُسلِّي نَفسَهُ، وَيَقُولُ: إِنْ أَستَخلِفْ فَقَد استَخلَفَ أَبُو بَكرٍ، وَإِنْ لَم أَستَخلِفْ فَقَد تَركَ الاستِخلَافَ مَن هُوَ خَيرٌ مِنِّي -يَعنِي: رَسولَ اللهِ ﷺ-.

فَرَأىٰ ﷺ بِثَاقِبِ رَأيِهِ أَنْ يَجعَلَ المَسأَلَةَ شُورَىٰ بَينَ مَن تُوفِّيَ الرَّسولُ ﷺ وَهُوَ رَاضٍ عَنهُم يَتَشَاوَرُونَ مَن يَتوَلَّىٰ الخِلَافَةَ، وَلَم يَجعَل لابنِهِ حَظًّا مِنهَا، بَل يُشَارِكُ وَلَكِنَّهُ لَا يُشَارِكُ فِي الرَّأيِ، يَحضُرُ الجَلسَاتِ فَقَط تَطيِيبًا لِقَلبِهِ، وَعَلَىٰ هَذَا فَنقُولُ: إِنَّ استِخلَافَ عُثمَانَ وَقَعَ عَلَىٰ المَنهَجِ السَّلِيمِ؛ لأَنَّهُ انتُخِبَ مِن بَينِ أعضَاءٍ وَضَعَهُم عُمَرُ وَهُوَ الخَلِيفَةُ.

فَهُؤلَاءِ الأَعضَاءُ نُصِّبُوا بِمُقتَضَىٰ الشَّرِيعَةِ ثُمَّ انتَخَبُوا عُثمَانَ أَيضًا بِمُقتَضَىٰ الشَّرِيعَةِ؛ لأَنَّهُم حِينَمَا انتَخَبُوا عَيَّنُوا عُثمَانَ وَعَلِيًّا ثُمَّ عَرضُوا عَلَىٰ عَلِيٍّ أَنْ يَقُومَ بِحَقِّهَا وَمَا ذُكِرَ مِن شُروطٍ، لَكِنَّهُ تَهَيَّبَ ذَلِكَ ﷺ، فَقَبِلَهَا عُثمَانُ فَصَارَ الخَلِيفَةَ حَتَّىٰ عِندَ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، لأَنَّهُ سَلَّمَ وَبَايَعَهُ كَمَا بَايَعَهُ غَيرُهُ.

ثُمَّ عَليُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، ثُمَّ آلَت الخِلَافَةُ إِلَىٰ عَليِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ بَعدَ عُثمَانَ ولَكِن لَم تَكُنِ الخِلَافَةُ فِي عَهدِهِ مَحلَّ اتِّفَاقٍ، فَقَد خَرَجَ عَلَيهِ مَن خَرَجَ، لَكِن بِتَأويلٍ، وَحِسَابُهُم عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ فِيهِ، وَقَد حَصَلَتِ الفِتنَةُ العَظِيمَةُ وَالتَّفرُّقُ مِن بَعدِ مَقتَلِ عُثمَانَ ﷺ وَجُعِلَ بَأسُ النَّاسِ بَينَهُم، وَمَعَ ذَلِكَ نَحنُ نُقِرُّ بِأَنَّ الخَلِيفَةَ هُوَ عَليُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ وَأَنَّهُ لَا حَقَّ لِمُعَاوِيَةَ ﷺ وَلَا لِغَيرِهِ فِي الخِلَافَةِ.

وَبَعدَ مَوتِ عَليٍّ ﷺ صَارَ الخَلِيفَةَ مِن بَعدِهِ ابنُهُ الحَسَنُ ﷺ؛ صَارَ خَلِيفَةً بِمُقتَضَىٰ الشَّرِيعَةِ، وَلَكِنَّهُ لِتَوفِيقِهِ وَتَسدِيدِهِ وسِيَادَتِهِ وَشَرَفِهِ تَنَازَلَ عَنِ الخِلَافَةِ تَنَازُلًا شَرعِيًّا لِمُعَاوِيَةَ بَعدَ سِتَّةِ أَشهُرٍ، حِينَ تَمَّتِ الثَّلَاثُونَ سَنَةً التِي قَالَ فِيهَا الرَّسولُ ﷺ: «**الخِلَافَةُ بَعدِي ثَلَاثُونَ عَامًا**»[1] لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَشَارَ إِلَىٰ ذَلِكَ فِي قَولِهِ لِلحَسَنِ: «**إِنَّ ابنِي هَذَا سَيدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصلِحَ بِهِ بَينَ فِئَتَينِ مِنَ المُسلِمِينَ**»[2] فَنَالَ السِّيَادَةَ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ ﷺ.

وَأَخُوهُ الحُسَينُ شَارَكَهُ فِي السِّيَادَةِ فِي الآخِرَةِ حِينَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الحَسَنُ والحُسَينُ سَيِّدَا شَبَابِ أهلِ الجَنَّةِ**»[3]، وَالحَسَنُ أَفضَلُ مِنَ الحُسَينِ

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٤٦)، والترمذي (٢٢٢٦)، وأحمد (٢١٩١٩) واللفظ له، وابن حبان (٦٩٤٣)، من رواية سفينة ﷺ، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٢٩).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٧٦٨)، وأحمد(١٠٩٩)، والحاكم (٤٨٣١)، من رواية أبي سعيد ﷺ، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧٩٦).

بِلَا شَكٍّ لِمَا لَهُ مِن الفَاضِلَةِ وَالمِنَّةِ عَلَىٰ المُؤمِنِينَ عُمُومًا؛ حَيثُ تنَازَلَ عَنِ الخِلَافَةِ مِن أجلِ الإصلَاحِ وَحَقنِ دِمَاءِ المُسلِمِينَ.

وَهَكَذَا كَانُوا فِي الخِلَافَةِ قَدَرًا كَمَا كَانُوا فِي الفَضِيلَةِ شَرعًا، شَرعًا وَقَدَرًا أيضًا، وَكَذَلِكَ فِي الخِلَافَةِ، فَاللهُ ﷻ وَفَّقَ الصَّحَابَةَ ﷺ إلَىٰ أنْ يَكُونَ الخَلِيفَةُ بَعدَ الرَّسولِ ﷺ أبَا بَكرٍ ثُمَّ عُمَرَ ثُمَّ عُثمَانَ ثُمَّ عَلِيًّا.

وَقَد أجمَعَ أهلُ السُّنةِ عَلَىٰ تَفضِيلِ أبِي بَكرٍ ثُمَّ عُمرَ بِدونِ نِزَاعٍ، ثُمَّ اختَلَفُوا فِي عُثمَانَ وَعَليٍّ، فَمِنهُم مَن قَالَ: عَلِيٌّ أفضَلُ، وَمِنهُم مَن قَالَ: إنَّ عُثمَانَ أفضَلُ، وَمِنهُم مَن قَالَ: أبُو بَكرٍ ثُمَّ عُمرُ وَسَكَتَ، وَمِنهُم مَن تَوقَّفَ.

لَكِن استَقَرَّ أهلُ السُّنةِ وَالجَمَاعَةِ بَعدَ ذَلِكَ عَلَىٰ أنَّ عُثمَانَ أفضَلُ مِن عَليٍّ وَالمُفَاضَلَةُ بَينَ عُثمَانَ وَعَلِيٍّ لَيسَت مِن بَابِ العَقِيدَةِ، بَل هِيَ مِن بَابِ الاجتِهَادِ، لَكِنَّ الذِي مِنَ العَقِيدَةِ هُوَ الخِلَافَةُ، فَإنَّ أهَلَ السُّنَّةِ مُجمِعُونَ عَلَىٰ أنَّ الخَلِيفَةَ بَعدَ عُمرَ هُوَ عُثمَانُ بنُ عَفَّانَ ﷺ، وَلَم يَختَلِف أحَدٌ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَمَن طَعَنَ فِي ذَلِكَ، وَقَالَ: إنَّ عَلِيًّا أولَىٰ بِالخِلَافَةِ مِن عُثمَانَ، فَقَد أزرَىٰ -أي: عَابَ وَحَطَّ- عَلَىٰ المُهَاجِرِينَ وَالأنصَارِ، وَقَدَحَ فِيهِم؛ حَيثُ قَدَّمُوا مَن لَيسَ بِأفضَلَ عَلَىٰ مَن هُوَ أفضَلُ؛ كَمَا قَالَ الحَسَنُ رَحِمَهُ اللهُ.

وَقَالَ الإمَامُ أحمَدُ بنُ حَنبَلٍ رَحِمَهُ اللهُ: **مَن طَعَنَ فِي خِلَافَةِ وَاحِدٍ مِن هَؤلَاءِ فَهُوَ أضَلُّ مِن حِمَارِ أهلِهِ.**

وَمَا كَانَ اللهُ تَعَالَىٰ -وَلَهُ الحِكمَةُ البَالِغَةُ- لِيولِّي عَلَىٰ خَيرِ القُرونِ رَجُلًا وَفِيهِم مَن هُوَ خَيرٌ مِنهُ، وَأجدَرُ بِالخِلَافَةِ، هَذَا احتِجَاجٌ بِمُقتَضَىٰ الحِكمَةِ وَقَد وَرَدَ فِيهِ نِقَاشٌ، فَبَعضُهُم يَقُولُ: أَلَيسَ قَد وُلِّيَ عَلَىٰ المُسلِمِينَ فِي الخِلَافَةِ وَفِيهِم مَن هُوَ خَيرٌ مِنهُ؟

نَقُولُ: بَلَىٰ، لَكِن لَيسَ فِي زَمَنِ خَيرِ الأمَّةِ، صَحِيحٌ أَنَّهُ وُلِّيَ بَعدَ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ عَلَىٰ الأمَّةِ الإسلَامِيةِ مَن لَيسَ هُوَ خَيرَ الأمَّةِ، لَكِن نَحنُ نَتَكلَّمُ عَلَىٰ خَيرِ الأمَّةِ، فَمَا كَانَ اللهُ لِيولِّيَ عَلَىٰ خَيرِ القُرونِ رَجُلًا وَفِيهِم مَن هُوَ خَيرٌ مِنهُ؛ لأنَّ هَذَا تَأبَاهُ حِكمَةُ اللهِ ﷻ، وَأمَّا بَعدُ فَلَا شَكَّ أنَّ مِنَ الخُلَفَاءِ مَن هُوَ أدوَنُ وَأدوَنُ بِكَثِيرٍ مِنَ الرَّعِيَّةِ.



المِيزَاتُ التِي دَعَت إلَى التفَاضُلِ بَينَ الخُلَفَاءِ الراشِدِينَ

وَنُؤمِنُ بِأنَّ المَفضُولَ مِن هَؤلَاءِ قَد يَتَمَيَّزُ بِخَصِيصَةٍ يَفوقُ فِيهَا مَن هُوَ أفضَلُ مِنهُ، المَفضُولُ مِن هَؤلَاءِ رُبَّمَا يَكُونُ لَهُ خَصِيصَةٌ يَتَمَيَّزُ بِهَا عَن غيرِهِ لَكِنَّ الفَضلَ المُقَيَّدَ لَا يَستَلزِمُ الفَضلَ المُطلَقَ، الفَضلُ المُطلَقُ شَيءٌ وَالمُقَيدُ شَيءٌ، فَلَا يَتَعَارَضَانِ، فَلَا يَلزَمُ مِن ثُبوتِ الفَضلِ المُقَيَّدِ أنْ يَثبُتَ الفَضلُ المُطلَقُ، وَلَا يَلزَمُ مِنَ الفَضلِ المُطلَقِ أنْ يَنتَفِيَ الفَضلُ المُقَيَّدُ.

فَمَثلًا: مِنَ الصَّحَابَةِ مَن لَهُ مِيزَةٌ خَاصَّةٌ، فَمَثَلًا الشَّيطَانُ يَفِرُّ مِن عُمرَ، وَلَكِنَّهُم لَم يَلمَسُوا ذَلِكَ مِن أَبِي بَكرٍ، مَعَ أنَّ أبَا بَكرٍ أفضَلُ مِنهُ، فَعُمَرُ لَهُ فَضلٌ مُقَيدٌ بِهَذِهِ الخَصِيصَةِ التِي لَم تَثبُتْ لأَبِي بَكرٍ، لَكِنَّ أبَا بَكرٍ أفضَلُ مِن عُمرَ بِأفضَلِيةٍ مُطلَقَةٍ، وَهَكَذَا..

وَهَذِهِ الفَائِدَةُ تَنفَعُنَا وَهِيَ: أنَّ الفَضلَ مِنهُ مُطلَقٌ وَمِنهُ مُقَيدٌ، وَلَا يَلزَمُ مِنَ الفَضلِ المُقَيدِ أنْ يَكُونَ أفضَلَ مِن المُطلَقِ، وَلَا يَلزَمُ مِنَ الفَضلِ المُطلَقِ ألَّا يَكُونَ لِلمَفضُولِ فَضلٌ مُقَيدٌ.

هَذَا الأمرُ لَو أنَّكَ تَأمَّلتَهُ وَوَعَيتَهُ يَحلُّ لَكَ كَثِيرًا مِنَ الإشكَالَاتِ حَتَّىٰ فِي التَّفضِيلِ بَينَ النَّاسِ لأنَّهُ رُبَّمَا تَمَيزَ إنسَانٌ بِفَضِيلَةٍ وَيَكُونُ بَارِزًا فِيهَا وَحدَهَا، فَهَذَا

التَّمَيُّزِ فِي هَذِهِ الفَضِيلَةِ وَهَذَا الاحتِيَازُ لِهَذَا الفَضلِ المُقَيدِ لَا يَجعَلُهُ مُقَدَّمًا بِإطلَاقٍ، فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لَا يَلتَفِتُ إِلَىٰ هَذَا وَيَقَعُ فِي كَثِيرٍ مِنَ المُخَالَفَاتِ.

يَعنِي: لَو أنَّ اللهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- فَضَّلَ رَجُلًا بِحُسنِ الصَّوتِ مَثلًا فَهُوَ يُؤدِّي أدَاءً حسَنًا؛ فَيُفتَنُ النَّاسُ بِصَوتِهِ وَيُقَدِّمُونَهُ عَلَىٰ مَن هُوَ أعلَمُ مِنهُ وَأرسَخُ مِنهُ وَأفهَمُ مِنهُ وَإنْ كَانَ هُوَ لَا يَتَمَيزُ إلَّا بِهَذِهِ الخَصِيصَةِ.

[كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إنَّمَا يَتَعَلَّقونَ بِالفَضلِ المُقَيدِ، وَلَا يَنظُرونَ إلَىٰ الفَضلِ المُطلَقِ وَيتَوقَّفُونَ عِندَ حُدودِ فَضِيلَةٍ ظَاهِرَةٍ، وَلَا يَتَأمَّلُونَ فِيمَا وَرَاءَ ذَلِكَ.]

[**فَقَدْ يَتَميزُ إنسَانٌ بِفَضِيلَةٍ، لَكنَّهُ لَا يَستَحِقُّ بِهَا الفَضلَ المُطلَقَ عَلَىٰ مَن فَضَلَهُ؛ لأنَّ مُوجِبَاتِ الفَضلِ كَثِيرَةٌ مُتَنوِّعَةٌ، فَقَد يَثبُتُ خَصِيصَةٌ مِنهَا لِشَخصٍ** دُونَ الآخَرِ.]



أمةُ الإسلامِ خيرُ الأمَمِ وأكرمُها علَى اللهِ

وَنُؤمِنُ بِأَنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ خيرُ الأمَمِ وَأكرمُها عَلَىٰ اللهِ ﷻ، وأنَّها خيرٌ مِن بَنِي إسرَائِيلَ، وَمِمَّن وَرَاءَ بَنِي إسرَائِيلَ؛ لقَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]».

«خَيرٌ مِن بَنِي إسرَائِيلَ» فَيقُولُ قَائِلٌ: أَلَيسَ اللهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ عَن بَنِي إسرَائِيلَ إنَّهُ فَضَّلَهُم عَلَىٰ العَالَمِينَ؟

وَالجَوَابُ: المُرَادُ عَلَىٰ العَالَمِين الذِينَ سَبَقوهُم أو كَانُوا فِي زَمَانِهِم، وأمَّا أنَّهُم أفضَلُ مِمَّن بَعدَهُم، فَمَن بَعدَهُم لَم يَأتِ بَعدُ حَتَّىٰ يَكُونَ هُنَاكَ مُفضَّلٌ وَمُفَضَّلٌ عَلَيهِ، وَأمَّا أمَّةُ مُحمَّدٍ ﷺ فَهِيَ آخِرُ الأمَمِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وَهَذَا عَامٌّ؛ وَلَن تَأتِيَ أمَّةٌ بَعدَ هَذِهِ الأُمَّةِ لَهَا الخَيرِيَّةُ المُطلَقَةُ، فَهُم خَيرُ العَالَمِينَ، نَسأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أنْ يَجعَلَنَا مِنهُم.

لَكِن وَصَفَهُم بِأوصَافٍ وَلنَنظُرْ هَل تَتحَقَّقُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ أو لَا؟ ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وَبنو إسرَائِيلَ ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٩]، وَلَا يَتآمَرونَ بِمَعروفٍ أيضًا؛ لِذَلِكَ فُضِّلَتِ

الأَمَّةُ عَلَىٰ غَيرِهَا بِأسبَابٍ كَثِيرَةٍ؛ مِنهَا: المِيْزَةُ العَظِيمَةُ وَهِيَ الأمرُ بِالمَعروفِ وَالنَّهيُ عَنِ المُنكَرِ وَالإيمَانُ بِاللهِ.

فَإذَا قَالَ قَائِلٌ: لِمَاذَا أَخَّرَ الإيمَانَ بِاللهِ عَنِ الأمرِ بِالمَعرُوفِ وَالنَّهي عَنِ المُنكَرِ؟

الجَوَابُ: لأنَّ الإيمَانَ بِاللهِ يَكُونُ مِنهُم وَمِن غَيرِهِم، حَتَّىٰ الأمَمُ السَّابِقَةُ تُؤمِنُ بِاللهِ؛ لَكِنَّ المِيزَةَ العَظِيمَةَ التِي حَصَلُوا بِهَا عَلَىٰ هَذِهِ الفَضِيلَةِ، هِيَ الأمرُ بِالمَعروفِ وَالنَّهيُ عَنِ المُنكَرِ.



مَرَاتِبُ الخَيرِيَّةِ فِي هَذِه الأُمَّة

[الصَّحَابِيُّ: مَن آمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَلَقِيَهُ مُؤمِنًا بِهِ وَلَوْ لَم يَرَهُ -يَعنِي: لَو كَانَ أعمَىٰ مَثَلًا- وَمَاتَ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَلَو تَخَلَّلَتْ ذَلِكَ رِدَّةٌ عَلَىٰ الصَّحِيحِ.]

وَنُؤمِنُ بِأَنَّ خَيرَ هَذِهِ الأُمَّةِ الصَّحَابَةُ، جِنسًا وَأفرَادًا فِي مَعنًىٰ وَاحِدٍ فَقَط وَهُوَ الصُّحبَةُ، فَالصُّحبَةُ لَا أحَدَ يُسَاوِيهِم فِيهَا أبَدًا، لأنَّ كُلَّ مَن بَعدَهُم لَيسَ صَحَابِيًّا، لَكِنْ هُنَاكَ أشيَاءُ أخرَىٰ؛ فَإِنَّ مُوجِبَاتِ الفَضلِ كَثِيرَةٌ، فَقَد يَفُوقُ فِيهَا التَّابِعِيُّ صَحَابِيًّا مِنَ الصَّحَابَةِ؛ كَمَا أخبَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنَّ أجرَ العَامِلِينَ فِي أيَّامِ الصَّبرِ لِلوَاحِدِ مِنهُم أجرُ خَمسِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ؛ لأَنَّهُ قَد يُوجَدُ مِنَ التَّابِعِينَ إمَامٌ فِي العِلمِ، أو إمَامٌ فِي الدَّعوَةِ إلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، أو إمَامٌ فِي الأمرِ بِالمَعروفِ والنَّهيِ عَنِ المُنكَرِ، أو إمَامٌ فِي كُلِّ شَيءٍ مُتَعلِّقٍ بِالدِّينِ.

وَلَا يُوجَدُ هَذَا فِي صَحَابِيٍّ جَاءَ إلَىٰ المَدِينَةِ فَآمَنَ بِالرَّسولِ ﷺ ثُمَّ انصَرَفَ إلَىٰ إبلِه، لَكِنَّ الصُّحبَةَ لَا يُمكِنُ أنْ يَنَالَهَا أحَدٌ بَعدَهُم، إذَنْ بِاعتِبَارِ العُمومِ هُم أفضَلُ، وَبِاعتِبَارِ الخُصوصِ -يَعنِي: كُلَّ فَردٍ بِانفِرَادٍ- فَهَذِهِ قَد يَكُونُ لِمَن بَعدَهُم فَضَائِلُ مَا هِيَ فَضِيلَةٌ وَاحِدَةٌ، وَلَم تَأتِ لِهَذَا الفَردِ المُعَيَّنِ.

إذَا آمَنَّا بِهَذَا خَالَفنَا الرَّوَافِضَ الذِينَ يَرمُونَ أصحَابَ النَّبِيِّ ﷺ بِكُلِّ عَظِيمَةٍ،

وَأَهْلُ السُّنَّةِ يُمسِكُونَ أَلسِنَتَهُم عمَّا شَجَرَ بَينَ أصحَابِ النَّبيِّ ﷺ، وَلَا يَجِدُونَ فِي أنفُسِهِم حِقدًا وَلَا مَوجَدَةً عَلَىٰ أصحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إنَّمَا يُحبُّونَهُم ويُقَدِّمونَهُم ويَدعُونَ لَهُم ويَترَضَّونَ عَلَيهِم.

ثُمَّ التَّابِعُونَ، نَقولُ فِيهِم مِثلمَا قُلنَا فِي الصَّحَابَةِ؛ يَعنِي: هَذِهِ الطَّبَقَةَ مِنَ الأمَّةِ مِن حَيثُ الجِنسُ أفضَلُ مِمَّن بَعدَهُم، لَكِن قَد يَكُونُ فِي أتبَاعِ التَّابِعِينَ مَن هُوَ أفضَلُ بِكَثِيرٍ مِنَ التَّابِعِينَ.

ثُمَّ تَابِعُوهُم، هَؤلَاءِ ثَلَاثَةُ قُرونٍ، القُرونُ لَيسَتِ العَدَّ الزَّمَنِيَّ لِلسِّنِينَ عَلَىٰ حَسبِ مَا اصطَلَحَ عَلَيهِ النَّاسُ، وَإِنَّمَا هِيَ تِلكَ الأجيَالُ التِي كَانَت -وَهَذِهِ هِيَ القُرونُ التِي يُعبِّرُ عَنهَا العُلَمَاءُ بِالقُرونِ المُفَضَّلَةِ؛ التِي وَرَدَتْ فِي حَدِيثِ عِمرَانَ بنِ حُصَينٍ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «**خَيرُ النَّاسِ قَرنِي ثُمَّ الذِينَ يَلونَهُم ثُمَّ الذِينَ يَلونَهُم**»[1] ثُمَّ تَعدَّدَتِ الطَّبقَاتُ الكَثِيرَةُ المُتنوِّعَةُ.

يَقولُ شَيخُ الإسلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَكُلَّمَا بَعُدَ العَهدُ بِالرِّسَالَةِ ضَعُفَتِ الفَضِيلَةُ».

* * *

(١) تقدم تخريجه (ص١٤٣).

الطَائِفَةُ الْمَنصُورَةُ هُم الصحَابَةُ وَمَن سَارَ عَلَى دَرِبِهِم نَذكُرُ مَحَاسِنَهُم وَنَكُفُّ عَن مَسَاوِئِهِم

وَبِأَنَّهُ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن هَذِهِ الأُمَّةِ عَلَىٰ الحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضرُّهُم مَن خذَلَهُم أو خَالَفَهُم، نُؤمِنُ بِذَلِكَ لِقَولِ النَّبيِّ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتِي عَلَىٰ الحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضرُّهُم مَن خَالَفَهُم حَتَّىٰ يَأتِيَ أمرُ اللهِ»(١) خَذَلَهُم: هَذَا مِن الدَّاخِلِ، فَيأتِي الخِذلَانُ مِن دَاخِلِ الصُّفوفِ، وأَمَّا المُخالِفُونَ فَيأتونَ مِن الخَارِجِ.

وَهَذِهِ بُشرَىٰ سَارَّةٌ لِهَذِهِ الأُمَّةِ؛ أَنَّهُ لَن يُعدَمَ الحَقُّ مِنهَا جَمِيعًا، بَل لَابُدَّ أنْ يَكُونَ فِيهَا مَن هُوَ عَلَىٰ الحَقِّ ظَاهِرٌ، بِمعنَىٰ أَنَّهُ يُبيِّنُ الحَقَّ وَيُوضِّحُهُ ولَا يَلزَمُ مِن ذَلِكَ أنْ يَكُونَ مُنتَصِرًا، بَل هُوَ مَنصُورٌ وَإِنْ لَمْ يَكُن مُنتَصِرًا، بِمعنَىٰ أَنَّهُ قَد يَكُونُ لَيسَ عِندَهُ القُدرَةُ عَلَىٰ الجِهَادِ، إِلَّا أَنَّهُ مَعصُومٌ مِن أنْ يُقضَىٰ عَلَيهِ.

وَهَذِهِ الطَّائِفَةُ هُم أهلُ السُّنةِ وَالجمَاعَةِ كَمَا قَالَ شَيخُ الإسلَامِ، وَأَمَّا مَن قَالَ: إنَّ المُرَادَ بِذَلِكَ مَن جَاهَدَ فَهَذَا لَيسَ بِلَازِمٍ، فَالجِهَادُ قَد تَقُومُ سُوقُهُ عِندَ

(١) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

القُدرَةِ وَالقُوَّةِ، وَقَد لَا يَقومُ، وَذَلِكَ عِندَ العَجزِ؛ لِقَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦].

حتَّىٰ يَأتِيَ أمرُ اللهِ ﷻ، المُرَادُ بِأمرِ اللهِ تَعَالَىٰ: أنْ يُقْضَىٰ عَلَىٰ كُلِّ مُؤمِنٍ؛ لأنَّهُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ تَهُبُّ رِيحٌ تَقبِضُ نَفسَ كُلِّ مُؤمِنٍ حَتَّىٰ لَا يَبقَىٰ إلَّا شِرَارُ الخَلقِ وَعَلَيهِم تَقُومُ السَّاعَةُ.

وَنَعتَقِدُ أنَّ مَا جَرَىٰ بَينَ الصَّحَابَةِ ﷺ **مِنَ الفِتَنِ فَقَد صَدَرَ عَن تَأوِيلٍ اجتَهَدُوا فِيهِ،** مَن قَرَأ تَارِيخَ الصَّحَابَةِ وَجَدَ فِيهِ مَا يُحزِنُهُ مِنَ القِتَالِ بَينَهُم، وَالفِتَنِ التِي دَبَّتْ بَينَهُم ﷺ، سَواءٌ كَانَ مَعَ عَائِشَةَ وَالزُّبَيرِ وَمَن قَاتَلَهُمَا، أو كَانَ مَعَ مُعَاوِيَةَ وَعَلِيِّ بنِ أبِي طَالِبٍ، لَكِن نَعلَمُ أنَّ ذَلكَ «**صَدَرَ عَن تَأوِيلٍ**»، ومَا صَدَرَ عَن تَأوِيلٍ وَاجتِهَادٍ فَإنَّهُ إنْ أصَابَ فَاعِلُهُ الحَقَّ فَلَهُ أجرَانِ، وَإنْ أخطَأَ فَلَهُ أجرٌ وَاحِدٌ، ولَا يَمنَعُ مِن هَذَا أنْ نَقُولَ: أَوْلَاهُم بِالحَقِّ كَذَا وَكَذَا.

لَكِن مَعَ ذَلِكَ لَا يَجوزُ أنْ نُضمِرَ لَهُم بُغضًا وَلَا كَرَاهِيةً، بَل نَقولُ: إنَّهُم بَينَ صَاحِبِ سَعيٍ مَشكورٍ أو اجتِهَادٍ مَغفُورٍ.

وَنَرَىٰ أنَّهُ يَجِبُ أنْ نَكُفَّ عَن مَساوِئِهِم، وُجُوبًا، فَلَا نَذكُرُهُم إلَّا بِمَا يَستَحِقُّونَ مِنَ الثَّنَاءِ الجَمِيلِ؛ وَأمَّا أنْ نَنشُرَ مَساوِئَهُم فَلَا شَكَّ أنَّهُ مُحرَّمٌ؛ لأنَّهُ إذَا كَانَ ذَلِكَ حَرَامًا بِالنِّسبَةِ لِغَيرِهِم فَكَيفَ بِالنِّسبَةِ لَهُم؟!

وَعدَالَةُ الصَّحَابَةِ عِندَ أهلِ السُّنةِ مِن مَسَائِلِ العَقِيدَةِ القَطعِيَّةِ، أو هُوَ مِنَ المَعلُومِ مِن الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ، مَن أنكَرَهُ خَرَجَ مِنَ المِلَّةِ.

* وَالطَّعنُ فِي الصَّحابَةِ لَيسَ أمرًا هَينًا، فَهُوَ يَتَضمَّنُ الطَّعنَ فِي أربَعِ جِهَاتٍ:

١- طَعنٌ فِيهِم، وهُوَ وَاضِحٌ صَرِيحٌ.

٢- طَعنٌ فِي الشَّرِيعَةِ؛ لأنَّهُم الذِينَ نَقَلوا الشَّرِيعَةَ إلَينَا، فَإذَا طَعنَّا فِيهِم صَارَتِ الشَّرِيعَةُ مَشكُوكًا فِي صِحتِهَا وَعَزوِهَا إلَىٰ الرَّسولِ ﷺ.

٣- طَعنٌ فِي الرَّسولِ ﷺ، وَذَلِكَ أنَّ مَن كَانَ أصحَابُهُ عَلَىٰ جَانِبٍ مِنَ الفِسقِ وَالفُجورِ فَإنَّ ذَلِكَ قَدحٌ فِي مَقَامِهِ.

٤- طَعنٌ فِي جَانِبِ الرَّبِّ ﷻ؛ فَإنَّهُ طَعنٌ فِي حِكمَتِهِ تَعَالَىٰ أَنْ يَكُونَ الأَمْرُ كَمَا يَزْعُمُ الرَّافِضَةُ؛ مِنْ أَنَّ اللهَ جَعَلَ حَوْلَ هَذَا الرَّسُولِ الكَرِيمِ أُنَاسًا فَجرَةً كُفَّارًا فُسَّاقًا هُمْ أَصْحَابُهُ، تَعَالَىٰ اللهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ.

لِذَا وَجَبَ عَلينَا أنْ نَكُفَّ عَن مَساوِئِهِم خُصُوصًا أمَامَ العَامَّةِ، لَيسَ شَرطًا أنْ يَطعَنَ فِيهِم جَمِيعًا، بَل هَذَا يَنطَبِقُ عَلَىٰ مَن طَعَنَ فِي صَحَابِيٍّ وَاحِدٍ.

وَأنْ نُطَهِّرَ قُلوبنَا مِنَ الغِلِّ وَالحِقدِ عَلَىٰ أحدٍ مِنهُم، حَتَّىٰ لَو كُنَّا نَرَىٰ أنَّهُ أخطَأَ؛ فَإنَّهُ لَا يَجوزُ لَنَا أنْ نَحمِلَ حِقدًا أو غِلًّا عَلَيهِم، بَل نَقولُ: عَفَا اللهُ تَعَالَىٰ عَنهُم، وَإنْ كُنَّا نَرَىٰ أنَّهُ أخطَأَ وَأَنَّ قَبِيلَهُ هُوَ المُصِيبُ؛ لِقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ [الحديد:١٠]. فَقَد قَالَ الله تَعَالَىٰ بَعدَهَا: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد:١٠]، وَهذِهِ طَرِيقَةُ القُرآنِ أَنَّهُ تَعَالَىٰ إذَا ذَكَرَ مُفضَّلًا وَمُفضَّلًا عَلَيهِ ذَكَرَ المَنقبَةَ العَامَّةَ لِلجَمِيعِ.

الإيمانُ باليَومِ الآخِرِ أحَدُ الأركَانِ الستةِ

وَنُؤمِنُ بِاليَوم الآخِرِ، وَهُوَ يَومُ القِيَامَةِ الذِي لَا يَومَ بَعدَهُ، وَالإيمَانُ بِاليَومِ الآخِرِ هُوَ أحدُ أركَانِ الإيمَانِ السِّتَّةِ؛ قَالَ النَّبيُّ ﷺ حِينَ سَأَلَهُ جِبرِيلُ عَن الإيمَانَ: «أنْ تُؤمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ ورُسلِهِ واليَومِ الآخِرِ وَالقَدَرِ خَيرِهِ وَشرِّهِ»(١) إذَنْ هَذَا هُوَ الرُّكنُ الخَامِسُ، وَهُوَ: «يَومُ القِيامَةِ».

وَسُمِّيَ بِيوَمِ القِيَامَةِ: لِكَونِ النَّاسِ يَقُومُونَ مِن قُبورِهِم، وَقِيلَ: لوجُودِ أمُورِ المَحشَرِ وَالوقُوفِ وَنَحوهَا فِيهِ، وَقِيلَ: لِقِيَام النَّاسِ لِرَبِّ العَالَمِينَ، وَقِيلَ: لِقِيَامِ المَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهِ صَفًّا، ثُمَّ بَيَّنَ المُؤلِّفُ وَجهَ وَصفِهِ بِالآخِرِ: «الذِي لَا يَومَ بَعدَهُ» فَهُوَ آخِرُ مَرحَلَةٍ؛ لأنَّ الإنسَانَ لَهُ مَرَاحِلُ:

المَرحَلَةُ الأولَىٰ: فِي بَطنِ أمِّهِ، **وَالثَّانِيَةُ**: فِي الدُّنيَا، **وَالثَّالِثَةُ**: فِي البَرزَخِ، وَالرَّابِعَةُ: يَومَ القِيَامَةِ، فَهِيَ المَرحَلَةُ الأخِيرَةُ، وَلِهَذَا يَغْلَطُ مَن يَقولُ فِي المَيتِ: إنَّهُ نُقِلَ إلَىٰ مَثوَاهُ الأخِيرِ؛ فَإنَّ هَذَا لَو كَانَ الإنسَانُ يَعتَقِدُهُ تَمَامًا لَكَانَ كَافِرًا؛ لأنَّ مَن قَالَ: إنَّ المَثوَىٰ الأخِيرَ هِيَ القُبورُ، فَقَد أنكَرَ البَعثَ وَيَكونُ كَافِرًا، المَثوَىٰ

(١) تقدم تخريجه (ص١٧).

الأخِيرُ هُوَ إمَّا الجَنَّةُ وإمَّا النَّارُ.

وَنُؤمِنُ بِاليَوم الآخِرِ؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ ذَكَرَهُ فِي كِتَابِهِ وَذَكَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي السُّنةِ، وَكَثِيرًا مَا يَقْرِنُ اللهُ تَعَالَىٰ بَينَ الإيمَانِ بِهِ تَعَالَىٰ، وَالإيمَانِ بِاليَوم الآخِرِ، لأنَّ الإيمَانَ بِاليَوم الآخِرِ هُوَ الذِي يُوجِبُ لِلإنسَانِ أنْ يُسَارِعَ إلَىٰ الخَيرِ وَأنْ يَبتَعِدَ عَن الشَّرِّ؛ لأنَّهُ يَعلَمُ أنَّ الجَزَاءَ الكَامِلَ سَيكُونُ يَومَ القِيَامَةِ.

وَاليَومُ الآخِرُ يَكُونُ «**حِينَ يُبعَثُ النَّاسُ أحيَاءً لِلبَقَاءِ، إمَّا فِي دَارِ النَّعِيم وإمَّا فِي دَارِ العَذَابِ الأليم**» يُبعَثُ النَّاسُ لِلبَقَاءِ أبَدًا؛ لأنَّهُ مُستَقبَلٌ إلَىٰ مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ.

فَنُؤمِنُ بِالبَعثِ وَهُوَ إحيَاءُ اللهِ تَعَالَىٰ المَوتَىٰ حِينَ يَنفُخُ إسرَافِيلُ فِي الصُّورِ النَّفخَةَ الثَّانِيةَ، هَذَا هُوَ البَعثُ، يَخرُجُ النَّاسُ مِن قُبورِهِم أحيَاءً بَعدَ أنْ يَنفُخَ إسرَافِيلُ فِي الصُّورِ النَّفخَةَ الثَّانِيةَ، وإسرَافِيلُ مَلَكٌ مِنَ المَلَائِكَةِ، وَهُوَ أحَدُ المَلَائِكَةِ الثَّلاثَةِ الذِينَ يَذكُرُهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إذَا استَفتَحَ صَلَاةَ الليلِ، حِينَ يَقُولُ: «**اللهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإسرَافِيلَ**»[1] وَإنَّمَا ذَكَرَ هَؤلَاءِ الثَّلاثَةَ؛ لأنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنهُم مُوكَّلٌ بِمَا فِيهِ حَيَاةٌ.

١- **جِبرِيلُ**: مُوكَّلٌ بِالوَحيِ الذِي فِيهِ حَيَاةُ القُلوبِ.

٢- **إسرَافِيلُ**: مُوكَّلٌ بِالنَّفخِ فِي الصُّورِ الذِي فِيهِ حَيَاةُ الأبدَانِ يَومَ القِيَامَةِ.

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠).

٣- مِيكَائِيلُ: مُوكَّلٌ بِالقَطرِ وَالنَّبَاتِ الذِي بِهِ حَيَاةُ الأرضِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، وَعَلَىٰ هَذَا فَيكُونُ قَولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل:٨٧]. مُرَادًا بِهِ النَّفخَةَ التِي بِهَا الصَّعقُ، فَيفْزَعُ النَّاسُ لِهَولِ مَا سَمِعُوا مِنَ الصَّوتِ العَظِيمِ، ثُمَّ يَموتُونَ إِلَّا مَن شَاءَ اللهُ.

وَقَولُهُ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ أفَادَتِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ أنَّ بَينَ النَّفخَتَينِ مُهلَةً، لأنَّ «ثُمَّ» لِلتَّرتِيبِ وَالتَّرَاخِي.

فَمَا هِيَ؟ قَالَ أَبُو هُرَيرَةَ ﷺ فِيمَا رَوَاهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أنَّ بَينَهُمَا أربَعِينَ»[1].

فَيقُومُ النَّاسُ مِن قُبورِهِم لِرَبِّ العَالَمِينَ حُفَاةً بِلَا نِعَالٍ، عُرَاةً بِلَا ثِيَابٍ، غُرْلًا بِلَا خِتَانٍ، دَلِيلُ ذَلِكَ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ ﴾ وَذَلِكَ أنَّ اللهَ يَرُدُّ إلَيهِم مَا أُخِذَ فِي حَيَاتِهِم مِمَّا فِيهِ حَيَاةٌ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيفَ يَتَحمَّلونَ أنْ يَبقَوا خَمسِينَ ألفَ سَنةٍ عَلَىٰ تِلْكَ الحَالِ؟

وَالجَوَابُ: أنَّ أحوَالَ الأبدَانِ يومَ القِيَامَةِ لَيسَتْ كَأحوَالِهَا فِي الدُّنيَا،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٤)، ومسلم (٢٩٥٥).

يُعطِيهَا اللهُ تَعَالَىٰ مِنَ القُوَّةِ وَالصَّبْرِ وَالتَّحَمُّلِ مَا لَا يَكونُ لَهَا فِي الدُّنيَا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيفَ يُمكِنُ أَنْ يَكُونَ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ فِي مَكانٍ وَاحِدٍ وَهُم عُرَاةٌ؟

وَالجَوَابُ: قَدْ أَجَابَ النَّبيُّ ﷺ عَن ذَلِكَ، بِأَنَّ الإنسَانَ مَشغُولٌ عَن هَذَا الأمرِ، وَأَنَّ الأمرَ أعظَمُ مِن أَنْ يُهِمَّهُم ذَلِكَ[1].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾، أَكَّدَ اللهُ تَعَالَىٰ ذَلِكَ بِأمرَينِ: أَنَّهُ وَاجِبٌ عَلَيهِ، وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ ذَلِكَ.

وَللهِ تَعَالَىٰ أَنْ يُوجِبَ عَلَىٰ نَفسِهِ مَا شَاءَ، أَمَّا نَحنُ فَلا نُوجِبُ عَلَىٰ اللهِ شَيئًا، وَإِنَّمَا نُؤمِنُ بِأَنَّ عَلَىٰ اللهِ أَشيَاءَ وَاجِبَةً أَوجَبَهَا هُوَ عَلَىٰ نَفسِهِ.

* * *

(١) أخرج البخاري فِي «صحيحه» (٦٥٢٧) مِن حَدِيثِ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تُحْشَرُونَ حُفَاةً، عُرَاةً، غُرْلًا**. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ. فَقَالَ: **الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكَ**».

الإيمَانُ بِأن صَحَائِفَ الأعمَالِ تُعْطَى بِاليَمِينِ أوْ بِالشِّمَالِ

وَنُؤمِنُ بِصحَائِفِ الأعمَالِ تُعطَىٰ بِاليَمِينِ، أو مِن وَرَاءِ الظُّهورِ بِالشِّمَالِ؛ صَحَائِفُ الأعمَالِ التِي كُتِبَتْ بِهَا الأعمَالُ، وَالأعمَالُ تُكتَبُ بَل كُلُّ شَيءٍ يُكتَبُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠]. وَقَالَ الظَّالِمُونَ: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩] فَهَذِهِ الكُتُبُ يَومَ القِيَامَةِ تُنشَرُ؛ أي: تُفتَحُ لِلإنسَانِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء:١٣].

وَنَؤمِنُ بِصَحَائِفِ الأعمَالِ تُعطَىٰ بِاليَمِينِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الانشقاق:٧]، **أوْ مِن وَرَاءِ الظُّهورِ بِالشِّمَالِ،** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق:١٠] وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة:٢٥]، وَفَهِمنَا مِن كَلَامِ المُؤلِّفِ أَنَّهُ لَا تَنَافِيَ بَينَ ذِكرِ الشِّمَالِ وَوَرَاءِ الظَّهرِ، وَأنَّ الإنسَانَ يُعطَىٰ كِتَابَهُ بِالشِّمَالِ؛ وذَلِكَ بِأنْ تُلوَىٰ يَدُهُ حَتَّىٰ تَكُونَ مِن وَرَاءِ الظَّهرِ، فَكَمَا أَنَّهُ جَعَلَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظَهرِهِ فِي الدُّنيَا، جَعَلَ اللهُ

كِتَابَ عَملِهِ وَرَاءَ ظَهرِهِ فِي الآخِرَةِ، خِزيًا وَعَارًا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٧-٨] وَالحِسَابُ اليَسيرُ أنَّ اللهَ ﷻ يَخلُو بعبدِهِ المُؤمِنِ، وَلَيسَ عِندَهُ أَحَدٌ وَيُقَرِّرُهُ بِذنُوبِهِ، يَقُولُ: فَعلتَ كَذَا وَفَعَلتَ كَذَا وفَعَلتَ كَذَا، حَتَّىٰ إذَا ظَنَّ أَنَّهُ هَلَكَ، يَقولُ اللهُ تَعَالَىٰ: إنِّي قَد سَترتُهَا عَلَيكَ فِي الدُّنيَا وَإِنِّي أغفِرُهَا لَكَ اليَومَ.

«**سترتُهَا عَلَيكَ فِي الدُّنيَا**» هَذِهِ نِعمَةٌ سَابِقَةٌ، «**وَأنَا أغفِرُهَا لَكَ اليَومَ**» هَذِهِ نِعمَةٌ لَاحِقَةٌ، وَأمَّا المُنَافِقُونَ وَالكَافِرونَ فَيُنَادَىٰ بِهِم عَلَىٰ رُءُوسِ الخَلَائِقِ فِي خِزيٍ وَعَارٍ وَفَضِيحَةٍ: «هَؤلَاءِ الذِينَ كَذَبوا عَلَىٰ اللهِ».

وَإِذَا نُوقِشَ الإنسَانُ الحِسَابَ هَلكَ، كَمَا قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**مَن نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ**»(١).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق:٩]، أهلُهُ فِي الجَنَّةِ؛ لأنَّ لَهُ أهلِينَ فِي الجَنَّةِ يَنقَلِبُ إِلَيهِم مَسرُورًا، وَظَاهِرُ الآيَةِ الكَرِيمَةِ أَنَّهُ مِن حِينِ أنْ يَكُونَ كَذَلِكَ يَظهَرُ عَلَيهِ السُّرورُ، ورُبَّمَا يَكُونُ النَّاسُ فِي غَمٍّ وَهَمٍّ، لَكِنَّهُ مَسرُورٌ، وَعُلِمَ مِن هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ أنَّ الحِسَابَ يَقَعُ بَعدَ أنْ يُعطَىٰ الإنسَانُ كِتَابَهُ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾ [الانشقاق:١٠ -١١]، يَعنِي: يَدعُو بِالثُّبورِ وَالعِيَاذُ بِاللهِ يَقُولُ: وَا ثُبورَاهُ، وَا عَارَاهُ، وَا خِزيَاهُ، وَمَا أَشبَهَ. ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق:١٢].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾، يُخرَجُ لَهُ يَومَ القِيَامَةِ كِتَابٌ مَنشُورٌ مَفتُوحٌ لَا يُكَلَّفُ فَتْحَهُ، وَيُقَالُ لَهُ: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾، وَهَذَا فِي غَايَةِ العَدلِ وَالإِنصَافِ؛ أَنَّهُ هُوَ بِنَفسِهِ يُحَاسِبُ نَفسَهُ بِنَاءً عَلَىٰ مَا فِي كِتَابِهِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة:١٩]، يُرِيهِ النَّاسَ مُفتَخِرًا بِهِ، مُتحَدِّثًا بِنِعمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيهِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٥]، يَتمَنَّىٰ أَنَّهُ هُوَ لَم يَطَّلِع عَلَيهِ، وَلَمْ يَطَّلِعْ عَلَيهِ النَّاسُ؛ لأَنَّهُ خِزيٌ وَعَارٌ.



الإيمَانُ بِالْمِيزَانِ عَلَى حَقِيقَتِه

وَنُؤمِنُ بِالمَوَازِينِ تُوضَعُ يومَ القِيامَةِ فَلَا تُظلَمُ نَفسٌ شَيئًا، المَوَازِينُ جَمعُ مِيزَانٍ، وَذُكِرَتْ فِي الكِتَابِ وَالسُّنةِ مَرَّةً بِالجَمعِ وَمَرَّةً بِالإفرَادِ، وَالجَمعُ بَينَهُمَا يَسيرٌ جِدًّا، وَهُوَ أنَّ المَوازِينَ جُمِعَتْ إمَّا لِكَثْرَةِ مَا يُوزَنُ، وَإمَّا لِكَثرَتِهَا باعتِبَارِ الأشخَاصِ كُلُّ إنسَانٍ لَهُ مِيزَانٌ، وإمَّا بِاعتِبَارِ الأمَمِ، وَأمَّا الإفرَادُ فَهُوَ مُفرَدٌ يُرَادُ بِهِ العُمومُ؛ لأنَّهُ لِلجِنسِ.

مَا الذِي يُوزَنُ؟ هَل يُوزَنُ العَمَلُ؟ أو يُوزَنُ العَامِلُ؟ أو تُوزَنُ الصَّحَائِفُ؟ كُلُّ هَذَا وَرَدَ.

القَولُ الأوَّلُ: أنَّ الذِي يُوزَنُ العَامِلُ: وَذَلِكَ فِيمَا صَحَّ فِي قِصَّةِ ابنِ مَسعُودٍ ﷺ أنَّهُ خَرَجَ يَمشِي ذَاتَ يَومٍ، وكَانَتِ الرِّيحُ شَدِيدَةٌ، فَجعَلَتْ تَكفَؤهُ وَكَانَت سَاقَاهُ دَقِيقَتَينِ، فَأخبَرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّهُمَا فِي المِيزَانِ أثْقَلُ مِنْ أُحُدٍ[1].

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٥]، عَلَىٰ أنَّ فِيهَا

---

(١) أخرجه أحمد (٣٩٨١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٣٧)، وأبو يعلىٰ (٥٣٩)، والطبراني في «الكبير» (٨٥١٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٢٢٢)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٧٥٠).

مَعنًىٰ آخَرَ: وهُوَ ألَّا نُقِيمَ لَهُم وَزنًا؛ أي: لَيسوا عِندَنَا بِشَيءٍ.

القَولُ الثَّانِي: أنَّ الذِي يُوزَنُ العَمَلُ: فَمِنهُ قَولُ النَّبيِّ ﷺ فِي «سُبحَانَ اللهِ وَبِحَمدِهِ سُبحَانِ اللهِ العَظِيمِ» أنَّهُمَا ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ[1].

وَقَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧].

فَإنْ قِيلَ: إنَّ العَمَلَ مَعنًىٰ مِنَ المَعَانِي وَلَيسَ جِسمًا يُوزَنُ فَكَيفَ ذَلِكَ؟

الجَوابُ: أنْ يُقَالَ: إنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَجعَلُ هَذِهِ المَعَانِيَ أجسَامًا، وَاللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، قَادِرٌ عَلَىٰ أنْ يَجعَلَ هَذِهِ المَعَانِيَ أجسَامًا مَرئِيَّةً.

القَولُ الثَّالِثُ: أنَّ الذِي يُوزَنُ هُوَ صَحَائِفُ الأَعْمَالِ: وَذَلِكَ فِي حَدِيثِ صَاحِبِ البِطَاقَةِ، وَفِيهِ «**ثُمَّ تُوضَعُ البِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ وَالسِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ**»[2].

الجَمعُ بَينَ الأقوَالِ الثَّلَاثَةِ:

أمَّا بِالنِّسبَةِ لِلصَّحَائِفِ وَالأعمَالِ نَفسِهَا فَلَا مُنَافَاةَ، إذْ يُمكِنُ أنْ تَكُونَ الأعمَالُ تُوزَنُ بِالصَّحَائِفِ، فَإذَا ثَقُلَ العَمَلُ لَزِمَ مِن ذَلِكَ ثِقَلُ الصَّحِيفَةِ.

أمَّا بِالنِّسبَةِ لِلعَامِلِ أنَّهُ هُوَ الذِي يُوزَنُ، فَرُبَّمَا نَقولُ: إنَّ هَذَا يَقع لِبَعضِ

(١) أخرجه البخاري (٧٥٦٣)، ومسلم (٢٦٩٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٥).

النَّاسِ دُونَ بَعضٍ، وَهَذِهِ مَسألَةٌ تَرجِعُ إِلَىٰ مَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، لَيسَ لِلعَقلِ فِيهَا تَدَخُّلٌ.

«فَلَا تُظلَمُ نَفسٌ شَيئًا» شَيئًا: نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفي فَتَعُمُّ أيَّ شَيءٍ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨]، مِثقَالُ الذَّرَّةِ يُضرَبُ مَثَلًا لِلقِلَّةِ، وَكَذَلِكَ مَن يَعمَلُ دُونَ الذَّرَّةِ يَرَاهُ، مَا دَامَ ذَكَرَ الذَّرةَ هُنَا لِبيَانِ القِلَّةِ؛ فَهُوَ عَلَىٰ سَبِيلِ المَثَلِ وَلَيسَ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّحدِيدِ.

وَفِي هَذِهِ الآيَاتِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أنَّ المِيزَانَ حِسِّيٌّ، وَهَذَا خِلَافُ مَا قَالَهُ المُعتَزِلَةُ أنَّ المِيزَانَ لَيسَ حِسِّيًا وَلَيسَ لَهُ كِفَّتَانِ، وَالمُرَادُ بِهِ إِقَامَةُ العَدلِ، فَأنكَرُوا مَا جَاءَ بِهِ القُرآنُ صَرِيحًا، وَجَاءَ فِي السُّنةِ صَرِيحًا، وَقَولُهُم هَذَا يَستَلزِمُ تَكذِيبَ خَبَرِ اللهِ وَخبَرِ رَسولِهِ، وتَحرِيفَهُمَا إِلَىٰ مَعَانٍ بَعِيدَةٍ.

عَقِيدَةُ أهلِ السُّنَّةِ فِي المِيزَانِ: أنَّهُ مِيزَانٌ عَلَىٰ الحَقِيقَةِ، لَهُ كِفَّتَانِ تُوزَنُ فِيهِ الأعمَالُ أَوْ صَحَائِفُ الأعمَالِ، أو العُمَّالُ، حَسبَمَا جَاءَت بِهِ النُّصوصُ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٤]، هَؤلَاءِ الكُفَّارُ تَلفَحُ وجُوهَهُمُ النَّارُ، وَذَكَرَ الوَجهَ؛ لأنَّهُ أشدُّ مَا يَكُونُ تَأثُّرًا، وَلأنَّهَا إذَا عُذِّبَتِ الوجُوهُ كَانَ ذَلِكَ أذَلَّ بِالنِّسبَةِ لِلإنسَانِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠]، هَذَا بَيَانُ كَيفَ تَكُونُ الموَازِينُ.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ وهَذَا أدنَىٰ مَا يُثَابُ عَلَيهِ المَرءُ بالنِّسبَةِ لِلحَسَنَةِ، وَإلَّا فَإنَّ الحَسَنَةَ بِعَشرِ أمثَالِهَا إلَىٰ سَبعمِئَةِ ضِعفٍ إلَىٰ أضعَافٍ كَثيرَةٍ، وَعُلِمَ مِن قَولِهِ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أنَّهُ لَو كَانَ هُناكَ مَا يُبطِلُ الحسَنَاتِ فَإنَّهَا لَا تَنفَعُهُ، مِثلَ أنْ يَرتَدَّ الإنسَانُ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ تَعَالَىٰ-؛ فَإنَّهُ لَا تنفَعُهُ الحَسَنَاتُ وَلَو فَعَلَهَا فِي الدُّنيَا؛ فَلَابُدَّ أنْ تَكُونَ الحَسَنَاتُ وَاصِلَةً إلَىٰ الإنسَانِ يَومَ القِيَامَةِ، وَكَذَلِكَ أيضًا مَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ؛ فَإنَّ الإنسَانَ قَد يَعمَلُ السَّيئَةَ ثُمَّ يَتوبُ مِنهَا فَلَا يَكُونُ أتَىٰ بِهَا.



الإيمَانُ بِالشفَاعَةِ وَأنوَاعِهَا

وَنُؤمِنُ بِالشَّفَاعَةِ العُظمَىٰ لِرَسولِ اللهِ ﷺ، كَلِمَةُ «نُؤمِنُ»، يَعنِي: مَعشَرَ أهلِ السُّنةِ وَالجمَاعَةِ، لأنَّ هَذِهِ عَقِيدَةٌ مَبنِيَّةٌ عَلَىٰ ذَلِكَ.

وَالشَّفَاعَةُ العُظمَىٰ اسمُ تَفضِيلٍ مِن العَظَمَةِ؛ لأنَّهَا أعظَمُ الشَّفَاعَاتِ، هَذِهِ الشَّفَاعَةُ العُظمَىٰ اتَّفَقَ عَلَيهَا أهلُ السُّنةِ وَالخَوارِجُ وَالمُعتزِلَةُ، فَكُلُّهُم يُؤمِنُونَ بِهَا وَبِأنَّهَا «**خَاصَّةٌ**» بِرَسُولِ اللهِ ﷺ لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أحَدٌ، لَا نَبيٌّ مُرسَلٌ وَلَا مَلَكٌ مُقرَّبٌ، وَهِيَ المَقَامُ المَحمُودُ الذي وَعَدَهُ رَبُّهُ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ [الإسراء:٧٩]، فَهُوَ مَقَامٌ يَحمَدُهُ عَلَيهِ الأوَّلُونَ وَالآخِرونَ، وَيَعتَرِفُونَ لِلرَّسولِ بِالفَضلِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسلَامُهُ عَلَيهِ-.

يَشفَعُ عِندَ اللهِ تَعَالَىٰ بِإذنِهِ، لِيَقضِيَ بَينَ عِبَادِهِ حِينَ يُصِيبُهُم الهَمُّ وَالكَربُ وَمَا لَا يُطِيقُونَ وَذَلِكَ يَكُون فِي يَوم القِيَامَةِ، وَهُوَ يَومٌ مِقدَارُهُ خَمسُونَ ألفَ سَنةٍ، لَا بِنَاءَ وَلَا شَجَرَ وَلَا ثَوبَ وَلَا شَيءَ مَعَ الزِّحَامِ الشَّدِيدِ العَظِيمِ، وَقَد دَنَتِ الشَّمسُ مِنَ الرُّءوسِ، وَالنَّاسُ فِي العَرَقِ عَلَىٰ قَدرِ الأعمَالِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾ [طه:١٠٨]، هَذَا

اليَومُ العَظِيمُ يَلحقُ النَّاسَ فِيهِ مِنَ الكَربِ وَالهَمِّ مَا لَا يُطِيقُونَ؛ فَيَطلُبُونَ شَفِيعًا إلَىٰ اللهِ ﷻ يُنجِيهِم مِن هَذَا المَوقِفِ إلَىٰ أيِّ شَيءٍ، وَلَو إلَىٰ النَّارِ؛ المُهِمُّ أنْ يَنصَرِفُوا مِن المَوقِفِ!

«**فَيذَهَبونَ إلَىٰ آدَمَ** ﷺ»، فَيُلهَمُونَ أنْ يَذهَبُوا إلَىٰ آدَمَ، وَيَذكُرُونَ مَنَاقِبَهُ وَفَضَائِلَهُ لِيَشفَعَ لَهُم عِندَ اللهِ، فَيعتَذِرُ بِأنَّهُ عَصَىٰ رَبَّهُ بِأكلِهِ مِنَ الشَّجَرَةِ، مَعَ أنَّهُ تَابَ مِنهُ، لَكِن لَمَّا كَانَ مَقامُ الشَّفَاعَةِ مَقَامًا عَظِيمًا، لَابُدَّ أنْ يَكُونَ الشَّافِعُ لَيسَ بَينَهُ وَبَينَ المَشفُوعِ إلَيهِ مَا يَخْدِشُ مَقَامَهُ، اعتَذَرَ بِأكلِهِ مِنَ الشَّجرَةِ مَعَ أنَّهُ تَابَ وَحَسُنَتْ حَالُهُ، وَلَكِنَّهُ الخَجلُ وَالحياءُ مِنَ اللهِ.

«**ثُمَّ نُوحٍ** ﷺ»، يُلهِمُهُم اللهُ أنْ يَذهَبُوا إلَىٰ نُوحٍ يَسألُونَهُ أنْ يَشفَعَ لَهُم عِندَ اللهِ، فَيَعتَذِرُ بِأنَّهُ سَألَ مَا لَيسَ لَهُ بِهِ عِلمٌ حَيثُ قَالَ: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٥-٤٦] وَفِي رِوَايَةٍ أنَّهُ اعتَذَرَ أنَّهُ دَعَا عَلَىٰ قَومِهِ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦].

«**ثُمَّ إبرَاهِيمَ** ﷺ»، يُلهَمونَ أنْ يَأتُوا إلَىٰ إبرَاهِيمَ، وَيَذكُرونَ مِن مَنَاقِبِهِ وَفَضَائِلِهِ، لِيَشفَعَ لَهُم عِندَ اللهِ، فَيعْتَذِرُ بِأنَّهُ كَذَبَ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ وَهُوَ لَم يَكذِب -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- لَكِنَّهُ تَأوَّلَ وَوَرَّىٰ، وَالتَّورِيَةُ حَقِيقَتُهَا صِدقٌ وَظَاهِرُهَا كَذِبٌ، لَكِن لِكمَالِ إبرَاهِيمَ -عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- الذِي وَصَفَهُ اللهُ بِأنَّهُ ﴿وَفَّىٰٓ﴾، رَأىٰ أنَّ هَذَا يُوجِبُ أنْ يَخجَلَ أنْ يَشفَعَ عِندَ اللهِ ﷻ .

«**ثُمَّ مُوسَىٰ** عليه السلام»، يُلهَمُونَ أنْ يَأْتُوا إلَىٰ مُوسَىٰ فَيَعتَذِرُ بِأَنَّهُ قَتلَ نَفسًا لَم يُؤمَر بِقَتلِهَا، وَهَذِهِ النَّفسُ هِيَ القِبطِيُّ الذِي قَتَلَهُ حِينَ استَغَاثَهُ الإسرَائِيلِيُّ عَلَيهِ، وَكَانَ مُوسَىٰ قَوِيًّا وَكَزَهُ وَكزَةً وَاحِدَةً فَقَضَىٰ عَلَيهِ، لأَنَّهُ قَوِيٌّ.

«**ثُمَّ عِيسَىٰ** عليه السلام»، يُلهَمُونَ أنْ يَذهَبُوا إلَىٰ عِيسَىٰ، عِيسَىٰ لَا يَعتَذِرُ لَهُم بِشيءٍ، لَكِن يَدلُّ عَلَىٰ مَن هُوَ أفضَلُ مِنهُ وَهُوَ مُحمَّدٌ ﷺ، وَيَقُولُ: اذهَبُوا إلَىٰ مُحمَّدٍ، وكُلُّ وَاحِدٍ مِنهُم يَقُولُ: نَفسِي نَفسِي نَفسِي، كُلُّ الأنبِيَاءِ مِن آدَمَ عليه السلام إلَىٰ عِيسَىٰ عليه السلام، إلَّا مُحمَّدًا ﷺ وَحدَهُ فِي المَوقِفِ يَومَ القِيَامَةِ يَقُولُ: «**أمَّتِي أمَّتِي**».

«**حَتَّىٰ يَنتَهِي إلَىٰ رَسولِ اللهِ** ﷺ»، فَيأتُونَ إلَىٰ رَسولِ اللهِ ﷺ، وَهَذَا الأمرُ الذِي وَقَعَ بَإلهَامِ اللهِ لِهَؤلَاءِ النَّاسِ، لِيَتَبيَّنَ بِهِ فَضلُ رَسولِ اللهِ ﷺ عَلَىٰ غَيرِهِ؛ لأنَّ أربَعَةً مِنهُم يَعتَذِرونَ بِشَيءٍ مِمَّا يُوجِبُ الخَجَلَ، وَهُم «**آدَمُ، ونُوحٌ، وإبرَاهِيمُ، وَمُوسَىٰ**» وَالخَامِسُ لَا يَذكُرُ خَطِيئَةً وَلَكِنَّهُ يَعتَرِفُ بِأَنَّ فِي السَّاحَةِ مَن هُوَ أفضَلُ مِنهُ، وهُوَ مُحمَّدٌ ﷺ الذِي غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِهِ وَمَا تَأخَّرَ، فَيشفَعُ إلَىٰ اللهِ عز وجل أنْ يُخَلِّصَ النَّاسَ مِمَّا هُم فِيهِ، وَيَقضِي بَينَهُم فَيجِيبُهُ اللهُ عز وجل وَيَقضِي بَينَ العِبَادِ.

الشَّفَاعَةُ العُظمَىٰ: وَهِيَ لِكُلِّ النَّاسِ مُؤمِنِهِم وَكَافِرِهِم، بَرِّهِم وفَاجِرِهِم وَلَم يَختَلِفْ فِيهَا أحَدٌ مِن أهلِ القِبلَةِ، مِن مُبتَدِعَةٍ وَأهلِ سُنَّةٍ، فَكلُّهُم يُؤمِنُونَ بِهَا، يَسجدُ النَّبيُّ ﷺ وَيَحمَدُ رَبَّهُ بِمَحَامِدَ قَالَ: «**لَا أذكُرُهَا الآنَ، يَفتَحُ اللهُ عَليَّ**

بِهَا» يَعنِي: فِي ذَلِكَ الوَقتِ، يَحمَدُ رَبَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- سَاجِدًا ويَظَلُّ كَذلِكَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ اللهُ فِي الشَّفَاعَةِ، فَيقُولُ: «**يَا مُحمَّدُ! ارفَع رَأْسَكَ، وَقُل يُسمَعْ لَكَ، وَاشفَعْ تُشَفَّعْ**» فيَقُولُ: «**يَا رَبِّ أسأَلُكَ أَنْ تَبدَأَ فِي فَصلِ القَضَاءِ بَينَ النَّاسِ**»؛ فَيَبدَأُ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- فِي الحِسَابِ بَينَ النَّاسِ.

وَنُؤمِنُ بِالشَّفَاعَةِ فِيمَن دَخَلَ النَّارَ مِن المُؤمِنِينَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنهَا، وَهِيَ لِلنَّبيِّ ﷺ وَلِغَيرِهِ مِنَ النَّبيينَ وَالمُؤمِنِينَ وَالمَلَائِكَةِ، هَذِهِ ثَلَاثَةُ أَصنَافٍ:

١- الأَنبِيَاءُ.

٢- وَالمُؤمِنُونَ وَيَشمَلُ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءَ والصَّالِحِينَ.

٣- وَالمَلَائِكَةُ.

إِذَن؛ هِيَ عَامَّةٌ فِيمَن دَخَلَ النَّارَ أَنْ يُخْرَجَ مِنهَا، وَقَد تَوَاتَرَتِ الأَحَادِيثُ فِي ذَلِكَ عَن رَسولِ اللهِ ﷺ، وَلَكِنْ أَنكَرَهَا طَائِفَتَانِ مُبتَدِعَتَانِ وَهُمَا: «الخَوَارِجُ، وَالمُعتَزِلَةُ».

بِنَاءً عَلَىٰ أَصلِهِمَا الفَاسِدِ حَيثُ قَالُوا: إِنَّ فَاعِلَ الكَبِيرَةِ مُخلَّدٌ فِي النَّارِ ولَا تَنفَعُ فِيهِ الشَّفَاعَةُ، مَعَ أَنَّهُم هُم مِن أَهلِ القِبلَةِ وَيَنتَسِبونَ إِلَىٰ الإِسلَامِ.

وَنُؤمِنُ بِأَنَّ اللهَ يُخرِجُ أَقوَامًا بِغَيرِ شَفَاعَةٍ بَل بِفَضلِهِ ورَحمَتِهِ.

تَعرِيفُ الشَّفَاعَةِ: هِيَ التَّوسُّطُ لِلغَيرِ بِجَلبِ مَنفَعَةٍ أَو دَفعِ مَضَرَّةٍ.

جَلبُ مَنفَعَةٍ: الشَّفَاعَةُ لأَهلِ الجَنَّةِ أَنْ يَدخُلُوا الجَنَّةَ.

دَفَعُ المَضرَّةِ: الشَّفَاعَةُ فِيمَن دَخَلَ النَّارَ بِأَنْ يُخْرَجَ مِنهَا.

هُنَالِكَ أيضًا شَفَاعَاتٌ مِنهَا رَفعٌ لِمَن دَخَلَ الجَنَّةَ فَيشفَعُ فِيهِ مِن أجلِ أنْ تَعلُوَ دَرَجَاتُهُ، وَشَفَاعَةُ النَّبيِّ ﷺ فِي عَمِّهِ وَقَد مَاتَ كَافِرًا فِي أنْ يُخَفَّفَ عَنهُ مِنَ العَذَابِ، فَهُوَ فِي ضَحضَاحٍ مِنَ النَّارِ وَمَعَ ذَلِكَ يَغلِي مِن تِلكَ النَّارِ دِمَاغُهُ -نَسأَلُ اللهَ العَافِيةَ-.



الإيمَانُ بِالحَوضِ المَورودِ

وَنُؤمِنُ بِحَوضٍ لِرَسولِ اللهِ ﷺ، والحَوضُ المَورُودُ لِلرَّسولِ ﷺ مَوجودٌ الآنَ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ خطَبَ النَّاسَ وَأخبرَ أنَّهُ يَرَىٰ حَوضَهُ، وَأنَّ مِنبَرَهُ عَلَىٰ حَوضِهِ، فَهُوَ مَوجُودٌ لَكِنَّهُ مِن عَالَمِ الغَيبِ، وَعَالَمُ الغَيبِ لَا يُمكِنُ أنْ يَكُونَ شَهَادَةً، كَمَا أنَّ المَلائِكَةَ مَوجُودُونَ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا نُشَاهِدُهُم وَلَا نَرَاهُم، فَالحَوضُ مَوجُودٌ الآنَ، لَكِن يَكُونُ مَنظُورًا ومَحسُوسًا وَمَلمُوسًا يومَ القِيَامَةِ.

مَاؤُهُ أشَدُّ بيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، لَيسَ هُنَاكَ شَيءٌ هُوَ أشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ فِيمَا نَرَاهُ، لَكِنْ يَومَ القِيَامَةِ مَاءُ حَوضِ الرَّسولِ ﷺ أشَدُّ بيَاضًا مِنَ اللبنِ، وَهَذَا يَدلُّ عَلَىٰ طِيبِ مَنظَرِهِ. «**وَأحلَىٰ مِنَ العَسَلِ**» يَدلُّ عَلَىٰ طِيبِ مَذَاقِهِ وَطَعمِهِ، «**وَأطيَبُ مِن رَائِحَةِ المِسكِ**» يَدلُّ عَلَىٰ طِيبِ رَائِحَتِهِ.

طُولُهُ شَهرٌ وَعَرضُهُ شَهرٌ، وَهَذَا يَدلُّ عَلَىٰ أنَّهُ مُستَدِيرٌ؛ لأنَّهُ لَو كَانَ غَيرَ مُستَدِيرٍ لَزَادَتْ زَوَايَاهُ عَلَىٰ شَهرٍ؛ إذْ إنَّ المُرَبَّعَ لَابُدَّ أنْ يَكُونَ بَينَ الزَّاوِيَةِ وَمُقَابِلَتِهَا أكثَرُ مِن مُسطَّحِهَا، وَعَلَىٰ هَذَا فَيَكُونُ الحَوضُ مُستَدِيرًا، وَهَذَا هُوَ الغَالِبُ؛ أنَّ الحِيَاضَ تَكُونُ مُستَدِيرَةً.

إذَا قَالَ الرَّسولُ ﷺ: «**طُولُهُ شَهرٌ وَعَرضُهُ شَهرٌ**»، فَالمُرَادُ سَيرُ الإبلِ المُحَمَّلةِ؛ لأنَّ فِي عَهدِ الرَّسولِ ﷺ مَا كَانَ هُنَاكَ سَاعَاتٌ وَلَا سَيَّارَاتٌ وَلَا طَائِرَاتٌ، فَيُحمَلُ مَا جَاءَ بِهِ التَّقدِيرُ عَلَىٰ مَا كَانَ مَعرُوفًا وَمَألُوفًا.

آنِيتُهُ كَنُجومِ السَّمَاءِ حُسنًا وَكَثرَةً، فَآنِيتُهُ مُضِيئَةٌ لَامِعَةٌ كَثِيرَةٌ لَا تُحصَىٰ كَمَا أنَّ نُجومَ السَّماءِ لَا تُحصَىٰ، وَلَكِنَّهَا لَيسَت كَنُجومِ السَّمَاءِ فِي الحَجمِ، لَكِن فِي المَنظَرِ؛ فَنجُومُ السَّمَاءِ حَسنَةٌ مُضِيئَةٌ كَثِيرَةٌ، يَسْتَمِدُّ هَذَا الحَوضُ مِنَ الكَوثَرِ، وَهُوَ النَّهرُ العَظِيمُ الذِي أُعطِيَهُ النَّبيُّ ﷺ فِي الجَنَّةِ، يَنطَلِقُ مِنهُ مِيزَابَانِ يَصُبَّانِ فِيهِ، سُبحَانَ اللهِ! يَعنِي: أهْلَ الجَنَّةِ -جَعَلَنِي اللهُ وَإيَّاكُم مِنهُم- يَذوقُونَهَا قَبلَ دُخولِهِم بِوَاسِطَةِ هَذَا الحَوضِ.

يَرِدُهُ المُؤمِنُونَ مِن أمَّتِهِ، مَن أمَّتِهِ خَاصَّةً، وَهَل لِبَقِيةِ الأنبِيَاءِ أحوَاضٌ؟

الجَوَابُ: أنَ لَهُم أَحوَاضًا، لِكُلِّ نَبيٍّ حَوضٌ، لَكِن مِنَ المَعلُومِ أنَّ الحَوضَ الكَبِيرَ الوَاسِعَ الأعظَمَ، هُوَ حَوضُ النَّبيِّ ﷺ؛ لأَنَّ أمَّتَهُ أكثَرُ الأمَمِ فَهُم ثُلثَا أهلِ الجَنَّةِ، فَهُم أكثَرُ النَّاسِ.

وسُهولَةُ ورُودِهِم عَلَيهِ كَسهُولَةِ ورُودِهِم عَلَىٰ شَرعِ اللهِ، فَمَن كَانَ ورُودُهُ عَلَىٰ سُنَّةِ الرَّسولِ وَشَرعِهِ سَهلًا، وَكَانَ مُنقادًا لِلشَّرعِ ويُطبِّقهُ مَا استَطَاعَ فَسَيَكونُ ورُودُهُ عَلَىٰ هَذَا الحَوضِ سَهلًا وَمُيَسَّرًا، وَالعَكسُ بِالعَكسِ.

مَن شَرِبَ مِنهُ لَم يَظمَأ بَعدَ ذَلِك، أبَدًا، مَعَ أنَّ النَّاسَ يَرِدُونَ عَلَيهِ وَهُم عِطَاشٌ فِي أشَدِّ مَا يَكُونُ مِنَ الضَّرورَةِ إلَيهِ، فَإذَا شَرِبُوا مِنهُ فَلَا ظَمَأ، لَا فِي

عَرصَاتِ القِيَامَةِ وَلَا فِي الجنَّةِ كَمَا هُوَ مَعلُومٌ.

وَهَذَا الحَوضُ حِسِّيٌّ لَا شَكَّ، لَهُ آنِيَةٌ، وَلِمَائِهِ طَعمٌ، وَلَهُ رَائِحَةٌ، وَعَلَيهِ كِيزَانٌ، والسَّقَّاءُ عَلَيهِ النَّبيُّ ﷺ.

* * *

الإيمَانُ بالصِّرَاطِ

وَنُؤمِنُ بِالصِّرَاطِ المَنصُوبِ عَلَىٰ جهنَّمَ؛ يَعنِي: يُنصَبُ صِرَاطٌ عَلَىٰ مَتنِ جَهنَّمَ، يَعنِي: فَوقَ ظَهرِهَا، وَهَذَا هُوَ الصِّراطُ، واختَلفَ العُلماءُ فِيهِ: هَل هُوَ صِرَاطٌ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ، أي: طَرِيقٌ يُمَرُّ بِهِ، بِدَلِيلِ أنَّ عَلَىٰ حَافتَيهِ كَلَالِيبَ، وَأنَّهَا كَشَوكِ السَّعدَانِ، كَمَا قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ، وَأنَّهُ دَحضٌ مَزَلَّةٌ، وَكُلُّ هَذا يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّهُ طَرِيقٌ حِسِّيٌّ واضِحٌ.

أو أنَّهُ أدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ وَأحدُّ مِنَ السَّيفِ وَأنَّ النَّاسَ يَمُرُّونَ عَلَيهِ؟

فِي هَذَا خِلَافٌ بَينَ عُلمَاءِ أهلِ السُّنَّةِ، وَلَيسَ هُنَاكَ أدِلَّةٌ وَاضِحَةٌ تَفصِلُ بَينَ القَولَينِ، فَمُعتَقدُنَا فِي ذَلِكَ أنْ نَقولَ: اللهُ أعلَمُ، لَكِن نُؤمِنُ بِهَذَا الصِّرَاطِ. «**يَمرُّ النَّاسُ عَلَيهِ عَلَىٰ قَدرِ أعمَالِهِم**» فِي الدُّنيَا؛ المُسَارِعُ فِي الخَيرَاتِ يَكُونُ سَرِيعًا فِيهِ، وَالبَطِيءُ فِي الخَيرَاتِ يَكُونُ بَطِيئًا فِيهِ.

«**فَيمُرُّ أوَّلُهُم كَالبَرقِ**» وَأسرَعُ مَا يَكُونُ وَمضًا هُوَ البَرقُ فِيمَا نُشَاهِدُ، «**ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ**» أي: مُرورِها، وَلَا شَكَّ أنَّ الرِّيحَ فِي ذَلِكَ الوَقتِ أسرَعُ مَا يَكُونُ تَصَوُّرًا، لَكِن فِي الوَقتِ الحَاضِرِ يُوجَدُ مَا هُوَ أسرَعُ. «**ثُمَّ كَمرِّ الطَّيرِ وَشَدِّ الرِّجَالِ**» يَعنِي: كَشَدِّ الرِّجَالِ، يَرمُلُونَ رَمَلًا عَلَىٰ قَدْرِ أعمَالِهِم.

«**وَالنَّبِيُّ ﷺ قَائِمٌ عَلَىٰ الصِّراطِ يَقُولُ: اللهُمَّ سَلِّم سَلِّم**» -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ-، قَائِمٌ عَلَيهِ.

هَل هُوَ فِي أسفَلِهِ أو فِي أعلَاهُ؟ اللهُ أعلَمُ.

المُهِمُّ أَنَّهُ قَائمٌ عَلَيهِ، يَدعُو اللهَ يَقُولُ: يَا رَبِّ سَلِّم، يَا رَبِّ سَلِّم؛ مِمَّا يَدلُّ عَلَىٰ عَظَمَةِ الأمرِ، لأنَّ الصِّراطَ دَحضٌ وَمزَلَّةٌ وَخطَرٌ عَظِيمٌ، فَمَا الذِي تَحتَكَ لَو سَقطتَ؟ إنَّهَا النَّارُ -نَسأَلُ اللهَ أنْ يُجِيرنَا وَإيَّاكُم مِنهَا-؛ وَلِهَذَا فَإنَّ خَاتَمَ الرُّسلِ وَإِمَامَ المُتَّقِينَ وَإِمَامَ المُوقِنِينَ يَقُولُ: يَا رَبِّ سَلِّم سَلِّم.

«**حَتَّىٰ تَعجِزُ أعمَالُ العِبَادِ فَيَأتِي مَن يَزحَفُ**» يَزحفُ زَحفًا لَا يَستَطِيعُ القِيَامَ عَلَىٰ قَدَمَيهِ، لأنَّ عَملَهُ لَا يَحمِلُهُ عَلَىٰ أنْ يَقومَ.

«**وَفِي حَافَتَي الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعلَّقَةٌ مَأمُورَةٌ تَأخُذُ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ**» الكَلَالِيبُ مَعروفَةٌ فَوقَ الصِّراطِ، تُؤمَرُ أنْ تَأخُذَ فُلانًا حِينَ مُرورِهِ تُلقِيهِ فِي النَّارِ، وَلِهَذَا قَالَ: «**فَمَخْدوشٌ نَاجٍ**» مَخْدُوشٌ مِن هَذِهِ الكَلَالِيبِ.

«**وَمُكردَسٌ فِي النَّارِ**» المُكردَسُ فِي النَّارِ إنَّمَا هُوَ مِن عُصَاةِ المُؤمِنِينَ وَلَا يُخلَّدُ فِيهَا، لأنَّ الكَافِرينَ لَا يَمرُّونَ عَلَىٰ الصِّراطِ أصلًا وَلَا يُمتَحَنونَ بِهِ؛ أمَّا العُصَاةُ وَغيرُ العُصَاةِ مِن المُؤمِنِينَ فَيمُرُّونَ بِهذَا الصِّرَاطِ، وَهَلْ يُلقَىٰ فِي نَارِ الكَافِرِينَ أو فِي نَارٍ أخرَىٰ؟ فِي هَذَا قَولَانِ لِلسَّلفِ:

القَّولُ الأوَّلُ: أنَّهُ يُكردَسُ فِي نَارِ جَهنَّمَ التِي هِيَ نَارُ الكَافِرِينَ، لَكِنَّ

أعضَاءَ السُّجودِ لَا تَأكُلُهَا النَّارُ؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ أنْ تَأكُلَ أعضَاءَ السُّجودِ، لَكِنَّ بَعضَ العُلمَاءِ يقُولونَ: إنَّهَا لَيسَتْ كَالنَّارِ الأُمِّ وَهِيَ النَّارُ التِي تَفنَىٰ، أمَّا النَّارُ التِي هِيَ النَّارُ الأمُّ فَلَا تَفنَىٰ، وَهَذَا ظَاهِرُ كَلَامِ ابْنِ القَيِّمِ فِي «**الوَابِلِ الصَّيِّبِ**» أنَّ النَّارَ التِي تَفنَىٰ هِيَ نَارُ المُعَذَّبِينَ بِذُنُوبِهِم فَقَطْ، لَا نَارُ الكَافِرِينَ.

القَولُ الثَّانِي: أنَّ هَؤلَاءِ الذِينَ يُكردَسُونَ فِي النَّارِ عِندَ مرُورهِم عَلَىٰ الصِّراطِ يُكردَسونَ فِي نِارِ جَهنمَ، ولَكنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، يُمكِنُ أنْ تَكُونَ نَارُ جَهنَّمَ لِهؤلَاءِ بَردًا وَسَلامًا؛ يَعنِي: أنَّهَا تَكُونُ أخفَّ عَذَابًا، وَلِهَؤلَاءِ شَدِيدَةَ الحَرَارَةِ.

إنَّمَا نَحنُ نُؤمِنُ بِأنَّ هَذَا الصِّرَاطَ عَلَىٰ جَهنَّمَ، وَأنَّ النَّاسَ يَعبُرونَ عَلَيهِ وَأنَّ مِنهُم مَن يُكردَسُ وَيُلقَىٰ فِي النَّارِ، وَظَاهِرُ النَّصِّ أنَّهَا النَّارُ التِي لِلكَافِرِينَ لَكِنْ مِنَ الجَائِزِ أنْ تَكُونَ بَردًا وَسَلَامًا عَلَىٰ غَيرِ الكَافِرينَ، وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.



الإيمانُ بمَا جَاءَ فِي الكِتَابِ وَالسنةِ مِن أخبَارِ اليَومِ الآخِرِ وَأهوَالِه

وَنُؤمِنُ بِكُلِّ مَا جاءَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِن أخبَارِ ذَلِكَ اليَّومِ وَأهوَالِهِ أعَانَنَا اللهُ عَلَيهَا، هَذَا كَلَامٌ عَامٌّ، وَالمُرَادُ بِالسُّنَّةِ هُنَا السُّنةُ الصَّحِيحَةُ؛ وَذَلِكَ لأنَّهُ وَرَدَتْ أحَادِيثُ ضَعِيفَةٌ كَثِيرَةٌ بِمَا يَتعَلَّقُ بِأهوَالِ الآخِرَةِ، لَكِن كُلَّمَا تَكلَّمنَا عَن دَلِيلٍ مِن الكِتَابِ وَالسُّنةِ، فَالمُرَادُ بِالسُّنَّةِ السُّنةُ الصَّحِيحَةُ.

وَنُؤمِنُ بِشَفَاعَةِ النَّبيِّ ﷺ لأهلِ الجَنَّةِ أنْ يَدخُلوهَا، وَهِيَ لِلنَّبيِّ ﷺ خَاصَّةً، وَذَلِكَ أنَّ أهلَ الجَنَّةِ إذَا عَبروا الصِّرَاطَ وُقِفُوا عَلَىٰ قَنطَرةٍ بَينَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، يُقْتَصُّ لِبَعضِهِم مِن بَعضٍ مَظالِمُ كَانَت بَينَهُم فِي الدُّنيَا، وَتُغسَلُ قُلوبُهُم مِنَ الغِلِّ وَالحِقدِ؛ حَتَّىٰ يَدخُلوا الجَنَّةَ عَلَىٰ أحسَنِ وَجهٍ، وإذَا جَاءُوا إلَىٰ أَبْوَابِ الجنَّةِ لَم يَجدوهَا مَفتُوحَةً.

أمَّا أهلُ النَّارِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر:٧١]، عَلَىٰ الفَورِ إهَانَةً لَهُم وَمُبَادَرَةً بِالعُقُوبَةِ عَلَيهِم.

أمَّا أهلُ الجَنَّةِ فَيدخُلونَهَا عَلَىٰ اشتِيَاقٍ، إذَا جَاءوهَا وَجَدوهَا مُغلَقَةً، فَيحتَاجُونَ إلَىٰ شَفَاعَةٍ، يَشفَعُ الرَّسولُ ﷺ، فَيدخُلُ أهلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ بِشفَاعَةِ

النَّبيِّ ﷺ، وَهَذِهِ شَفَاعَةٌ خَاصَّةٌ لَهُ، وَكَذَلِكَ شفَاعتُهُ الخَاصَّةُ فِي عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، فَهَذِهِ شَفَاعةٌ خَاصَّةٌ، فِي خَاصٍّ وهُوَ عَمُّهُ، لِخَاصٍّ وهُوَ النَّبيُّ ﷺ.

أعدَّهَا اللهُ تَعَالَىٰ لِلمُؤمِنِينَ المُتَّقِينَ: «أعَدَّهَا»، فَهِيَ الآنَ مَوجُودَةٌ، «لِلمُؤمِنِينَ» هَذَا مَا يَتَعلَّقُ بِالقُلوبِ، «المُتَّقِينَ» مَا يَتَعلَّقُ بِالجَوَارِحِ.

فِيهَا مَا لَا عَينٌ رَأتْ وَلَا أذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطرَ عَلَىٰ قَلبِ بَشَرٍ، مَا رُئِي فِي الدُّنيَا مِثلُ نَعيمِ الآخِرَةِ، وَلَا سُمِعَ بِمثلِه مِن حُسنِ الأصوَاتِ وَالكَلامِ الطَّيبِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم:٢٣]، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة:٢٥-٢٦]، مَا أحسَنَا مِثلَ هَذَا النَّعيمِ وَلَا خَطرَ عَلَىٰ قَلبِ بَشرٍ.

كُلُّ مَا نَرَىٰ مِن نَعيمٍ فِي الدُّنيَا فَهُوَ جُزءٌ لَا يُنسبُ لِنَعِيمِ الآخِرةِ، إلَّا إذَا نُسِبَتِ الذَّرَّةُ لِلشَّمسِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، فَهَذَا جَزاءٌ عَظِيمٌ فِي عَملٍ يَسيرٍ.

وَلَا يَنبغِي أنْ نَقُولَ: إنَّ الجَنَّةَ هِيَ البُستَانُ الكَثِيرُ الأشجَارِ الذِي تُغَطَّىٰ أرضُهُ بِالزُّروعِ وهَواؤُهُ يَميلُ بِأغصَانِ الأشجَارِ؛ لأنَّنَا لَو قُلنَا لَهَانَ النَّعيمُ وَلَو فَرضنَا أنَّ الجنَّةَ فِي اللغَةِ العَربيةِ هَكَذَا مَعنَاهَا، لَكِنَّ جنَّةَ الآخِرَةِ لَيسَت كَذَلِكَ، بَل هِيَ أعظَمُ وَأعظَمُ بِكَثيرٍ.

* * *

مِن الإيمَانِ بِاليَومِ الآخِرِ الإيمَانُ بالنَّارِ

وَالنَّارُ دَارُ العَذَابِ التِي أعَدَّهَا اللهُ تَعَالَىٰ لِلكَافِرِينَ الظَّالِمِينَ، يَقولُ النَّبيُّ ﷺ: «إنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَىٰ نَارِ الدُّنيَا كُلِّهَا بِتسعَةٍ وَسِتِّينَ جُزءًا»[1] أضِف إلَيهَا تَمامَ السَّبعينَ، فنَارُ الدُّنيَا كُلُّهَا بِمَا فِيهَا، وَلَيسَت نَارَ الحَطَبِ فَقَط، أو نَارَ الغَازِ فَقَط، أو نَارَ الجَازِ فَقَط، بَل كُلُّها عَلَىٰ عِظَمِ مَا فِيهَا، هَذِهِ فُضِّلَتْ عَلَيهَا بِتِسعَةٍ وسِتِّينَ جُزءًا.

فِيهَا مِنَ العَذَابِ وَالنَّكَالِ مَا لَا يَخطُرُ عَلَىٰ البَالِ، كُلَّمَا أرَادُوا أنْ يَخرجُوا مِنهَا وَأقبَلوا عَلَىٰ شَاطِئِ السَّلامَةِ أُعِيدُوا فِيهَا، وَصَارَ هَذَا أعظَمَ فِي العَذَابِ؛ لأنَّهُم لَو بَقَوا لَيَئِسُوا وانتَهَىٰ الأمرُ؛ لَكِن إذَا أُخرِجُوا حَتَّىٰ يَقولُوا: خَرجنَا، ثُمَّ أعِيدُوا وَأركِسُوا فِيهَا صَارَ هَذَا أعظَمَ، وهَكَذَا أبَدَ الآبِدِينَ، وَاستَمِع إلَىٰ القُرآنِ الكَرِيمِ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ﴾، أي: ظَلَمَةِ الكُفرِ، لِقَولِه تَعَالَىٰ ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾. لَا مُطلَقِ الظُّلمِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾، السُّرادِقُ: هُوَ عِبَارَةٌ عَمَّا يَكُونُ عِندَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣).

مَدخلِ البَابِ، يَعنِي: أنَّ العذَابَ مُحيطٌ بِهِم مِن كُلِّ جَانبٍ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾، المُهْلُ: هُوَ الزَّيتُ الذِي يَكُونُ مِن الأوسَاخِ؛ يَعنِي: كَريهَ المَنظَرِ وكَريهَ الرَّائِحَةِ ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾، قَبلَ أن يَصِلَ إلَىٰ الفَمِ بِمُجردِ مَا يُقَرِّبُهُ هَذَا الظَّالِمُ إلَىٰ وَجهِهِ يَتَسَاقَطُ الوَجهُ -وَالعياذُ باللهِ-، وَالأمعَاءُ تَتَقَطَّعُ ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد:١٥]، وَمَعَ ذَلِكَ أحيَانًا يُصَبُّ مِن فَوقِ رُءوسِهِم الحَمِيمُ فَيشرَبُونَ الحَمِيمَ فِي بُطونِهِم، وَيُصَبُّ مِن فَوقِ رُءوسِهم ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج:٢٠]، سُبحَانَ اللهِ ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾، لأنَّهُ دَاخِلَ الأمعَاءِ، وهُنَا يُصبُّ مِن فَوقِ الرُّءوسِ وَلَكنَّهُ لَا يُقَطِّعُ الأمعَاءَ بَل يَصهَرُهَا ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج:١٩- ٢٠-٢١]. أعاذَنَا اللهُ وَإياكُم مِنهَا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩]، وَصَدقَ اللهُ تَعَالَىٰ إنَّهُ لِبئسَ الشَّرابُ.

* * *

الإيمانُ بِأنَّ الجَنةَ وَالنار مَوجُودَتانِ ولَن تَفْنَيَا أَبَدًا

وَهُمَا مَوجُودَتَانِ الآنَ، يُؤخذُ مِن قولِه تَعالَىٰ فِي الجَنَّةِ: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣]، وفِي النَّارِ: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤]، وَمِن السُّنةِ الظَّاهرةِ المَشهورةِ عَن رَسولِ اللهِ ﷺ.

ولَن تفنيَا أبدَ الآبدِينَ، دَليلُ ذَلِكَ: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾ [الطلاق:١١]، الشَّاهدُ قولُهُ: ﴿أَبَدٗا﴾ وَهَذَا صريحٌ فِي التعبيرِ، وقَالَ تَعالَىٰ فِي النَّارِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥]، والشَّاهدُ قَولهُ: ﴿أَبَدٗا﴾ وتأبيدُ النَّارِ كتأبيدِ الجَنةِ سَواءً، ويَجبُ علينَا أنْ نَعتقدَ عَقيدَةً دَلَّ علَيهَا كِتَابُ رَبِّنَا وَسُنَّةُ نَبِيِّنَا ﷺ بأنَّ النَّارَ مُؤبَّدةٌ يعنِي: أنَّها لَا تَفنَىٰ أبدًا، ولَا يُهِمُّنَا مَن قَالَ بِخلَافِ ذَلِكَ، بَل مَن قَالَ بِخلافِ ذَلِكَ نَرىٰ أَنَّهُ أخطَأ، فَمَن خَالَفَ هَذَا فَإنْ كَانَ مَبنيًّا عَلَىٰ عَقيدةٍ وَعَلَىٰ مَنهجٍ وَعَلَىٰ قَاعدَةٍ، فَهُوَ لَا شكَّ ضَالٌّ وَمُبتدِعٌ، ومَن كَانَ عَن حُسنِ نِيةٍ واجتِهَادٍ فَهُوَ مَعفوٌّ عَنهُ.

* الفِرقُ المُخَالِفَةُ لأهلِ السُّنةِ وَالجَماعَةِ فِي هَذِهِ المَسألَةِ:

١ - **الجَهمِيةُ**: القَائِلونَ بِفنَاءِ النَّارِ وَالجَنَّةِ أيضًا.

٢ - **الخَوَارِجُ وَالمُعتَزِلَةُ**: يَقولُونَ بِخلودِ كُلِّ مَن يَدخلُ النَّارَ، وَلَو كَانُوا مِن أهلِ التَّوحِيدِ، وَالمُعتزِلةُ يَرونَ أنَّ مَن ارتَكَبَ ذَنبًا فَهُوَ فِي مَنزلةٍ بَينَ المَنزِلَتينِ، فَلا هُوَ مُؤمنٌ وَلَا هُوَ كَافرٌ، وَيُجرُونَ عَلَيهِ أحكَامَ الإسلَامِ فِي الدُّنيَا، ولَكنَّهُ مُخلَّدٌ فِي النَّارِ يومَ القِيامَةِ.

٣ - **اليَهودُ**: الذِينَ يزعمُونَ أنَّهُم يُعذَّبونَ فِي النَّارِ وَقتًا مَحدُودًا، ثُمَّ يَخلُفهُم غيرُهُم فِيهَا.

٤ - **قَولُ إمَامِ الاتِّحَادِيةِ ابنِ عَرَبِيٍّ الطَّائِيِّ**: فَإنَّهُ زَعَمَ أنَّ أهلَهَا يُعذَّبونَ فِيهَا مُدَّةً، ثُمَّ تَنقَلِبُ طَبَائِعهُم نَارِيَّةً، فَيَتَلَذَّذونَ بِالنَّارِ لِموافَقَتِهَا لِطَبَائِعِهِم.

٥ - **فِرقَةٌ أخرَىٰ**: تَقولُ بِأنَّ أهلَهَا يَخرجُونَ مِنهَا وتَبقَىٰ عَلَىٰ حَالِهَا خَالِدَةً لَا تَبيدُ، ولَكِن لَيسَ فِيهَا أحَدٌ يُعذَّبُ.

٦ - **قَولُ أبِي هُذَيلٍ العَلَّافِ مِن أئِمَّةِ المُعتزِلَةِ**: ذَهَبَ إلَىٰ أنَّ حيَاةَ أهلِ النَّارِ تَفنَىٰ، ويَصِيرونَ جَمَادًا لَا يَتحرَّكونَ وَلَا يُحِسُّونَ بِألَمٍ.

٧ - **قَولٌ آخرُ**: قَولُ مَن قَالَ: إنَّ اللهَ يُخرِجُ مِنهَا مَن يَشاءُ ثُمَّ يُبقِيهَا شَيئًا ثُمَّ يُفنِيهَا، فَإنَّهُ جَعَلَ لَهَا أمَدًا تنتَهي إلَيهِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ [الأحزاب:٦٦]، التَّمنِّي رَأسُ مَالِ المَفَالِيسِ، هَذَا التَّمنِّي يَنفعهم لَو كَانَ ذَلِكَ فِي وَقتِ الإمكَانِ، أمَّا الآنَ فلَا؛ لأنَّ الإنسَانَ عِندَ انتقَالِهِ مِنَ الدُّنيَا لَا يَنفعُهُ النَّدَمُ.

وَنَشهَدُ بِالجَنَّةِ لِكُلِّ مَن شَهِدَ لَهُ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ بِالعَينِ أو بِالوَصفِ؛ أي: أنَّ الشَّهَادَةَ قَد تَكُونُ بِالعَينِ؛ بِأنْ يَشْهَدَ لِرجلٍ بِعَينِهِ أنَّهُ فِي الجَنَّةِ، فَمِن ذَلِكَ قَولُ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- فِي الشَّهَادَةِ بِالعَيْنِ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل:١٧-٢١]، فإنَّهَا بإجمَاعِ المُفَسِّرينَ كُلِّهِم أَو جُلِّهِم نَزَلَت فِي أَبِي بَكرٍ رضي الله عنه.

أَمَّا السُّنةُ التِي تَشهَدُ لأَبِي بَكرٍ بِالجَنَّةِ فَأَمرُهَا ظَاهِرٌ مَا فِيهِ إشكَالٌ.

فَمِن الشَّهَادَةِ بِالعَينِ: الشَّهادَةُ لأبِي بَكرٍ وَعُمرَ وعُثمَانَ وَعليٍّ ونَحوِهِم مِمَّن عَيَّنَهُم النَّبيُّ ﷺ، مِثل العَشرَةِ المُبشرينَ بِالجنةِ، ومِنهُم أيضًا ثَابتُ بنُ قَيسِ بنِ شَمَّاسٍ رضي الله عنه، وعُكَّاشَةُ بنُ مِحصنٍ رضي الله عنه، وَسَعدُ بنُ مُعاذٍ رضي الله عنه، وبِلَالُ بنُ رَبَاحٍ رضي الله عنه، وكَثِيرٌ شَهدَ لَهُمُ النبيُّ ﷺ بِالجَنَّةِ.

فَالذِينَ عَيَّنَهُم الرَّسولُ ﷺ يَجبُ أن نَشهَدَ لَهُم عَينًا بِالجنةِ، تَصدِيقًا لِرَسولِ اللهِ ﷺ.

مَن هُمُ العَشرَةُ المُبشَّرونَ بِالجنَّةِ؟ هُم أبُو بَكرٍ الصِّديقُ، وَعمرُ بنُ

الخطَّابِ، وَعثمَانُ بنُ عفَّانَ، وَعليُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، وَالزُّبيرُ بنُ العوامِ، وطَلحةُ ابنُ عُبيدِ اللهِ، وَعبدُ الرَّحمنِ بنُ عَوفٍ، وأبو عُبيدَةَ بنُ الجَرَّاحِ، وسَعدُ بنُ أَبِي وقَّاصٍ، وَسعيدُ بنُ زَيدٍ -رَضيَ اللهُ عَنهُم وَعنِ الصَّحابةِ أجمَعينَ-.

وَمِن الشَّهادَةِ بِالوصفِ: **الشَّهادَةُ لِكُلِّ مُؤمنٍ أو تَقيٍّ**، كُلُّ مُؤمِنٍ نَشهدُ لَهُ بِالجنَّةِ، وَكُلُّ تقيٍّ نَشهدُ لَهُ بِالجَنةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الجنةِ: ﴿**أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾، فكلُّ مُتَّقٍ فِي الجَنةِ، لَكِن لَا نَشهدُ لِفلانٍ الذِي رَأيناهُ فِي ظَاهرِ حَالِهِ مُتَّقيًا بِأنَّه مِن أهلِ الجَنةِ؛ لَكِن نَقولُ: نَرجُو لَهُ أنْ يَكُونَ مِن أهلِ الجَنةِ، وَلَا نَشهدُ لَهُ بِالجَنةِ؛ لأنَّ الرَّجلَ قَد يَعملُ بِعمَلِ أهلِ الجَنةِ فِيمَا يَظهرُ لِلنَّاسِ وهُوَ مِن أهلِ النَّارِ.

المَسألَةُ خَطيرَةٌ؛ وَلَكِن أبشِروا: إنَّ اللهَ لَن يَخذُلَ عَبدَهُ المُخلِصَ أبدًا، فَمَتىٰ كَانَ الإنسَانُ مُخلصًا للهِ مُبتغيًا لِمرضَاتِهِ، فَلَن يَخذُلَهُ اللهُ، لأنَّ اللهَ أكرَمُ مِن أنْ يَخذُلَ عَبدَهُ المُؤمِنَ، لَكِن قَد تَكُونُ فِي القَلبِ -أجَارَنَا اللهُ وإياكُم وأعَاذَنَا اللهُ وإيَّاكُم- سَريرَةٌ خَبيثَةٌ بَاطِنَةٌ مِنْ كَرَاهِيَةٍ لِلحَقِّ أَو لِبعضِ الحَقِّ، وحِقدٍ عَلَىٰ المُؤمِنينَ، ومَا أشبَهَ ذَلِكَ مِنَ الأُمُورِ التِي تَهوي بِهِ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ -والعِياذُ بِاللهِ-.

وَكَذَلِكَ أيضًا الشَّهادَةُ، فَلَو أنَّ رَجلًا قَتَلهُ الكُفَّارُ فِي صَفِّ المُسلِمينَ وهُوَ يُجاهدُ، فَلَا نَشهدُ لَهُ بِالشَّهَادَةِ، فَلا نَقولُ: فُلانٌ شَهيدٌ، لأنَّهُ قَد يَكُون فِي قلبِهِ أنَّهُ يُدافعُ عَن حَمِيَّةٍ أَو عَصَبيَّةٍ ومَا أشبَهَ ذَلكَ، ولَكِن نَقولُ: كُلُّ مَن مَاتَ

فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَىٰ فَهُوَ شَهِيدٌ.

إِذَن؛ الشَّهادَةُ أَمْرٌ مُهِمٌّ وَخطيرٌ جِدًّا، فَإِذَا فَعَلَ الإِنسَانُ فِعلَ مُؤمِنٍ تَقيٍّ تَقُولُ: أحسَبُهُ كَذَلِكَ، وَاللهُ حَسِيبُهُ، وَأرجُو لَهُ التَّوفِيقَ، وَأرجُو لَهُ الجَنَّةَ، وأرجُو لَهُ الثوابَ، وأرجُو لَهُ المَغفرةَ، حَتَّىٰ تَسلَم والحَمدُ للهِ.

وَنَقولُ: هَلْ يَضرُّهُ إذَا لَم نَشهَدْ لَهُ أَنَّهُ شَهِيدٌ، وكَانَ شَهِيدًا عِندَ اللهِ تَعالَىٰ؟ لَا يَضرُّهُ. **وَهَل يَنفعهُ إذَا شَهِدنَا لَهُ أَنَّهُ شَهِيدٌ وهُوَ لَيسَ شَهيدًا عِندَ اللهِ؟** لَا يَنفَعُهُ.

إِذَنْ؛ مَا الفَائِدَةُ فِي أَنْ نُعرِّضَ أنفسَنَا لِشيءٍ مُحَرَّمٍ عَلينَا لأجلِ إرضَاءِ بعضِ النَّاسِ؟!

وَنشهَدُ بِالنَّارِ لِكُلِّ مَن شَهدَ لَهُ الكتَابُ وَالسُّنَّةُ بِالعينِ أو بِالوصفِ فَمِن الشَّهادةِ بِالعَينِ: الشَّهادةُ لأَبِي لَهبٍ؛ بِأَنَّهُ مِن أهلِ النَّارِ، قَالَ تَعالَىٰ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد:١-٥]، كَذلِكَ أيضًا «عَمرُو بنُ لُحَيٍّ الخُزَاعِيُّ» شَهدَ لَهُ الرُّسولُ ﷺ بِأَنَّهُ يَجُرُّ قُصْبَهُ؛ يَعنِي: أمعَاءَهُ- فِي النَّارِ[1]، وكَذلِكَ كُلُّ مَن شَهدَ لَهُ الرَّسولُ ﷺ عَينًا بِالنَّارِ، فَإنَّنا نَشهَدُ لَهُ بِذلِكَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٢١)، ومسلم (٢٨٥٦).

وَمِن الشَّهَادَةِ بِالوَصفِ: الشَّهادةُ لِكُلِّ كَافرٍ أو مُشرِكٍ شِركًا أكبَرَ ومُنافِقٍ، نَقولُ: كُلُّ كَافرٍ فِي النَّارِ، وَكُلُّ مُشرِكٍ شِركًا أكبَرَ فِي النَّارِ، وَكُلُّ مُنافقٍ فِي النَّارِ، هَذَا عُمومٌ نَشهَدُ بِهِ.

هَل تَجُوزُ الشَّهادَةُ بِالنَّارِ لِكَافرٍ عَلَىٰ قَيدِ الحَيَاةِ؟: لَا تَجوزُ، لاحتِمَالِ أنْ يُسلِمَ، أمَّا إذَا مَاتَ عَلَىٰ الكُفرِ وَلَم نَعلَم أنَّهُ قَالَ يَومًا مِن الدَّهرِ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ فَهَذَا أيضًا لَا نَشهَدُ لَهُ بالنَّارِ احتِياطًا، ومَعلومٌ أنَّ الحُكمَ الاحتِيَاطِيَّ لَيسَ كَالحكمِ المَجزومِ بِه.

والذِي أرَادَهُ الشَّيخُ العُثَيمِينُ مِن ذَلِكَ: أنَّ الشَّهادَة وعَدمَهَا لَا تُقدِّمُ ولَا تُؤخِّرُ، فَلو مَاتَ عَلَىٰ الكُفرِ فَلَا تُؤَثِّرُ شَهادَتُنَا، وَكَذلِك لَا تُؤَثِّرُ لو مَاتَ عَلَىٰ الإسلَامِ.

❊ ❊ ❊

مِنَ الإيمَانِ بِاليَومِ الآخِرِ الإيمَانُ بِفتنَةِ القَبرِ

وَنُؤمِنُ بِفتنةِ القَبرِ، وَهِيَ سُؤالُ المَيتِ فِي قَبرِهِ عَن رَبِّهِ ودِينهِ ونَبيِّهِ ﷺ، نُؤمِنُ بِهَا حقًّا؛ لأنَّ القُرآنَ أشَارَ إلَيهَا، والنبيُّ ﷺ بيَّنَهَا بيانًا وَاضِحًا.

وَفِتنةُ القَبرِ: أنْ يُسأَلَ الإنسَانُ: مَن رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَن نَبيُّكَ؟ ثلاثُ مَسائِلَ.

فـ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم:٢٧]، -نَسأَلُ اللهَ أنْ يَجعَلَنَا وإيَّاكُم مِنهُم- ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ وهُوَ قَولُ الحَقِّ ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ الظَّاهِرُ أنَّ ﴿ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿ يُثَبِّتُ ﴾؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُثبِّتُهُم بِالقَولِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا وَفِي الآخِرَةِ، هَذَا أحسَنُ مِن أنْ نَقولَ إنَّهَا مُتَعلِّقةٌ بـ ﴿ٱلثَّابِتِ ﴾، وَلِهَذَا كَانَ المُؤمِنونَ حَقًّا تَثْبُتُ أقدَامُهُم عِندَ الجِهَادِ، فَلا يَفِرُّونَ ولَا يَنهزِمُونَ.

فَيقُولُ المُؤمنُ: رَبِّيَ اللهُ، ودِيني الإسلَامُ، ونَبِيِّي مُحمَّدٌ ﷺ، وأمَّا الكَافِرُ وَالمُنَافِقُ فيقُولُ: لَا أدرِي، سَمِعتُ النَّاسِ يَقولُونَ شَيئًا فَقلْتُهُ، إذَا طَبَّقتَ هَذَا الجَوابَ تَجدهُ يَنطبقُ عَلَىٰ المُنافِقِ، فَالمُنافقُ لَا يَستَطيعُ أنْ يُجيبَ حَتَّىٰ وإنْ

كَانَ يُجيبُ بِهِ فِي الدُّنيا بِأفصحِ عِبارةٍ، فإنَّهُ فِي القَبرِ يَقُولُ: هَاه هَاه لَا أدرِي.

وفَكِّرْ فِي قَولِهِ: «**هَاه هَاه**» تَجِدْ كَأَنَّهُ يَعلَمُ الشَّيءَ وَلَكِن نَسِيهُ أو عَجَزَ عَن النُّطقِ بِهِ، وَهَذَا يَكُون أَشَدَّ حَسرَةً مِمَا لَو كَانَ لَم يَعرِفْهَا.

إِذَنْ؛ الذِي يَظهرُ أنَّ الذِي يُسأَلُ: المُؤمِنُ وَالمُنافِقُ، أَمَّا الكَافِرُ فَلا يُسأَلُ؛ لأنَّهُ لَا حَاجَةَ لِسؤالِهِ، فَالامتِحَانُ إنَّمَا هُوَ لِلاختِبارِ، والكَافِرُ سَاقطٌ رَاسِبٌ فِي الاختِبَارِ مِن أصلِه فَلا يُسأَلُ، ولِذَلِكَ يَومَ القِيامَةِ لَا يُحاسَبونَ وَإِنَّمَا تُنشرُ أعمَالُهُم ويُجزَونَ بِهَا، وَيُقالُ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨]، لَكِن لَو ثَبتَ عَن الرَّسولِ ﷺ ثُبوتًا صَريحًا لَا شكَّ فِيهِ أنَّ الكَافرَ يُسأَلُ لَقُلْنَا: سَمعنَا وصَدَّقنَا وَآمنَّا؛ فَنسأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أنْ يُثَبِّتَنَا بِالقَولِ الثَّابتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا وفِي الآخِرَةِ.

❊ ❊ ❊

الإيمانُ بِنَعيمِ القَبرِ وعَذابِه

وَنُؤمِنُ بِنَعيمِ القَبرِ لِلمُؤمنينَ، وَإثبَاتُ نَعيمِ القَبرِ لِلمُؤمِنينَ مِن عَقيدَةِ أهلِ السُّنةِ والجَماعَةِ، ودَليلُهُ قَولُهُ تَعالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ أي: طَيبينَ فِي العَقيدةِ، طيبين فِي العَملِ ﴿يَقُولُونَ﴾، حَالَ تَوفِّيهِم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢]، أي: فِي ذَلِكَ اليَومِ.

فَإذَا قَالَ قائِلٌ: يُشكِلُ عَلَيَّ هذَا، فَإنَّ المَيتَ يُدفنُ فِي الأَرضِ فَكَيفَ تَقولُ المَلائِكَةُ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾؟ نَقولُ: إنَّهُ قَد ثَبتَ فِي الحَديثِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ يُفتَحُ لَهُ بَابٌ إلَىٰ الجَنَّةِ فَيأتيهِ مِن رَوحِهَا ونَعيمِهَا مَا تَقرُّ بِهِ عَينُهُ، وقَولُهُ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢]، البَاءُ هُنَا لِلسَّبَبِيَّةِ يعنِي: بِسَببِ العَملِ.

وَالبَاءُ فِي قَولِ النَّبيِّ ﷺ: «لَن يَدخلَ الجنَّةَ أحدٌ بعمَلِهِ»[1] البَاءُ هُنَا لِلمُعاوَضَةِ، فَلا يُمكِنُ لأحدٍ أنْ يَدُخلَ الجَنةَ عِوضًا عَن عَملِهِ؛ وَلَكن يَدخلُ الجَنةَ بِسببِ عَملِهِ، والفَرقُ ظَاهرٌ فَلَو أرادَ اللهُ تَعَالَىٰ العِوَضَ واللهِ لَتَخسَرَنَّ

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

خَسَارَةً مُؤَكَّدةً.

وَنؤمِنُ بِعذَابِ القَبرِ لِلظَّالِمِينَ الكَافِرِينَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣]، ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المُرادُ بِهِمُ الكَافِرونَ؛ وذَلِكَ لِقولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤] فَالحَمدُ للهِ الذِي قَالَ: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ولَم يَقُل: وَالظَّالِمونَ هُم الكَافِرونَ، ﴿فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: فِي السَّكراتِ التِي تَغمُرُهُم، يَعنِي:لَو تَرىٰ هَؤلَاءِ لَرأيتَ أمرًا عَجِيبًا، فَجوابُ لَو مَحذوفٌ؛ لِيذهبَ الذَّاهبُ كُلَّ مَذهبٍ فِي تَقدِيرِه.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: المَلائِكَةُ الذِينَ نَزلُوا لِقَبضِ أروَاحِ الكَافِرينَ، ﴿بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: مَادُّوهَا ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ سُبحَانَ اللهِ! هَذَا يَدلُّ عَلَىٰ أنَّهُم شَحِيحُونَ جِدًّا بِنفوسِهِم ولَا يَودُّونَ أنْ تَخرجَ نُفوسُهم؛ لأنَّهم -والعِياذُ باللهِ- يُبشَّرونَ بِغضَبٍ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ وَعِقَابٍ مِنَ اللهِ، فَتَتَفرَّقُ فِي الجَسدِ هَربًا مِمَّا أُنذِرَت بِهِ، فَتقولُ المَلائكَةُ: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ أي: أَعطُونَا إيَّاهَا.

وَتَصور هَذَا الأَمْرُ وكَأنَّ هَؤلَاءِ لَا يُرِيدونَ أنْ يُعطُوا أنفُسَهُم لِلمَلائكَةِ، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ أي: يَومَ تَأتِي المَلائكةُ لِقَبضِ أروَاحِ هَؤلَاءِ. ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: عَذَابَ الذُّلِّ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ هَؤلَاءِ يُجزونَ عذابَ الهُونِ لِسببَينِ:

١- الكَذبِ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ.

٢- الاستِكبَارِ عَن عِبادَةِ اللهِ تعالَىٰ.

﴿بِمَا﴾ البَاءُ هُنَا لِلسَّبَبِيَّةِ، فَهذَانِ دَليلانِ مِن القُرآنِ عَلَىٰ نَعيمِ القَبرِ وَعَلَىٰ عَذَابِ القَبرِ.

أمَّا السُّنَّةُ: فقَد تواتَرَتْ بِذلِكَ تَوَاتُرًا لَا نَظيرَ لَهُ، فَكلُّ مُسلمٍ يَقولُ فِي صَلاةٍ: أعُوذُ بِاللهِ مِن عَذَابِ جَهنَّمَ وَمِن عذَابِ القَبرِ، لأمرِ النبيِّ ﷺ بذَلِكَ؛ ولأنَّ جَميعَ الأحَاديثِ الوَاردَةِ فِي التَّواتُرِ لَا يُمكِنُ أن تَكُونَ كَأحَادِيثِ عَذابِ القَبرِ؛ فَهذَا يُشبهُ تَواتُرَ القُرآنِ الكَريمِ.

وَالأحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ مَعلومَةٌ، فَعلَىٰ المُؤمِنِ أنْ يُؤمنَ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الكِتَابُ والسُّنةُ مِن هَذِهِ الأمورِ الغَيبِيَّةِ، حَتَّىٰ يَكُونَ مِنَ المُؤمِنينَ حَقًّا.

وَألَّا يُعارِضَهَا بِمَا يُشاهِدُ فِي الدُّنيَا؛ فَإنَّ بَعضَ النَّاسِ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- أنكرَ عَذَابَ القَبرِ وَأنكرَ فِتنةَ القَبرِ، وقَالَ: كَيفَ يَكُونُ هَذَا؟ نَحنُ نَحفِرُ القَبرَ، وَثَانِي يَومٍ أَو أوَّلَ يَومٍ نَجِدُ القَبرَ هُوَ هُوَ لَم يُوسَّعْ وَلَيسَ فِيهِ آثَارُ عَذَابٍ وَنَجِدُ أنَّ البَدَنَ كَذَلِكَ لَم يَتغَيَّرْ، وَيقُولُونَ: كَيفَ يَقعُدُ الإنسَانُ فِي قَبرِهِ وهُوَ قَد وُضِعَ عَلَيهِ اللَّبِنُ؟! ومَا أشبَهَ ذَلِكَ.

فَهؤلَاءِ يَقيسُونَ أمُورَ الآخِرَةِ بِأمورِ الدُّنيَا، إذَن هُم لَيسُوا بِمُؤمِنينَ لأنَّهُم لَا يُؤمِنونَ بِالغَيبِ.

فَإِنَّ أمُورَ الآخِرَةِ لَا تُقَاسُ بِأمُورِ الدُّنيَا لِظُهورِ الفَرقِ الكَبيرِ بَينَهُمَا، فَيَجبُ عَلَينَا فِيمَا يَتعلَّقُ بِأمرِ الآخِرَةِ أنْ نُؤمِنَ ونُسَلِّمَ وَألَّا نُقولَ: كَيفَ ولِمَ؟؟

لِظهورِ الفَرقِ الكَبيرِ بَينهُمَا، وَهَذَا هُوَ الفَرقُ بَينَ المُؤمِنِ حقًّا، والمُنْكِرِ وَالمُتردِّدِ، فَالمُؤمِنُ يَقُولُ: سَمعنَا وصَدَّقنَا وآمنَّا، وَهَذَا حَقٌّ ولَا إشكَالَ فِيهِ، وَالمُلحِدُ يَترَدَّدُ أو يُنكِرُ. «واَللهُ المُستَعَانُ».



الإيمَانُ بِالقَدَرِ

وَنُؤمِنُ بِالقَدَرِ: خَيرِهِ وشَرِّهِ، وهُوَ تَقدِيرُ اللهِ تَعالَىٰ لِلكَائِنَاتِ، حَسبمَا سَبَقَ بِهِ عِلمُهُ واقتَضَتهُ حِكمتهُ.

وَالإيمَانُ بِالقَدَرِ وَاجِبٌ، وَهُوَ أَحَدُ أركَانِ الإِيمَانِ السِّتَّةِ، كَمَا أخبَرَ النَّبيُّ ﷺ بِهَذَا فِي حَدِيثِ جِبرِيلَ، حِينَ سَأَلَهُ عَنِ الإيمَانِ، فَقَالَ: «**أنْ تُؤمِنَ باللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَومِ الآخِرِ، وَتُؤمِنَ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ**»[1].

وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ وجُوبِ الإيمَانِ بِالقَدَرِ: الكِتَابُ، وَالسُّنَّةُ، وَالإجمَاعُ.

فَمِنَ الكِتَابِ:

١ - قَولُه تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩].

٢ -وقولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨].

٣ - وقولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى:٢-٣].

٤ - وقولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢].

وَغيرُ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٨).

وَمِنَ السُّنةِ:

١- حَدِيثُ جِبرِيلَ الذِي تَقَدَّمَ، وَفِيهِ: «... **وَتُؤمِنَ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ**».

٢- وَمَا أخرَجَهُ مُسلِمٌ عَن طَاوس، قَالَ: «أدرَكتُ نَاسًا مِن أصحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَقُولُونَ: كُلُّ شَيءٍ بِقَدَرٍ، قَالَ: سَمِعتُ عَبدَ اللهِ بنَ عُمرَ يَقولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **كُلُّ شَيءٍ بِقَدَرٍ حَتَّىٰ العَجْزُ وَالكَيْسُ** -أو: الكَيْسُ وَالعَجْزُ-»(١).

٣- وَمَا أخرَجَهُ مُسلِمٌ عَن عَبدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبلَ أنْ يَخلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأرضَ بِخَمسِينَ ألفَ سَنَةٍ، قَال: وَعَرشُهُ عَلَىٰ المَاءِ**»(٢).

٤- مَا أخرَجَهُ مُسلِمٌ مِن حَدِيثِ سُرَاقَةَ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، بَيِّن لَنَا دِينَنَا كَأنَّا خُلِقنَا الآنَ، فِيمَا العَمَلُ اليَومَ؟ أفِيمَا جَفَّتْ بِهِ الأقلَامُ، وَجَرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ أمْ فِيمَا نَستَقبِلُ؟ قَالَ: **لَا، بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الأقلَامُ وَجَرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ**. قَالَ: فَفِيمَ العَمَلُ؟ قَالَ: **اعمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ**»(٣).

وَالأحَادِيثُ فِي إثبَاتِ القَدَرِ كَثِيرَةٌ وَضَافِيَةٌ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٤٨).

وَأمَّا الإجمَاعُ:

فَقَد نَقَلَهُ كَثِيرٌ مِنَ الأئِمَّةِ، فَقَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شَرحِهِ عَلَىٰ مُسلِمٍ» (١/ ١٥٥): «وَقَد تَضَافَرَتِ الأدِلَّةُ القَطْعِيَّاتُ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإجمَاعِ الصَّحَابَةِ وَأهلِ الحَلِّ وَالعَقدِ مِنَ السَّلَفِ وَالخَلَفِ عَلَىٰ إثبَاتِ قَدَرِ اللهِ ﷻ».

وَقَالَ شَيخُ الإسلَامِ ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَجمُوعِ الفتَاوَىٰ»(٨/ ٤٦٦): «وَأَمَّا السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ كَمَا أَنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَغَيْرِهَا، وَهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَىٰ إثْبَاتِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، وَأَنَّهُ لَا حُجَّةَ لِأَحَدٍ عَلَىٰ اللهِ فِي تَرْكِ مَأْمُورٍ وَلَا فِعْلِ مَحْظُورٍ، فَهُمْ أَيْضًا مُتَّفِقُونَ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ حَكِيمٌ رَحِيمٌ وَأَنَّهُ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ وَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ».

وَقَالَ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الفَتحِ» (١١/ ٤٧٨): «وَمَذهَبُ السَّلَفِ قَاطِبَةً أنَّ الأمُورَ كُلَّهَا بِتَقدِيرِ اللهِ».

وَمَعَ أنَّ الإيمَانَ بِالقَدَرِ هُوَ الرُّكنُ السَّادِسُ مِن أركَانِ الإيمَانِ، فَقَد وَقَعَ فِي الجَهلِ بِهِ، وَالخَطَأ فِيهِ، كَثِيرٌ مِنَ المُسلِمِينَ، وَهُوَ دَاءٌ قَدِيمٌ.

قَالَ الخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَد يَحسَبُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أنَّ مَعنَىٰ القَضَاءِ وَالقَدَرِ إجبَارُ اللهِ ﷻ العَبدَ، وَقَهرُهُ عَلَىٰ ما قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ، وَلَيسَ الأمرُ كَمَا يَتَوَهَّمُونَهُ، وَإنَّمَا مَعنَاهُ الإخبَارُ عَن تَقَدُّمِ عِلمِ اللهِ ﷻ بِمَا يَكُونُ مِن أكسَابِ

العَبدِ، وَصُدورِهِ عَن تَقدِيرٍ مِنهُ».

وَالقَدَرُ فِي اللغَةِ بِمَعنَىٰ: التَّقدِيرِ، تَقُولُ: قَدَّرتُ الشَّيءَ، إذَا أَحَطْتَ بِمِقدَارِهِ، قَالَ تعَالَىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩].

وَأمَّا القَضَاءُ: فَهُوَ فِي اللُّغَةِ: الحُكمُ.

فَالتَّقدِيرُ: هُوَ مَا قَدَّرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الأزَلِ أنْ يَكُونَ فِي خَلقِهِ.

وَالقَضَاءُ: هُوَ مَا قَضَىٰ اللهُ ﷻ بِهِ فِي خَلقِهِ، مِن إيجَادٍ أو إعدَامٍ أو تَغييرٍ.

وَالمُرَادُ بِالقَدَرِ هُنَا: تَعلُّقُ عِلمِ اللهِ بِالكَائِنَاتِ، وَإرَادَتُهُ لَهَا أزَلًا قَبلَ وجُودِهَا، فَلَا حَادِثَ إلَّا وَقَد قَدَّرَهُ اللهُ؛ أي: سَبَق عِلمُهُ بِهِ، وَتَعَلَّقَتْ بِهِ إرَادَتُهُ.

* وَلِلقَدَرِ أربَعُ مَرَاتِبَ:

المَرتَبةُ الأولَىٰ: «العِلمُ»: فَنُؤمِنُ بِأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ، عَلِمَ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَكَيفَ يَكُونُ بِعلمِهِ الأزلِيِّ الأبَدِيِّ، فَلا يَتجَدَّدُ لَهُ عِلمٌ بَعدَ جَهلٍ، ولَا يَلحَقُهُ نِسيانٌ بَعدَ عِلمٍ، وَعِلمُهُ تعَالَىٰ صِفَةٌ مِن صِفَاتِهِ تَعَالَىٰ الذَّاتِيَّةِ، التي لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ مُتَّصِفًا بِهَا أزَلًا وَأبَدًا.

المَرتَبةُ الثَّانِيةُ: «الكِتَابَةُ»: فَنؤمِنُ بِأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ كَتَبَ فِي اللَّوحِ المَحفُوظِ مَا هُوَ كَائِنٌ إلَىٰ يومِ القِيامَةِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠].

المَرتَبةُ الثَّالِثَةُ: «المَشِيئَةُ»: فَنؤمِنُ بِأنَّ اللهَ قَد شَاءَ كُلَّ مَا فِي السَّمَوَاتِ

والأَرضِ، لَا يَكُونُ شَيءٌ إلَّا بِمَشيئَتِهِ؛ مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَم يَشَأ لَم يَكُنْ.

المَرتبَةُ الرَّابِعةُ: «الخَلْقُ»: فَنؤمِنُ بِأنَّ الله تَعَالَىٰ: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [الزمر:٦٢-٦٣].

وهذِهِ المَرَاتِبُ الأربَعُ شَامِلَةٌ لِمَا يَكُونُ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ نَفسِهِ، وَلِمَا يَكُونُ مِنَ العِبَادِ، فَكلُّ مَا يَقومُ بِهِ العِبَادُ مِن أقَوالٍ أو أفعَالٍ أو تُرُوكٍ فَهِيَ مَعلومَةٌ للهِ تَعَالَىٰ، مَكتوبَةٌ عِندَهُ، وَاللهُ قَد شَاءَهَا وَخلقَهَا؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩]، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣]، ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ [الأنعام:١٣٧]، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

ولكِنَّنا مَعَ ذَلِكَ نُؤمِنُ بِأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ جَعَلَ لِلعَبدِ اختِيَارًا وَقُدرَةً بِهمَا يَكُونُ الفِعلُ، والدَّلِيلُ عَلَىٰ أنَّ فِعلَ العَبدِ بِاختِيَارِهِ وَقُدرَتِهِ أمُورٌ:

الأمرُ الأَوَّلُ: قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾ [البقرة:٢٢٣]، وقَولُهُ: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾ [التوبة:٤٦]، فَأثبَتَ لِلعَبدِ إتيَانًا بِمَشِيئَتهِ، وإعدَادًا بِإرَادَتِهِ.

الأمرُ الثَّانِي: تَوجِيهُ الأمرِ وَالنَّهي إلَىٰ العَبدِ، وَلَو لَم يَكُن لَهُ اختِيَارٌ وقُدرَةٌ لَكَانَ تَوجِيهُ ذَلِكَ إليهِ مِنَ التَّكلِيفِ بِمَا لَا يُطَاقُ، وَهُوَ أمرٌ تَأبَاهُ حِكمَةُ

اللهِ تَعَالَىٰ وَرحمَتُهُ وخَبَرُهُ الصَّادِقُ فِي قَولِهِ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة:٢٨٦].

الأمرُ الثَّالِثُ: مَدحُ المُحسِنِ عَلَىٰ إحسَانِهِ، وذَمُّ المُسِيءِ عَلَىٰ إسَاءَتِهِ، وإثَابَةُ كُلٍّ مِنهُمَا بِمَا يَستَحِقُّ، وَلَولَا أنَّ الفِعلَ يَقعُ بِإرَادَةِ العَبدِ وَاختِيَارِه؛ لَكَانَ مَدحُ المُحسِنِ عَبَثًا، وَعُقُوبَةُ المُسيءِ ظُلمًا، وَاللهُ تَعَالَىٰ مُنزَّهٌ عَن العَبثِ وَعَنِ الظُّلمِ.

الأمرُ الرَّابعُ: أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أرسَلَ الرُّسلَ ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء:١٦٥]، وَلَولَا أنَّ فِعلَ العَبدِ يَقعُ بإرَادَتِهِ وَاختِيَارِهِ مَا بَطَلَتْ حُجَّتُهُ بِإرسَالِ الرُّسلِ.

الأمرُ الخَامِسُ: أنَّ كُلَّ فَاعلٍ يُحِسُّ أَنَّهُ يَفعَلُ الشَّيءَ أو يَترُكُهُ بِدُونِ أيِّ شُعُورٍ بِإكرَاهٍ، فَهُوَ يَقُومُ وَيَقعُدُ، وَيَدخُلُ وَيَخرُجُ، وَيُسَافِرُ وَيُقِيمُ، بِمَحضِ إرَادَتِهِ، وَلَا يَشعرُ بِأنَّ أحَدًا يُكرِهُهُ عَلَىٰ ذَلِكَ، بَل يُفرِّقُ تَفرِيقًا وَاقِعيًّا بَينَ أنْ يَفعلَ الشَّيءَ بِاختِيَارِهِ وَبَينَ أنْ يُكرِهَهُ عَلَيهِ مُكرِهٌ.

وكَذَلِكَ فَرَّقَ الشَّرعُ بَينَهُمَا تَفرِيقًا حَكِيمًا، فَلَم يُؤاخِذِ الفَاعِلَ بِمَا فَعَلَهُ مُكْرَهًا عَلَيهِ فِيمَا يَتعلَّقُ بِحقِّ اللهِ تَعَالَىٰ.

وَنَرَىٰ أنَّهُ لَا حُجَّةَ لِلعَاصِي عَلَىٰ مَعصِيتِهِ بِقَدَرِ اللهِ تَعَالَىٰ: لأنَّ العَاصِيَ يُقدِمُ عَلَىٰ المَعصِيَّةِ بِاختِيَارِهِ، مِن غَيرِ أنْ يَعلَمَ أنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدَّرهَا عَلَيهِ، إذْ لَا يَعلَمُ أحَدٌ قَدَرَ اللهِ تَعَالَىٰ إلَّا بَعدَ وقُوعِ المقدُورِ ﴿مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾،

فَكَيفَ يَصِحُّ الاحتِجَاجُ بِحُجَّةٍ لَا يَعلَمُهَا المُحتَجُّ بِهَا حِينَ إقدَامِهِ عَلَىٰ مَا اعتَذَرَ بِهَا عَنهُ؟!

وَقَد أَبطَلَ اللهُ هَذِهِ الحُجَّةَ بِقَولِهِ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١٤٨].

الرَّدُّ عَلَىٰ العَاصِي المُحتَجِّ بِالقَدَرِ: نَقولُ لَهُ: لِمَاذَا لم تُقْدِمُ عَلَىٰ الطَّاعَةِ مُقدِّرًا أنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَد كَتَبهَا لَكَ؟

وَنَقولُ لَهُ: لَو أَردتَ السَّفَرَ فَإِنَّكَ سَتَسلكُ الطَّرِيقَ الذِي أُخبِرْتَ أَنَّهُ آمنٌ، فَلمَاذَا لَا تَسلكُ الطَّرِيقَ الذِي لَيسَ بِآمِنٍ وتَقولُ: إِنَّهُ مُقدَّرٌ عَلَيَّ؟

وَنَقولُ لَهُ: لَو عُرِضَتْ عَلَيكَ وَظِيفَتَانِ فَستَختَارُ ذَاتَ الرَّاتِبِ الأَكثَرِ، فكيفَ تَختَارُ لِنَفسِكَ فِي عَمَلِ الآخِرَةِ مَا هُوَ الأدنَىٰ ثُمَّ تَحتَجُّ بِالقَدَرِ؟

وَنَقولُ لَهُ: إذَا أُصِبتَ بِمَرضٍ جِسمِيٍّ طَرَقتَ بَابَ كُلِّ طَبِيبٍ، وَصبَرتَ عَلَىٰ آلَامِ العِلَاجِ، فَلمَاذَا لَا تَفعلُ مِثلَ ذَلِكَ فِي مَرَضِ قَلبِكَ بِالمعَاصِي؟

ونُؤمنُ بِأَنَّ الشَّرَّ لَا يُنسَبُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ لِكَمَالِ رَحْمَتِهِ وحِكمتِهِ: قَالَ النبيُّ ﷺ: «**وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيكَ**»[1] فَنفسُ قَضَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ لَيسَ فِيهِ شَرٌّ أبدًا؛ لأَنَّهُ

(١) أخرجه مسلم (٧٧١).

صَادِرٌ عَن رَحمَةٍ وَحِكمَةٍ، وإنَّمَا يَكُونُ الشَّرُّ فِي مَقضِيَّاتِهِ، لِقَولِ النبيِّ ﷺ فِي دُعَاءِ القُنوتِ الذِي عَلَّمَهُ الحَسنَ: «**وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيتَ**»[1] فَأَضَافَ الشَّرَّ إلَىٰ مَا قضَاهُ، وَمَعَ هَذَا فَإنَّ الشَّرَّ فِي المَقضِيَّاتِ لَيسَ شَرًّا خَالِصًا مَحضًا، بَل هُوَ شَرٌّ فِي مَحَلِّهِ مِن وَجهٍ، خَيرٌ مِن وَجْهٍ، أَو شَرٌّ فِي مَحَلِّهِ، خَيرٌ فِي مَحَلٍّ آخَرَ.

فَالفَسادُ فِي الأَرضِ مِنَ: الجَدبِ وَالمَرَضِ وَالفَقرِ والخَوفِ شَرٌّ؛ لَكنَّهُ خَيرٌ فِي مَحَلٍّ آخَرَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وَقَطعُ يَدِ السَّارِقِ وَرجمُ الزَّانِي شَرٌّ بِالنِّسبَةِ لِلسَّارِقِ والزَّانِي فِي قَطعِ اليَدِ وإزهَاقِ النَّفسِ؛ لَكِنَّهُ خَيرٌ لَهُمَا مِن وَجهٍ آخَرَ، حَيثُ يَكُونُ كَفَّارَةً لَهُمَا فَلَا يَجمَعُ لَهُمَا بَينَ عُقُوبَتَي الدُّنيَا والآخِرَةِ، وهُوَ أَيضًا خَيرٌ فِي مَحَلٍّ آخَرَ، حَيثُ إنَّ فِيهِ حِمَايَةَ الأموَالِ والأَعرَاضِ والأَنسَابِ.

وَقَدْ ضَلَّ فِي القَضَاءِ وَالقَدَرِ فِرقَتَانِ: القَدَرِيَّةُ، وَالجَبرِيَّةُ.

فَالقَدَرِيَّةُ يَقُولُونَ: إنَّ العِبَادَ يَخلُقُونَ أفعَالَهُم، وَإنَّ اللهَ لَم يُقَدِّرهَا عَلَيهِم، وَمُقتَضَىٰ قَولِهِم هَذَا أنَّ أفعَالَ العِبَادِ وَقَعَتْ فِي مُلكِ اللهِ، وَهُوَ لَم يُقَدِّرْهَا، وَأَنَّهُم بِخَلْقِهِم لأفعَالِهِم مُستَغنُونَ عَنِ اللهِ، وَأنَّ اللهَ لَيسَ خَالِقًا لِكُلِّ شَيءٍ، بَلِ العِبَادُ خَلَقوا أفعَالَهُم، وَهَذَا مِن أبطَلِ البَاطِلِ، فَإنَّ اللهَ ﷻ خَالِقُ

(١) أخرجه أبو داود (١٤٢٥)، والترمذي (٤٦٤)، والنسائي (١٧٤٥)، وابن ماجه (١١٧٨)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٤٢٩).

العَبَادِ وخَالِقُ أفعَالِ العِبَادِ، فَهُوَ خَالِقُ الذَّوَاتِ وَالصِّفَاتِ، كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد:١٦]، وَقَوْلِهِ سُبحَانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

وَأمَّا **الجَبرِيَّةُ**: فَهُم الذِينَ سَلَبُوا عَنِ العَبدِ الاختِيَارَ، وَلَمْ يَجعَلُوا لَهُ مَشِيئَةً وَلَا إِرَادَةً، وَسَوَّوا بَينَ الحَرَكَاتِ الاختِيَارِيَّةِ وَالحَرَكَاتِ الاضطِرَارِيَّةِ، وَزَعَمُوا أنَّ حَرَكَاتِهِم بِمَنزِلَةِ حَرَكَاتِ الأشجَارِ، وَأنَّ حَركَةَ الآكِلِ وَالشَّارِبِ وَالمُصَلِّي وَالصَّائِمِ كَحَرَكَةِ المُرتَعِشِ، لَيسَ لِلإنسَانِ فِيهَا كَسبٌ وَلَا إرَادَةٌ.

وَأهلُ السُّنَّةِ فِي بَابِ القَضَاءِ وَالقَدَرِ: وَسَطٌ بَينَ الجَبرِيَّةِ الغُلَاةِ فِي الإثبَاتِ، وَالقَدَرِيَّةِ النُّفَاةِ؛ فَإِنَّ أهلَ السُّنَّةِ أثبَتُوا لِلعَبدِ مَشِيئَةً تَابِعَةً لِمَشِيئَةِ اللهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩].

* * *

فَصـلٌ: فِي ثمراتِ العقيدةِ الصحيحةِ

هَذِهِ العَقِيدَةُ السَّامِيَةُ المُتَضمِّنَةُ لِهَذِهِ الأصُول العَظِيمَة تُثمر لِمُعتَقِدِهَا ثَمَرَاتٍ جَلِيلَةً كَثِيرَةً.

* فَالإيمَانُ بِاللهِ تَعَالَىٰ وأسمَائِهِ وصِفَاتِهِ:

يُثمِرُ لِلعبدِ مَحبَّةَ اللهِ وَتَعظِيمَهُ المُوجِبَينِ لِلقيَامِ بِأمرِهِ وَاجتِنَابِ نَهْيِهِ، والقِيَامُ بِأمرِ اللهِ تَعَالَىٰ وَاجتِنابُ نَهيِهِ يَحصلُ بِهِمَا كَمَالُ السَّعادَةِ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ لِلفَردِ وَالمُجتَمعِ، قَالَ تَعالَىٰ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧].

* ومِن ثَمرَاتِ الإيمَانِ بِالمَلائِكَةِ:

١ - العِلمُ بِعظمَةِ خَالِقِهِم -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- وَقُوتِهِ وَسلطَانِهِ.

٢- شُكرُهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِنَايَتِهِ بعِبَادِهِ، حَيثُ وَكَّلَ بِهِم مِن هَؤلَاءِ المَلائكةِ مَن يَقومُ بِحفظِهِم وَكتَابَةِ أعمَالِهِم وغيرِ ذَلِكَ مِن مَصَالِحِهِم.

٣- مَحبَّةُ المَلائِكَةِ عَلَىٰ مَا قَامُوا بِهِ مِن عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الوَجهِ الأكمَلِ واستِغفَارُهم لِلمُؤمِنينَ.

* وَمِن ثَمرَاتِ الإيمَانِ بِالكُتبِ:

١ - العِلمُ بِرَحمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ وعِنَايَتِهِ بِخلقِهِ، حَيثُ أَنْزَلَ لِكُلِّ قَومٍ كتَابًا يَهدِيهم بِهِ.

٢- ظُهورُ حِكمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، حَيثُ شَرَعَ فِي هَذِهِ الكُتبِ لِكُلِّ أُمَّةٍ مَا يُناسِبُهَا، وَكَانَ خَاتَمَ هَذِهِ الكُتبِ القُرآنُ العَظِيمُ، مُنَاسِبًا لِجَميعِ الخَلقِ فِي كُلِّ عَصرٍ ومَكَانٍ إِلَىٰ يَومِ القِيَامَةِ.

٣- شُكرُ نِعمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ.

* ومِن ثَمَراتِ الإيمَانِ بِالرُّسُلِ:

١ - العِلمُ بِرحمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ وَعِنايتِهِ بِخلقِه، حَيثُ أرسَلَ إلَيهِم أولَئِكَ الرُّسلَ الكِرَامَ لِلهِدَايَةِ وَالإرشَادِ.

٢- شُكرهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ هَذِهِ النِّعمَةِ الكُبرَىٰ.

٣- مَحبَّتُهُم وَتَوقِيرُهُم وَالثَّناءُ عَلَيهِم بِمَا يَلِيقُ بِهِم؛ لأَنَّهُم رُسلُ اللهِ وَخُلاصَةُ عَبيدِه، قَامُوا بِعبَادَتِهِ وَتبلِيغِ رِسَالَتِهِ وَالنُّصحِ لعبَادِهِ والصَّبرِ عَلَىٰ أذَاهُم.

* ومِن ثمَرَاتِ الإيمَانِ بِاليَومِ الآخِرِ:

١ - الحِرصُ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَىٰ رَغبَةً فِي ثَوابِ ذَلِكَ اليَومِ، والبُعدُ عَن مَعصِيتِهِ خَوفًا مِن عِقَابِ ذَلِكَ اليَومِ.

٢- تَسلِيةُ المُؤمِنِ عمَّا يَفوتُهُ مِن نَعيمِ الدُّنيَا وَمَتَاعِهَا بِمَا يَرجُوهُ مِن نَعيمِ الآخِرَةِ وثَوَابِهَا.

*** وَمِن ثَمَراتِ الإيمَانِ بِالقَدَرِ:**

١- الاعتِمَادُ عَلَىٰ اللهِ عِندَ فِعلِ الأسبَابِ؛ لأنَّ السَّببَ وَالمُسبَّبَ كِلَيهِمَا بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِه.

٢- رَاحَةُ النَّفسِ وَطُمَأنِينَةُ القَلبِ؛ لأنَّهُ مَتَىٰ عَلِمَ أنَّ ذَلِكَ بِقَضَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَأنَّ المَكرُوهَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، ارتَاحَتِ النَّفسُ واطمَأنَّ القَلبُ ورَضِيَ بِقضَاءِ الرَّبِّ، فَلا أحَدَ أطيَبُ عَيشًا وَأَهْدَأُ نَفسًا وَأقوَىٰ طُمأنِينَةً مِمَّن آمَنَ بِالقَدَرِ.

٣- طَردُ الإعجَابِ بِالنَّفسِ عِندَ حُصُولِ المُرَادِ؛ لأنَّ حُصُولَ ذَلِكَ نِعمَةٌ مِنَ اللهِ بِمَا قَدَّرَهُ مِن أسبَابِ الخَيرِ وَالنَّجَاحِ، فَيشكُرُ اللهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ ويَدَعُ الإعجَابَ.

٤- طَردُ القَلقِ والضَّجَرِ عِندَ فَواتِ المُرَادِ أو حُصُولِ المَكرُوهِ؛ لأنَّ ذَلِكَ بِقضَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ الذِي لَهُ مُلكُ السَّمواتِ وَالأرضِ وهُوَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، فَيصبِرُ عَلَىٰ ذَلِكَ ويَحتَسِبُ الأجْرَ، وإِلَىٰ هَذَا يُشيرُ اللهُ تَعَالَىٰ بِقَولِهِ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ

لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٢-٢٣].

فَنسأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أنْ يُثَبِّتنَا عَلَىٰ هَذِهِ العَقِيدَةِ، وَأنْ يُحقِّقَ لَنَا ثَمَرَاتِهَا ويَزِيدَنَا مِن فَضلِهِ، وألَّا يُزِيغَ قُلوبَنَا بَعدَ إذْ هدَانَا؛ وأنْ يَهَبَ لَنَا مِنهُ رَحمَةً، إنَّهُ هُوَ الوَهَّابُ.

وَالحمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

وصَلَّىٰ اللهُ وسَلَّمُ عَلَىٰ نَبينَا مُحمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وأصحَابِهِ والتَّابِعينَ لَهُم بِإحسَانٍ.



وَقَدْ تَمَّ تَهذِيبُ:

« شَرحِ عَقِيدَةِ أهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ »

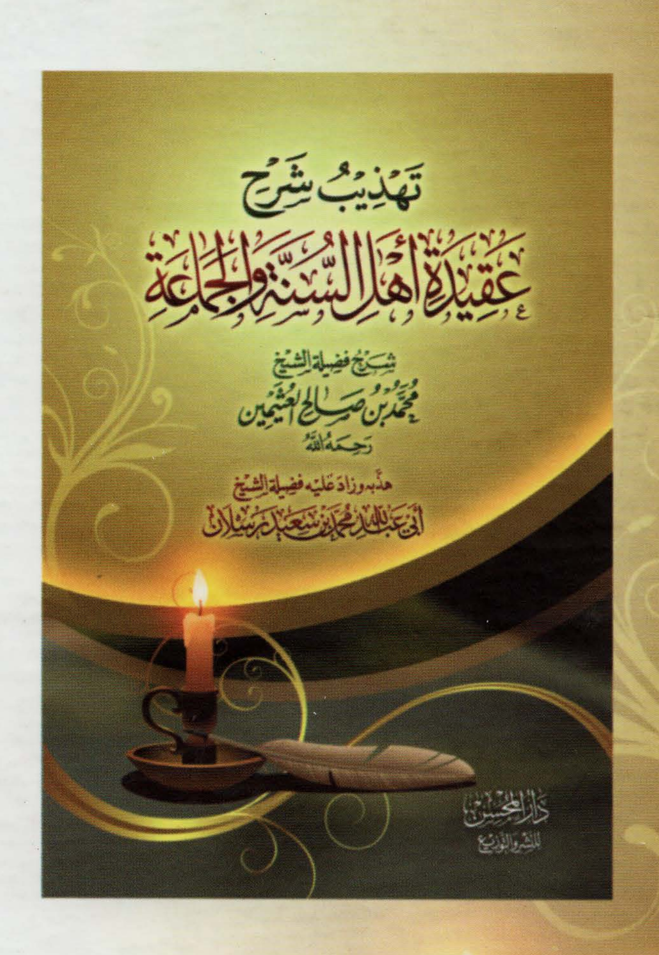
لِلعَلَّامَةِ الشَّيخِ مُحمَّدِ بنِ صَالحِ بنِ عُثَيمِينَ، مَعَ الزِّيَادَةِ عَلَيهَا، وَتَحرِيرِ بَعضِ مَسَائِلهَا، فِي لَيلَةِ الجُمعَةِ الرَّابعِ وَالعِشرِينَ مِن شَهرِ رَجبٍ الأَصَبِّ، لِسَنَةِ ثَلَاثِينَ وَأربَعمِئَةٍ وَألفٍ مِنَ هِجرَةِ النَّبيِّ ﷺ، المُوَافِق بِقَدَرِ اللهِ تَعَالَىٰ لِلسَّابعَ عَشَر مِن شَهرِ يُوليه لِسَنَةِ تِسعٍ وَألفَينِ مِنَ التَّارِيخِ النَّصرَانِيِّ، فِي سُبكِ الأَحَدِ مِن أعمَالِ مُدِيرِيَّةِ المُنُوفِيَّةِ بمصرَ حَفِظَهَا اللهُ وَسَائِرَ بِلَادِ المُسلِمِينَ.

وَآخِرُ دَعوَانَا أَنِ الحَمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

* * *

الفهـــرس

* * *



تهذيب
شرح عقيدة أهل السنة والجماعة